الجزء الثاني من رواية "مشرحة بغداد"

بُرهان شاوي

MOURNING BEFITS MRS. BAGHDAD

الحداد يليق بالسيدة بغداد

رواية

الحداد
يليق
بالسيدة
بغداد

بُرهان شاوي

الحداد يليق بالسيدة بغداد

منشورات مقبرة الكتب

الحداد يليق بالسيدة بغداد
بُرهان شاوي
رواية
الطبعة الأولى 2022
____
حقوق الطبع محفوظة **لمنشورات مقبرة الكتب**
إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.
Cemetery.of.books@gmail.com
____
التصميم : ماهر عدنان

منشورات مقبرة الكتب

ISBN 978-9922-9666-1-8
9 789922 966618

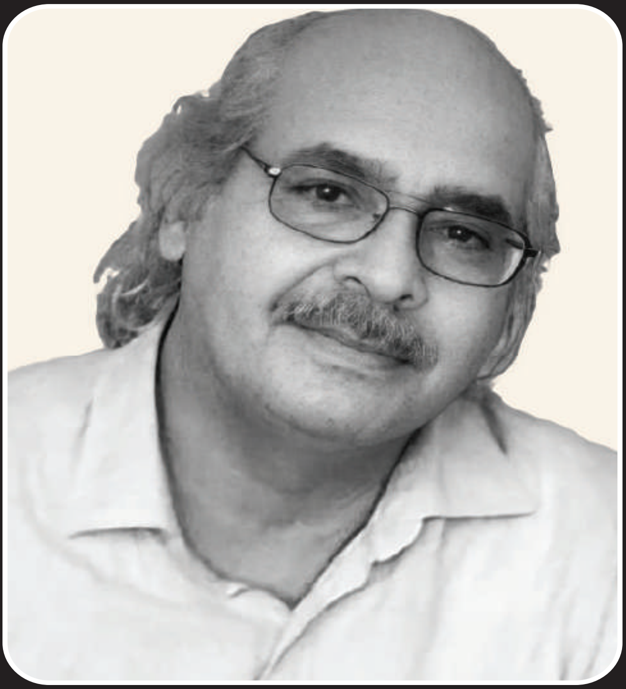

بُرهان شاوي

شاعر وروائي..

صدر له 40 كتابًا.

من بينها: 13 رواية: الجحيم المقدس ، مشرحة بغداد ، استراحة مفيستو ، متاهة آدم ، متاهة حواء ، متاهة قابيل ، متاهة الأشباح ، متاهة إبليس ، متاهة الأرواح المنسية ، متاهة العميان ، متاهة الأنبياء ، متاهة العدم العظيم ، كما صدرت له الرواية الأولى من سلسلته الجديد: فندق باب السماء — ج1 — مملكة الموتى الأحياء.

في الشعر صدرت له سبع مجموعات: مراثي الطوطم ، رماد المجوسي ، ضوء أسود ، تراب الشمس ، رماد القمر ، شموع للسيدة السومرية ، وخطوات الروح. كما صدرت له المجموعة الشعرية الكاملة.

ترجم عن الروسية أشعارًا ونصوص نثرية مختارة لكل من: أوسيب ماندلشتام ، يوسف برودسكي ، آنا آخماتوفا ، وفلاديمير فيسوتسكي.

ولديه الكثير من الكتب الأكاديمية والفكري منها: وهم الحرية ، عن الإبداع وسلوك المبدع ، جماليات اللغة السينمائية ، سحر السينما ، لغة الفن التشكيلي ، تمارين لياقة الممثل الجسدية ، مدخل إلى السينما الكوردية ، نظريات التأثير الإعلامي ، الدعاية والاتصال الجماهيري عبر التاريخ — المجلد الأول: حضارات الشرق القديم ، المدخل إلى الاتصال الجماهيري.

ظلام ظلام ظلام،
جميعهم يمضون فى الظلام،
فى الفضاء الخالى مابين النجوم،
الفراغ فى الفراغ.
***
وقلت لروحى اسكنى ودعى الظلام يحل عليك
والذى سوف يكون ظلام الله،
كما فى مسرح عندما تخفت الاضواء بحفيف
أجنحة جوفاء،
وحركة الظلام على الظلام.

ت. إس. إليوت
(الرباعيات الأربع)

(1)

النفق المظلم تحت مدينة بغداد

في ذلك الفجر البغدادي الغامض زحفتْ الجثث الهاربة من «مشرحة بغداد» على المدينة. أخذتْ الجثثُ تملأ الشوارعَ والأزقة والساحات..، وتزحف، في حشود، على الجسور والمنعطفات.

حشودٌ من الجثث المستقيمة القامة، تتحرك ماشية كالأحياء، لكنها تنظر نظرات تائهة، وبلهاء، وكأنها تنظر في الفراغ. حركتها بطيئة، وآثار عملياتِ التشريح وندوبه وخياطته كانت واضحة على وجوهها وأجسادها.

جثث تزحف بخطى بطيئة ورتيبة، وكأنها في موكبٍ جنائزي، لكنها كانت تمشي وكأنها تعرف إلى أين تتجه، فجميع الجثث الماشية، والتي خرجتْ من كل منعطف وشارع وزقاق، تلتقي عند باب المعظم لتشكل جيشًا من الجثث يتجه نحو شارع الرشيد مجتازه إياه نحو ساحة التحرير.

كان فجرًا بغداديًا غامضًا، فجرًا لم يتبين فيه الخيط الأبيض عن الأسود. لا ضوء النهار يزحف

لينير الكون الأرضي ولا عتمة الليل ترحل، وكأن الزمن قد توقف والشمس أجّلت ظهورها، فالظلام لا يرغب في المغادرة، والضوء الحليبي الأبيض يتردّد في الزحف على سماء البلاد.

هكذا تجمّد الزمن، فلا هو يبشر بقدوم النهار ولا الليل قد غادر، لكن الزمن لن يتوقف في بغداد.

***

في باب المعظم كان حارس المشرحة آدم والصبي آدم الصغير، الذي بقيَّ وحده بعد أن هربتْ جدته مع بقية الجثث من المشرحة، يقفان كالغرباء في هذا العالم الغامض.

هل أنت متأكد من إنني ميت أيها الصغير آدم؟

ارتبك الصبي- الجثة، آدم الصغير، وقال بعفوية وببراءة:

لا أدري.. سمعتهم يقولون عنك ذلك..!

صمت آدم الحارس للحظات وقال:

وكيف نتأكد من ذلك؟

لا أعرف كيف..!

انتبه آدم الحارس كيف أن الفجر قد بدأ يجرف شيئًا من ضفة الليل، وأن هناك انكشاف

للضوء الأبيض بدأ يلوّن فضاء بغداد المعتم، فبدتْ بناية المشرحة كبيت للأشباح. وصارتْ حركة الحشود البطيئة والمريبة أكثر وضوحًا.

وعلى الرغم من أن الحارس آدم كان يمشي إلى جانب جثة الصبي آدم الصغير، إلا إنه كان غارقاً في تأملاته، وكان يسأل نفسه: «لماذا تهرب الجثث من المشرحة..؟ أتخاف من أن تتوغل في رحلة الموت..؟ أتخاف مما سيأتي بعد الدفن في القبور؟ وكيف ستعيش هذه الجثث..؟ هل تتحرك بالروح أو بدونها..؟ وكيف له أن يتأكد من نفسه.. هل هو حي أو ميت..؟».

كانت تباشير الفجر قد بدأتْ ملامحها واضحة في السماء، ومع انبلاج الخيط الأبيض عن الخيط الأسود، رأى الحارس آدم كيف أن الحياة الميتة بدأت تدبّ في بغداد..

كانتْ الشوارع والأزقة لا تكف عن رفد المدينة بالجثث الحية الهاربة. وكان هو قد شاهد الكثير منها في قاعة الثلاجات، بل إنه عرف بعضها حين مرت من أمامه، وكان متأكدًا من موتها، كان متأكدًا من أن أغلب الماشين ليسوا سوى جثثٍ تتحرك، لكنه لم يكن متأكدًا من شيء واحد، هل هو جثة أيضًا..؟ حي أو ميت..؟

أخذ بيد الصبي آدم الصغير قائلًا له:

- عليّ أن أعرف هل أنا ميت أم حي؟ لكن كيف لي أن أعرف ذلك؟

نظرت جثة الصبي آدم الصغير إلى آدم الحارس نظرة مليئة بالطيبة والحزن والشفقة، وقالت وكأنها تخاطب طفلًا بعمرها:

لا أعرف كيف ستتأكد من ذ لك ياآدم..!؟ أنا لا أستطيع أن أجيبك هل أنت حي أم ميت؟

من يستطيع أن يجيبني إذن؟

لا أحد..

كيف لا أحد؟ لا بد أن يأتي أحد ليقول لي الحقيقة؟

نظرت جثة الصبي إليه بحزن وقالت:

أية حقيقة يا آدم؟ لا أحد سيأتي ليقول لك الحقيقة.

كانا يقفان على الرصيف الجانبي حين مرتْ حشود الجثث من أمامهما. انتبه آدم الحارس إلى بعض الجثث السائرة ضمن الحشود، وكانت قريبة منهما، عرفها، فسبق له أن رآها في ثلاجات حفظ الجثث، لكن تلك الجثث لم تعره اهتمامًا وكأنه غير موجود، فنظراتها التائه لا تراه.

ما أثار استغراب آدم الحارس إن الحياة كانت

طبيعية، فقد انتبه إلى جثة تجلس على كرسي، وأمامه حامل خشبي يعرض عليه الصحف التي وصلت قبل قليل من المطابع. وقرأ مانشيتات عريضة متشابهة كلها ذات مضمون واحد:

«هروب مئات الجثث من «مشرحة بغداد»».

«زومبي بغداد: سنتصدى للمخربين والعملاء الذين اسيقظوا من قبورهم.. «.

«وباء غريب يجتاح البلاد.. جثث تستيقظ من موتها وتريد تخريب البلاد..»».

لم يفهم آدم الحارس ما يجري، وحين التفتَ إلى حشود الجثث التي تتجه عبر شارع المدينة الرئيسي، أدركَ بأن ثمة شيء غير عادي يجري في المدينة، ولكنه كان في حيرة سؤال موته.

انتبهَ إلى آدم الصبي وهو يهز كفه وكأنه يريد إثارة انتباهه. حيث نظر إلى الصبي - الجثة رأى علامات الخوف مرتسمة على وجهه، وانتبه إلى إنه يشر إلى جهة ساحة الميدان المقابلة للمكان الذي يقف عنده.

هاله ما رأى وشعر بصدمة مرعبة، فقد كانت هناك قطعان من الجرذان الكبيرة الحجم تزحف ببطء كقطيع من الغنم. جرذان كبيرة الحجم، تكشف عن نواجذها القاطعة متبخترة بالشعيرات

التي تشكل شاربها. جرذان بشرية، لأن القطيع كان يسير مثل بقية حشود الجثث.

كانتْ الجرذان الكبيرة تزحف نحو وسط ساحة الميدان، ثم انعطفت باتجاه الشارع الرئيس. فجأة توقف طابور الجثث السائرة ليفسح للجرذان الكبيرة الجحم المجالَ كي تنتظم ضمن الطابور وتسير مع حشد الجثث، حيث يتقدمها طابور الجثث ويتأخر عنها من الخلف طابور الجثث أيضًا.

من هؤلاء يا آدم؟ لماذا هذه الجرذان كبيرة الحجم وكأنها خرفان تمشي؟ سأل الصبي آدم الصغير بصوت مليء بالخوف.

لا أعرف؟ أنا أيضا أرى، لأول مرة، جرذان بهذا الحجم، لكنها كما يبدو ليست جرذان..!!ربما هم بشر جرذان..! أجاب آدم الحارس.

لا.. هي جرذان.. أنا أعرف الجرذان.. رأيت منها بين سقوف بيت جدتي. هي أكبر من الفأر بقليل لكن ليست كهذه التي وكأن واحدها خروف يمشي..!

صحيح.. لذلك أقول لك هي ليست جرذان.. هي بشر.. بشر خرجوا من تحت مجاري المدينة في هيئة جرذان.. جرذان كبيرة مخيفة..!

أنا أخاف منها.. قال الصبي.

لا تخف.. نحن يجب أن نتجنبها فيمكن أن تهجم علينا..! ثم أنها كما يبدو تمشي بانتظام وكأنها متدربة على ذلك.

تشبث الصبي آدم الحارس بكف آدم الحارس بقوة.

أخذ آدم الحارس والصبي آدم يمشيان بموازة الحشد الذي يسير في وسط الشارع وفي الاتجاه نفسه. واستغرب ضخامة هذا العدد من الجثث التي انتظمت لتمشي في اتجاه واحد، وسأل نفسه: «إلى أين يتجه حشد الجثث الهاربة في هذا الفجر الغامض؟ أمن المعقول إن كل هذه الجثث كانت في المشرحة حيث كنت أحرسهم؟ أم هي من الجثث التي كانت في الطابق الأعلى والتي لم أعرف عددها؟ فمنذ أن غادرت المشرحة وأنا أرى جموع الجثث تأتي من كل شارع ومنعطف! أترى إن الحياة والموت صارا شيئًا واحدًا في بغداد، بل وانتصر الموت، فكل الناس هي جثث تمشي لا أكثر؟؟ ثم من أين جاءت هذه الجرذان الكبيرة الحجم كقطيع من الغنم؟ ولمذا بدت وكأنها تفهم واجبها حيث انتظمت في طابور الجثث؟ أهي جثث متحولة أم هي جرذان

تفهم معنى خروج كل هذه الجثث في هذا الفجر لتتجه في الشارع الرئيسي نحو هدف مجهول؟ ولماذا كل هذا الخوف والتبيجل لهذه الجرذان بحيث توقف الحشد عن المسير الأبله ليفسح لها المجال بأن تنتظم في الطابور؟.

كانت حيرته تزداد كلما توغل في الشارع ماشيًا وهو يمسك بيد جثة الصبي آدم الصغير، لكنه حين وصل منطقة الحيدرخانة توقف مستغربًا حينما قرأ لوحة كبيرة على الجهة المقابلة مكتوب عليها: «فندق باب السماء». لم يفهم وجود مثل هذا الفندق، فهو يغادر المشرحة صباح كل جمعة ليزور شارع الكتب الذي هو في مقابل منطقة الحيدرخانة، لكنه لم يرَ هذا الفندق سابقًا.

فجأة حصلتْ فوضى وحركة غير منتظمة. فما إن وصلتْ الجثث الهاربة من المشرحة إلى شارع المتنبي الذي يتفرع عن الشارع العام، حتى هربت العديد من الجرذان وخرجت عن الصف واتجهت بتهور نحو شارع الكتب الشهير وأخذت تقتحم المكتبات التي كانت مغلقة في ذلك الوقت. لكن تلك الجرذان الكبيرة الحجم كالماشية كانت تقظم الأقفال، وتقضم بوابات

الألمنيوم ثم تدخل لتقضم الكتب.

آدم الحارس يحب هذا الشارع إذ كان يأتيه كل جمعة، لكنه الآن يخاف الدخول إليه، فهذه الجرذان شرسة ويمكنها أن تنقض علية وعلى الصبي آدم الصغير، وتلتهمهما ولا تبقي منهما شيئًا.

توقف الحشد عن السير وكأنه ينتظر الجرذان التي غادرته المسيرة. ولم يستغرق الأمر كثيرًا، فما أن رأت بقية الجرذان ما قامت به تلك الجرذان التي اقتحمت الشارع حتى هاجت وتوجهت كلها في فوضى عارمة، فصعدت بعض الجرذان إلى الطابق الأول لتلك المباني.

لم يمض وقت كثير حتى أخذت الجرذان ترجع إلى مكانها لتنتظم مرة أخرى في المسيرة المنظمة. و

خلال دقائق لم يبق كتاب في المكتبات إلا وقد تم قضم أوراقه، بل إن الجرذان الضخمة كالنعاج قضمت الحديد والألمنيوم والزجاج الذي كان يشكل أبواب تلك المكتبات..!.

وواصل الحشد مسيرته.

حين وصلتْ مسيرة الجثث إلى الساحة التي يتوسطها تمثال لشاعر معروف بمعارضته

للأنظمة الحاكمة في النصف الأول من القرن الماضي، توقفتْ. مشى القسم الأول الذي يسبق حشد الجرذان مواصلًا السير في الشارع الرئيس، بينما توقفت الجرذان في الساحة وتوزعت في حركة منتظمة، إذ رأت على الجسر القريب الذي على جهة اليمين مجموعة من الجثث الشابة التي تغطي وجوهها بكمامات، لكنها تتحرك بنشاط وتتمرد في مواجهة حشود من الجثث المدججة بالأسلحة والمُقنعة.

فجأة، وبلا توقع من آدم الحارس والصبي الجثة آدم الصغير، هجمت الجرذان على الجثث المتمردة والتي تتجمع عند بداية الجسر.

من رعبه هرب آدم الحارس وهو يمسك بيد الصبي آدم. ولم يكن أمامه سوى أن يهرب راجعًا إلى الوراء، ومنعطفًا في شارع المتنبي الذي كانت العديد من الكتب، مقضومة ومنهوشة وممزقة، تغطي أرضيته على امتداده وصولًا إلى سوق السراي والقشلة.

ظلا يمشيان. انتبه آدم الحارس إلى عويل ونحيب وبكاء ومتداخل وأنين يملأ الشارع، لكنه لم يرَ أحدًا، إذ كان الشارع فارغًا.

من يبكي هنا؟

سأل الصبي الجثة وهوخائف؟
لا أدري..ربما هم الكتاب والشعراء والمُفكرين الذي تم قضمهم ونهشهم..أقصد قضم ونهش كتبهم..!
استغرب الصبي آدم الصغير سأل:
لكني لا أرى أحدًا..
فقال له آدم الحارس:
طبعا أنت لا تراهم أيها الصغير. لا أقصدهم بأجسادهم موجودين وأنما هم موجودن من خلال أفكارهم وقصائدهم ورواياتهم..
لكني لا أراهم.. ولا أرى أفكارهم وقصائدهم ورواياتهم..! هل هي التي تئن وتبكي وتولول..!؟
لا أدري كيف أفهمك.. دعنا نمضي الآن..!
وواصلا السير في شارع المتنبي لكن آدم الحارس توقف فجأة حين وجد مخرجًا جانبيًا يقود إلى ساحة صغيرة تتوزع فيها المكتبات فدخلها وهو يسحب الصبي آدم من يده.
وقف حائرًا، إذ بدا له إن الجرذان المتوحشة الكبيرة الحجم كالخرفان لم تقتحم هذا المكان، حتى الصبي آدم الصغير انتبه لذلك فقال:
هنا لا توجد كُتب ممزقة تبكي وتنوح..!
نظر آدم الحارس إليه مؤيدًا ما قاله ثم عقب:

نعم صحيح.. يبدو أنهم لم ينتبهوا إلى هذا المنعطف الجانبي.

***

هل سمعتم..؟ أسمع وقع خطى وحديثًا بين شخصين؟

قالت الفتاة العشرينية الشاحبة لمن معها في ذلك النفق المعتم الذي يبدأ من مكتبة منزوية لم تصل الجرذان إليها بعد يقع في زاوية مخفية من الباحة الجانبية التي يقف آدم الحارس وآدم الصغير في وسطها. فجاء الجواب من صوت رجالي سائلًا:

هل هم من الجرذان المتوحشة؟ أو من حشد الجثث الهاربة المطيعة..؟ أم من زومبي بغداد؟

فأجابت الفتاة العشرينية:

لا أعرف.. إنهم بعيدون عن النفق.. لم أستطع أن أتحقق منهم، ولم أتبين ما قالوا.

***

وبينما كان آدم الحارس والصبي آدم الصغير واقفين في وسط تلك الباحة سمعا ضجيجًا وجلبة تأتي من وسط الشارع، وحين التفتَ آدم الحارس إلى مدخل الباحة المطلة على الشارع رأى بعضا من قطعان الجرذان الكبيرة تجري

نحو نهاية الشارع، فأسرع هو بالاختباء.

لحظتها انتبه إلى زاوية معتمة محصورة في جانب الجدار وإلى القرب من مكتبة مغلقة، فظنها مكب نفايات، لكن خوفه من الجرذان الوحشية المفترسة، وأثناء جريه إلى تلك الزاوية سمع أصوات بشرية تأتي من جهة الشارع: «هيا بنا نحاصرهم من جهة سوق السراي، وننقض عليهم، ونفترسهم».

شعر بالرعب حين أدرك إن هذه الجرذان الهائلة الحجم تتحدث كالبشر. هرع مسرعًا وهو يجر الصبي معه نحو تلك الزاوية ليتوارى عن أنظار الجرذان الوحشية إذا ما دخلتْ إلى هذه الباحة.

حين صار عند مدخل تلك الزاوية شبه المعتمة فوجئ، فالمكان ليس مجرد زاوية مهملة قد تستخدم كمكب للنفايات، وأنما هي مدخل لنفق لا يعرف إلى أين يقود، كما شعر بالصدمة المخيفة حينما انتبه لوجود فتاة عشرينة تجلس القرفصاء عند مدخل ذلك النفق.

لم يكن بالإمكان للناظر إلى تلك الزاوية المهملة رؤية الفتاة للناظرإلا لمن يكون عند مدخل تلك الزاوية بالتحديد. انتبه إلى أنها

كانت مرعوبة أيضًا، ومن خلال الهمس الذي تناهى إلى سمعه عرف أنها ليست وحدها في ذلك النفق المظلم.

في تلك اللحظة سمع ضجيجًا خلفه في الباحة، وارتعبَ حين رأى أحد الجرذان يتشمم قفلَ إحدى المكتبات المطلة واجهاتها على الباحة، وبدأ يقضم القفل الضخم الذي يسد سياجها الحديدي الذي يحفظ مدخلها.

في تلك اللحظة اندفع آدم الحارس مع الصبي آدم الصغير إلى داخل النفق، حتى كاد أن يسقط على الفتاة الجالسة في بدايته.

لم يكن آدم الحارس يرى شيئًا فقد كان الظلام دامسًا:

من أنتَ؟

سمع صوت فتاة فعرف أنه صوت الفتاة الجالسة في المدخل والتي تماهى وجودها في أعماق الظلام الآن.

أنا آدم الحارس.. حارس مشرحة بغداد..!

سُمعت همهمة فيها استغراب وتساؤل وخوف لكائنات غير مرئية، لكنه عرف أنهم مجموعة من المختبئين في هذه الزاوية النفق.

مشرحة بغداد؟ وهذا الصبي..؟

جاء الصوت الأنثوي سائلًا.

إنه صبي تركته جدته وهربتْ من المشرحة.. الجميع هربوا ولم يبق سوانا.. أنا وهو..!

ولماذا أنت هنا؟ سألته الفتاة.

صمت آدم الحارس للحظات وكان مترددًا في أن يجيب بوضوح، لكنه أحس بضرورة أن يجيب بالتفصيل:

لا أعرف. كل الذين هربوا من المشرحة رأيتهم يزحفون في الشوارع باتجاه ساحة التحرير في حشود منتظمة، كما رأيت حشدًا من الجرذان الشرسة الهائلة الحجم كقطيع من الخرفان، ورأيتها تهجم على شارع المتنبي وتقظم الأقفال الحديدية وتخترق أبواب الصفيح وأسيجة الحديد التي تسور أبواب تلك المكتاب وتقظم الكتب وتنهشها. هربنا منها، كما رأيتهم يهجمون على بعض الشباب المتمردين على الجسر القريب.. فهربنا ورجعنا إلى شارع المتنبي، وها أنا أرى أحد تلك الجرذان الهائلة الحجم هنا في الباحة، لكنه لم يرنا.. فلجأت إليكم..!. من أنتم..؟!.

أدخل أولًا، كي لا يراك الجرذ الهائل فيهمجم علينا كلنا ويمزقنا..! قالت له الفتاة العشرينية.

ودخل آدم الحارس مع الصبي آدم إلى عمق

النفق وغاب معهم في العتمة.

كان الظلام كثيفًا. والروائح كريهة، فالجيفة تزكم الهواء، لكن لا أحد من المختفين داخل النفق تحسس منها. بل كان الهواء كله في بغداد فاسدًا من جيفة الجثث الهاربة. بيد إن الجثث الحية لا تشم الجيفة ولا تتحسس منها، فهي جزء من رائحتها.

من أنتم؟ هل أنتم هاربون من المشرحة أيضًا؟ سأل آدم الحارس.

لم يجبه أحد. أرتاب قليلًا. وأحس بكف الصبي وهي ترتجف تضغط على كفه في العتمة. فأعاد السؤال بصوت فيه توجس واضح:

من أنتم؟ أأنتم هاربون أيضا من المشرحة؟ وإذا كنتم كذلك فلماذا تختبئون هنا في هذا النفق المظلم؟ ولستم مع حشود الجثث الهاربة من مشرحة بغداد والسائرة نحو ساحة التحرير..!

امتدت لحظات صمت وتوتر، ثم جاء صوت الأنثى قائلًا:

لا.. نحن لم نهرب من المشرحة.. إنما نحن موتى بلا قبور.. رفضنا الموت.. لم يعد الموت ممكنًا.. نريد وطنًا لنا.

لم يفهم آدم الحارس شيئًا مما قالته، فسأل

وهـو لا يعـرف أيـن تجلـس هـي لأن الظـلام يعـم كل شيء:

يعنـي أنـتم مثـل هـؤلاء الزاحفيـن فـي الشـوارع..؟ سـأل آدم الحارس.

لا ..هـؤلاء زومبـي بغـداد.. بينمـا نحـن موتـى بـلا قبور.. أعلنا ثورة الموتى..! جاء صوت الفتاة.

وهـؤلاء الشـباب الذيـن رأيتهـم فـوق الجسـر؟ مـن هم؟ هل تعرفونهم؟

هؤلاء الشباب أيضا موتى بلا قبور ..؟

ولكن ما معنى موتى بلا قبور؟

كان آدم يسـأل فـي تلـك العتمـة والصـوت الأنثوي يجيبـه، لكنـه لـم يكـن متأكـدًا بالكامـل مـن وجـود آخريـن، فـلا أحـد منهـم تحـدث معـه أو علـق بكلمـة وأنمـا ثمـة أنفـاس ظـن أنهـا لأشـخاص غارقيـن فـي الظـلام. فجـأة جـاء صـوت ذكـوري، صحـح لـه ظنونه، إذ سمع الصوت يأتيه:

يعنـي نحـن قُتلنـا ورميـت جثثنـا فـي المزابـل علـى أطـراف المدينـة، أو أُليقـت فـي الأنهـار أو تركـت تتعفـن فـي الزنزانـات. أو حشـرنا فـي حفـر جماعية لا يمكن أن تسمى قبورًا في كل الأحوال..!

ومتى قُتلتم..؟

وهـل هـذا يفـرق فـي بـلاد الظلمـات هـذه التـي

تسمى العراق؟ القتل المجاني دائم ومستمر.. إنه قانون هذه البلاد وقدرها المشؤوم.. بعضنا قُتل في زمن النظام السابق وبعضنا من ضحايا الزمن ما بعد الاحتلال..!

صمت آدم الحارس للحظات ثم سأل:

ألم تكونوا يوما ما في المشرحة؟ مشرحة بغداد..!

فأجابه الصوت الأنثوي:

لا.. هذه الحشود التي تراها تزحف في الشوارع هي التي هربت من المشرحة..!

أنا كنت حارسها.. أنا آدم حارس مشرحة بغداد..

إذن أنت جثة هاربة أيضًا..؟ قال الصوت الأنثوي.

لا..أنا حارس المشرحة..كل الجثث هربت من المشرحة ولم يبق سواي وهذا الصبي آدم الصغير.. فغادرنا المشرحة.. أنا لست جثة هاربة..! أجاب بنبرة احتجاج هامس.

لا يمكن للأحياء أن يعيشوا بين الجثث إلا إذا كانوا جثثا أيضًا. جاء الصوت الذكوري.

شخصيًا لا أعرف إن كنت ميتًا أم حي، فها أنا أتحدث معكم.. لكن كيف تتحدثون معي إذا كنتم

موتى ..؟..قال آدم الحارس.

ومن قال لك بأن الموتى لا يتحدثون؟ جاء صوت ذكوري بدا أبعد من الصوتين اللذين كانا يحدثانه.

أهذا يعني إنني جثة أيضًا؟ سأل بنبرة خائفة.

عليك أن تعرف ذلك بنفسك؟ جاء رد الصوت الأنثوي.

وهذا الصبي هل هو جثة أيضًا؟ رأيناه معك حين جئت إلى النفق...! سأل الصوت الذكوري القريب.

هو جثة.. حية.. قتل في انفجار سيارة ملغومة. وكان حينها مع جدته التي هربت من المشرحة لتواصل انتقامها..!. قال آدم الحارس.

في تلك اللحظة سُمعت ضجة في الباحة القريبة. والتفت آدم الحارس إلى جهة الضجيج فرأى بضعة من الجرذان الكبيرة وهي تتشمم المكان. فاندفع من شدة خوفه إلى الداخل، فوجد نفسه يرتطم بموجة كثيفة وقوية وغير مرئية في العتمة، موجة تشبه أمواج البحر العاتية.

اندفعوا كلهم، خوفًا، إلى أعماق النفق. وسُمع صوت أشبه بسقوط في نهر أو في لجة عميقة.

ومن شدة اندفاع آدم الحارس خوفًا وجد نفسه، وهو يمسك بيد الصبي، يهوي أيضًا في تلك اللجّة المظلمة.

كان اللجّة هي مجرى للمياه الغريبة، مجهولة المصدر. مياه مظلمة. تجري في نفق مظلم. كان الظلام شديدًا.

فلتتّ يد الصبي آدم الصغير من يد آدم الحارس، لذا أخذ كالمجنون يبحث بذراعيه فيما حوله. كان الظلام كثيفًا ودامسًا، كل شيء مظلم وأسود، اللجّة سوداء ومظلمة، والنفق مظلم وبلا ملامح.

وفي لجّة تلك المياة المظلمة طخت يده جسًدا، فعرف أنه الصبي، فمسك بذراعه ورفعه إلى الأعلى كي يتنفس، ثم بسرعة حمله على ظهره. انتبه أن الصبي كان يستنشق الهواء الفاسد بعمق.

وأخذ يسير في تلك اللجة المظلمة بصعوبة. كان صوت صوت وقع أقدام الآخرين في تلك اللجّة يصله، كما سمع مناداتهم بعضهم لبعض بأن يتماسكو أو يتأكدوا من سلامة أجسادهم الميتة.

كانوا يسيرون في تلك اللجّة المظلمة الغامضة

أو ذلك الجدول الأسود، أو تلك الساقية المظلمة، فهم لا يرون شيئًا ولا يعرفون شيئًا مما يجري، وكيف أنهم سقطوا في منخفض غامض وكأن هناك ساقية أو نهرًا أو مجرىً مائيًا أسودَ. فالظلام يعم كل شيء. لكنهم لم يروا شيئًا، لذا ليس بمقدورهم أن يعرفوا ما جرى، وأين هم، وما هي طبيعة هذه المياة التي يخوضونها..؟!.

كان آدم الحارس يسير. وهو يحمل الصبي على ظهره. لم يكن يشعر إن كانت المسافة طويلة أم قصيرة ولا كم مضى من الوقت وهو يمشي في ذلك النفق المظلم، فالإحساس بالزمن معدوم.

وفجأة، وجد نفسه يسير على أرض صلبة، جافة، واختفت المياه. لم يكن يشعر إن كان قد تجاوز المياه وخرج من لجّتها، وأنما اختفى كل شيء في رمشة عين، ووجد نفسه يسير على أرض صلبة، حتى ظن أنه يحلم.. لا، فهو مُنذ شهور لا يحلم. الموتى لا يحلمون.

اختفتْ الأحلام، فهو في يقظة دائمة. وسأل نفسه: «هل لأنني ميت حي فقد صرت لا أحلم؟ هل لأنني ميت لذا فأنا لا أنام..؟ الموتى لا ينامون.. والموتى لا يحلمون!

لكن من قال: «إنني ميت؟».

ظل يسير ويسير، وكأن النفق لا نهاية له، لكن فجأة، بدا له من بعيد ثمة ضوء شاحب يغطي مساحة من النفق. انتبه إلى أن الأشخاص الذين معه كانوا ثلاثة، فتاة ورجل فتي وآخر مسن نوعًا ما، فهو يراهم من الخلف وهم يمشون أمامه، لكن وعلى غير توقع منه اختفوا من أمام عينيه، وكأنهم دخلوا بعدًا زمنيا آخر، وتذكر أنه شاهد الكثير من الأفلام العلمية التي تتحدث عن دخول أبطال تلك الأفلام إلى بعد آخر للزمان.

فجأة أنزل الصبي آدم الصغير من على ظهره. ومسك بيده واتجه إلى حيث بقعة الضوء الشاحب. لم يكن يتبين أي شيئًا من معالم المكان المظلم. هو يدري بأنه في نفق مظلم لكنه نفق غامض، فقد سقط في لجة من المياه المظلمة لكن اختفى كل شيء ولم يكن مبتلًا.. وكان معه مجموعة من الجثث الهاربة التي قالت عن نفسها إنها موتى بلا قبور، وهؤلاء اختفوا في بعد آخر من الزمان والوجود.

حين وصل إلى تلك البقعة المضاءة تلفت يمينًا ويسارًا، إلى الأمام وإلى الخلف، فلم يتبين شيئًا، فكل شيء غارق في الظلام. ظلام دامس

كثيف، لذا لم يعرف أين هو، سوى أنه كان في شارع المتنبي وانعطف إلى باحة جانبية واختفى في النفق، ووجد نفسه في اللا مكان.

أين نحن يا آدم؟

سأل الصبي آدم الصغير. وقبل أن يجيب آدم الحارس جاء صوت مفاجئ من العتمة:

نحن في النفق المظلم.. في اللامكان.

كان صوت الفتاة العشرينية التي كانت تجلس في العتمة. فوجئ آدم الحارس بوجودها لأنه رأى كيف اخْتفى الثلاثة أمام عينيه وهم يخترقون جدار البعد الآخر للزمكان.

ماذا تقصدين باللا مكان؟. سأل آدم الحارس.

أقصد إنه مكان لا مكان، أي مكان لا خصوصية فيه كمكان، فنحن هنا مثلًا في نفق مظلم غامض لا بداية له ولا نهاية، ولا نعرف هل هو فوق أم تحت؟ فهو أشبه بالمقابر الجماعية لا خصوصية للموتى فيها، لا قبور خاصة بهم..! مثلما كنا نحن الثلاثة..! لا قبر خاص بنا.. أحدنا كان في قبر جماعي وآخر ألقي في مكب نفايات خارج المدينة وأنا كنت مقتولة وملقاة في ما يشبه الكهف..! لا قبور لنا..كنا في اللا مكان.. وها نحن الآن في اللا مكان..!

لـم يفهـم الصبـي آدم الصغيـر مـا قالتـه المـرأة عن معنى اللامكان، لكن آدم الحارس قال سائلًا:

ظننتـكِ حيـن تحدثـتِ عـن اللامـكان كنـتِ تقصديـن الـلا وجـود..! أي غيـاب الأبعـاد الرياضيـة كالطـول والعـرض والارتفـاع والعمـق..! اللامـكان الـذي سـبق مكانـنـا الوجـودي الفيزيـاوي، سـبق الوجود وكل هذه السماوات والمجرات..!

ابتسـمت الفتـاة، لكـن ابتسـامتها بـدت شـاحبة وغير واضحة في تلك العتمة اللامعة، وقالت:

غريـب أمـرك أيتهـا الجثـة الناطقـة..! أنـت جثـة لكنك تتفلسف..؟

أنـا لسـتُ جثـة.. أنـا آدم الحـارس.. حـارس مشرحة بغداد..؟

ردت الفتاة مؤكدة:

بلـى يا آدم الحـارس.. أنـت جثـة مثلنـا، وإلا لمـا استطعت أن تكون معنا..!

فجأة قال الصبي آدم الصغير:

أنـا قلت لـه إنـه ميت.. لأن جدتـي وبقيـة النسـاء قلـن إنـه ميت، لكنـه لا يعلـم بأنـه ميـت أم حـي، وينتظر من يقول له الحقيقة..!

إنـك ميـت حـي، ملثلنـا يـاآدم..! جـاء صـوت ذكـوري أجـش لرجـل لـم تتضـح ملامحـه لأنـه فـي

العتمة الكثيفة.

صمت آدم الحارس للحظات، وقبل أن يقول شيئًا قال أحدهم:

الرائحة.. الرائحة.. هذا ما يميز صفة الميت عن الحي..! قال صوت الرجل الآخر.

لم أفهم..!؟ قال آدم الحارس مستغربا.

انبرت المرأة لتوضح له:

لكل شيء رائحة.. للموت رائحة وللحياة رائحة، للحب رائحة وللكراهية رائحة، للتسامح رائحة وللتعصب رائحة، نعم.. العطر رائحة والجيفة رائحة. والآن علينا أن نمضي.

إلى أين..؟ سأل آدم الحارس.

إلى اللا أين..!

صمت آدم الحارس للحظات ثم قال:

وهل اللا أين هو مكان؟

لم يأته أي جواب من الأشخاص الثلاثة الغارقين في الظلام. انتظر للحظات منتظرًا الجواب على سؤاله، لكن لم يأته أي جواب. شك في أن لا أحد موجود، فقال للصبي:

يا آدم الصغير.. هل سمعتني أتحدث مع أحد؟

نعم.. قال الصبي مؤكدًا.

وهل سمعت أجوبتهم؟

لا ..كنتَ تكلم نفسك.. حتى إنني خفت منك..!

هل أنت متأكد من أنه لا أحد كلمني وقال شيئًا عن الرائحة..!

أبدًا.

وحين دخلنا النفق، هل رأيت أشخاص في بداية النفق.. هل رأيت فتاة ورجلين؟

لا ..كنا وحدنا..

ألم يسألني أحد..؟ ألم تسمعني أتحدث مع أناس كانوا خائفين ومختفين في النفق؟

لا.. لم يكن ثمة أحد.. لكنك كنت تتحدث وكأنك تحاور شخصًا ما..!

دعنا نمضي.. لنخرج من هذا النفق. لنذهب إلى بقعة الضوء البعيدة تلك.

مسك آدم الحارس بكف الصبي آدم الصغير وتوجها بسرعة إلى بقعة الضوء الشاحبة التاي اختفت فجأة. واصلوا مشيهم مختفين في الظلام.

مشيا طويلًا، حتى بدا لهم النفق بلا نهاية. ولم يعرف آدم الحارس أيَّ شيءٍ عن هذا المكان اللامكان.. فهو يعرف بغداد جيدًا لكنه لا يعرف

أن هناك نفقًا يبدأ من شارع المتنبي ويمضي من دون نهاية إلى المجهول، بل لم يعرف بأن في بغداد أنفاق تحت الأرض..!.

فجأة.. لمح ضوء ضعيفًا مرة أخرة، يبعد مسافة ليست بالقليلة عنهما. مشى نحو الضوء وهو ممسك بيد الصبي. لم يستطع أن يرى شيئًا في تلك الظلمة. لم يكن يرى ما أمامه أو يحيطة بل ولولا معرفته بأنه يمسك بكف آدم الصغير الذي غادر المشرحة معه لما أيقن بوجو د الصبي معه، فهو في لجة الظلام والعماء الذي يعيد لذاكرته النص التوراتي عن الظلام الذي كان يسبق النور، أو الظلام الكوني والمادة المظلمة التي يتحدث عنه علماء الفضاء.

كان كلما يقترب بمعية الصبي نحو الضوء يكتشف أن تلك البقعة الضوئية تتلألأ. واستغرب وجود الضوء في ذلك النفق المظلم. وسأل نفسه: «من تراه جاء بهذا الضوء؟». وحين صار على مقربة من الضوء اكتشف أنه فانوس تركه أحدهم في كوة جانبية محفورة على جدار النفق. وكانت ذبالة فتيل الفانوس تكاد تنطفي، لكنها مع ذلك تمنح ما حولها ضوءً شاحبًا.

كان الفانوس الغامض في كوة جانبية واسعه

نوعا ما تكفي لاحتواء أشخاص عدة. مسك آدم الحارس بالفانوس باليد الحرة. وقربه من وجه الصبي آدم الصغير. رفع الصبي آدم رأسه إليه، واكتشف آدم الحارس وجه الصبي الجامد ونظراته الباردة. لكنه تأكد من أنه موجود وليس وهمًا أيضًا.

لمّا هم بمواصلة السير في النفق سمع همهمة دبيب أقدام مقبلة من الجهة التي أمامه. وعيون كالفسفور تأتي من بعيد.

ارتعب ودخل مع الصبي إلى داخل الكوة الواسعة التي كانت تخفي خلفها ما يشبه المخزن. وضع الفانوس في مكانه السابق واختفى في المكان المظلم خلف جدار الكوة.

كانت وقع الأقدام والأصوات الغريبة تقترب من المكان الذي يختبئان فيه. كان يرى البقعة التي أمامه والتي يضيئها الفانوس من دون أن يراه من سيقف أمام الكوة.

فجأة سمع همهمة وصوتًا غير بشري أمام الكوة، وارتعب حين رأى شخصًا يقف أمام الكوة. كانت جثة حية، لكنها تختلف عن الجثث الهاربة من المشرحة. كانت وكأنها خارجة للتو من القبر أو من جاءت كهف فاسد الهواء. فملامحها تائهة،

وفمها مفتوح الشدقين، لكن فجأة، وبعد لحظات، أخذت الجثة تضرب رأسها بجدار الكوة.

ولم تمض سوى لحظات حتى جاءت جثث أخرى تشبهها بالضبط. وكانت الجثث تنظر محدقة في الكوة بنظرات تائهة. تحدق فيها بتركيز لكن بدت وكأنها لا ترى شيئًا.

تذكر آدم الحارس الأفلام الأميركية عن الزومبي التي شاهدها في أقراص مدمجة حينما كان حارسًا في المشرحة.

ظل الزومبي للحظات أمام الكوة. وكانا هو والصبي يريان من خلال ضوء الفانوس الشاحب جموع الزومبي تمشي أمامهم في النفق.

فجأة مدّ أحد هؤلاء يده فأخذ الفانوس وحطمه ضاربًا إياه بالجدار، فعمّ الظلام الكثيف مرة أخرى، ولم يتبين آدم الحارس من مكانه سوى عيونهم الفسورية المخيفة.

حبس آدم الحارس والصبي أنفاسهما وهما غارقان في عتمة المكان خلف الكوة إلى أن خفّت الأصوات وابتعدت جموع الزمبي في أعماق النفق. واختفت نهائيًا.

حينها خرج آدم الحارس مع الصبي واتجها في طريقهما خلال ظلام النفق.

(2)

جثة وحيدة في مشرحة

سار آدم الحارس ومعه الصبي في النفق المظلم. كان لا يعرف أين هما، ولا ما يجري معهما، ولا إلى أين يمضي بهما النفق، لا ولم يعرف كم مضى عليه من الوقت وهو في هذا النفق، فهنا لا معنى للزمان ولا للمكان، لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا هو أنه في بغداد.

كانا يمضيان في النفق المظلم ولا يشعران إلا بهبوب غيوم مظلمة تجتاحهما. يشعران بضباب أسود يحيط بهما، فلم يكن آدم الحارس يرى شيئًا، بل كان يتوجه بنظره إلى الصبي الصغير فلا يراه، لكن الغيوم السود لا تستمر طويلا إذ تنقشع وتتلاشى في الظلام أيضًا. ظلام في ظلام.

ظلام .. ظلام.. ظلام.. لا شيء غير الظلام. وكانا يمشيان في الظلام.

فجأة لمح أمامه في عمق النفق ضوءًا شاحبًا، فعجّل الخطى نحوه وهو يسحب الصبي الصامت

من كفه. وحين وصلا إلى المنطقة المضاءة لمح بابًا حديديًا مقفلًا ولا أثر للرتاج عليه، فكأنه صُب كقطعة صلدة وكجدار حديدي. وثمة لافتة تتكون من قطعة خشبية صغيرة مكتوب عليها بخط عريض«مشرحة بغداد». ويعلو اللافتة مصباح شاحب الضوء بالكاد تتقد أسلاكه الداخليه. انتبه آدم الحارس إلى أن الكتابة قد تقشرت صبغتها، فلم يكن من السهل معرفة ما مكتوب لكنه أدرك الاسم فورًا.

استغرب آدم الحارس وجود «مشرحة بغداد» هنا في النفق، فهو حارس المشرحة، ومبناها كبير كقلعة مظلمة، وتقع في منطقة باب المعظم، فكيف يوجد هنا مكان غريب وغامض ذو باب حديدي لا رتاج له وكأنه جدار صلد، تعلوه لافتة تحمل اسم «مشرحة بغداد».

وقف عند الباب حائرًا. نظر إلى الصبي فوجده شاحبًا جدًا، ومغمض العينين. حرّر كفه من كف الصبي، وتقدم من الباب فطرقه.

كانت طرقات كفه على الباب تدوي في صمت النفق المظلم البارد. حانت منه التفاتة إلى وجه الصبي آدم الصغير فارعه ما رأى، إذ كان الوجه ليس وجه صبي بريء وأنما وجه كهل مغمض

العينين ومتهدل الجفنين. فز قليلًا، لكن سرعان ما عاد الوجه الصبي المغمض العينين لما كان عليه.

استمر آدم الحارس بالطرق على الباب - الجدار الحديدي، وكاد يوقن بأن لا جدوى من الطرق، وإذ به يسمع صوتًا حزينًا خافتًا يجيّ خلف الجدار، صوت رجل:

- من هناك؟ من الطارق؟

فزّ آدم الحارس. لم يكم يتوقع أن يرد عليه أحد.

- أنا ..أنا آدم الحارس؟

- آدم الحارس؟ أنت حارس لأي شيء؟

- أنا آدم حارس مشرحة بغداد..

- أية مشرحة؟ هل أنت تحرسني أنا؟

- لا .. لا ... أنا حارس مشرحة بغداد..

- وأنا هنا في مشرحة بغداد..

- لا ..لا .. مشرحة بغداد ليست هنا.. إنها في باب المعظم.. وهي مبنى كبير وليس غرفة في نفق..!

- لكني أيضًا في مشرحة بغداد..؟ ثم ألا تدري أن الأوغاد حولوا البلاد إلى مشرحة كبرى..! أنى اتجهت فثمة مشرحة..!..ظلام..

ظلام.. ظلام..كلنا نمشي في الظلام.

أحتار آدم الحارس بماذا زكيف يجيبها، لكنه وجد نفسه يرد عليها:

- لا..هذا ليس صحيحًا.. أنا حارس مشرحة بغداد الوحيد..ولا توجد سوى مشرحة و احدة، وهي التي كنتُ أحرسها، وقد هربت كل جثثها التي تتجول الآن في بغداد، وكأن بغداد صارت مدينة الجثث الحية الهاربة..!

- وهي كذلك..ألا تعرف ذلك؟

- من أنتَ؟

- أنا آدم الكفيف ..

صمت آدم الحارس.. ووجد في هذه الجثة التي تتحدث من خلف الجدار الحديد أنيسًا في وحشة النفق المظلم، فجلس القرفصاء عند الباب. وسأل:

- هل أنت أعمى فعلًا؟

-لا..لكن روحي عمياء..لديّ عينان كالصقر، لكنني تعثرتُ في دروب الحياة، فلم أرَ مطبات السلوك البشري، ومصائد الأخلاق المزيفة، وفخاخ الكلام العاطفي الجميل، ومنحدرات الرغبة التي تقود إلى الهاوية، لذا صار وجودي في هذه المشرحة وكأنه مقام استحقه..! هل

أنتَ جثة حية مثلي؟

صمت آدم الحارس للحظات وقال:

- لا أدري.. الصبي آدم الصغير يقول لي إنني ميت، لكني لا أعرف إن كنت ميتًا أم حيًا..! إنني في حيرة من أمري..!

- لا تحتار..كلنا موتى.. وإن ظننا بأننا أحياء..! أو نحن أحياء وإن متنا موتا..!

رد آدم الحارس بسرعة وكأنه يقاطعه:

- هذا غير صحيح..كلكم تكذبون عليّ.. أنا حي.. لستُ ميتًا..

فجاء الصوت حازمًا:

- الموتى لا يكذبون، لاسيما وهم في الظلام..!

تمتم آدم الحارس بصوت مسموع:

- ظلام.. ظلام.. ظلام.. كلنا نمشي في الظلام..

- نعم.. جئنا من الظلام ونمضي إلى الظلام. ربما كان ظلامًا أبيضَ، لكن هنا في أنفاق بغداد هو ظلام معتم وحالك السواد..!

صمتَ آدم الحارس للحظات وكأنه في حالة جمود. انتبه إلى الصبي آدم الصغير وهو يهز كفه. نظر إليه فبدا خائفًا، لكنه تجاوز حالة الصبي وسأل الجثة التي خلف الباب الحديدي:

من أنتَ؟ أقصد كيف جئتَ إلى هنا؟ وهل أنتَ وحدك أم هناك غيرك في هذا المكان؟

لم يأتِ الرد سريعًا، فطرقَ آدمُ الحارس البابَ الحديد الذي كان يبدو كجدارٍ وسأل:

لماذا لا تجبني؟ سألتك إن كنت وحدك في هذا المكان؟ وكيف جئت إلى هنا؟ وما هي حكايتك؟

استمر الصمتُ للحظات أخرى، ثم جاء الصوت حزينًا لكن واضحًا:

أنا هنا وحدي في هذا المكان الضيق الذي يبدو كحجرة أو ثلاجة للموتى. صحيح إن المكان يحمل اسم «مشرحة بغداد» لكنني مت في بلاد مجاورة للعراق.

ماذا تقول..؟ كيف جئت إلى هنا إذن؟

أنا عراقي. وقصتي غريبة نوعًا ما. إذا كان لديك الوقت سأرويها لك..

صمتَ آدم الحارس قليلًا. لم تكن لديه الرغبة الحقيقية لسماع قصة الجثة الغامضة، لكن في الوقت نفسه لم يكن لديه هدف محدّد يسعى إليه سوى الخروج من هذا النفق المظلم، وبما إن المكان يضيئه مصباح شاحب الضوء جدًا، لذا فضل البقاء قليلًا إلى أن تأخذه الرغبة في

مواصلة السير، لذا أجاب الجثة قائلًا:
سأستمع لك..
صمتتْ الجثة خلف الباب الحديدي للحظات ثم واصلت:
أن تسمعني خير لك من أن تراني..
لماذا؟
لأنك ستفزع عند رؤيتي فأنا جثة متفحمة..
كيف هذا؟
نعم.. أنا جثة محروقة..
لكن من فعل بك ذلك؟ وكيف حدث؟
زوجتي التي هي حبيبتي أحرقتني وأنا نائم في سريري..
صُدم آدم الحارس عند سماع ذلك وانتابه الفضول لمعرفة حكاية هذه الجثة فقال لها:
يبدو أن حكايتك غامضة ومثيرة. سأجلس هنا لأسمع حكايتك..!
شكرًا لأنك تستمع لي، فلا أحد يهتم بحكايتي، والكل يحاول انقاذ نفسه من الشبهات، بل والحيرة كانت تنتابهم في كيفية إعادة جثتي إلى بغداد.
صمتَ آدم الحارس للحظات مستغربًا، وسأل:
كلامك غامض وغير مترابط..كيف يعيدون

جثتك إلى بغداد؟ ألستَ الآن في هذا المكان الذي يحمل لافتة شبه متآكلة مكتوب عليها: «مشرحة بغداد»..؟! أنت الآن في بغداد..!

نعم.. هذا صحيح.. لكنني هنا ولستُ هنا..! لقد متُ في بلد مجاور..

لكنك هنا الآن في بغداد..

كن صبورًا واستمع لحكايتي..!

وأنا سأستمع لك..!

قرفص آدم الحارس عند الباب ساحبًا الصبي من ذراعه، فقرفص إلى جانبه. وجاء الصوت من وراء الباب الحديدي يروى حكاية الجثة الغامضة:

التقيتُ بها في اليوم الأول من بدء دراستي في الجامعة المستنصرية. رأيتها واقفة بالقرب من البوابة الرئيسية. ذهلت لجمالها المثير وأناقتها. ومن دون وعي أو إرادة وجدتُ نفسي أنشغل بها، وكأن مخدرًا تسرب إلى نفسي، ومن دون وعي مني، ولا إراديًا استوقفتها، وبتهور وسذاجة سألتها:

هل هذه هي الجامعة المستنصرية..؟

نظرتْ إليّ بدهشة واستغراب وكأنها تنظر إلى شخص أبله، وقالت:

ألا تقرأ اللافتة الجدارية الهائلة وما مكتوب

عليها..؟ ألا تعرف إنها الجامعة المستنصرية؟
ومن دون تردّد قلت لها بنبرة جادة:
أعرف.. قرأت ذلك..
ارتسمت ملامح الدهشة على وجهها أكثر مع ابتسامة طيبة وقالت:
إذا كنت تعرف فلماذا تسأل إذن؟
ومن دون تردّد قلت:
لأنني أردت أن أتحدث معك، لا أكثر. لم أجد سؤالًا غير أن أسالك عن هذا السؤال الساذج..!
ضحكتْ ضحكة قصيرة طيبة، وقالت:
أنت غريب الأطوار.. مقبولة منك هذه الحجة.. هل أنت طالب جديد؟
نعم.. وهذا أول يوم لي هنا..ولا أعرف الأماكن جيدًا..
ولي أيضًا، هذا أول يوم أبدء عامي الدراسي فيه، لكن يبدو لي أنك لست من أهالي بغداد؟
نعم.. أنا من بابل..
تشرفنا.. أطيب الناس أهل بابل..
وبتهور أكبر قدمتُ نفسي:
الشرف لي.. أقدم لك نفسي..آدم الكفيف..
تشرفنا.. وأنا حواء.. حواء الهندي.. لكن غريب لقبك..الكفيف !! بينما لديك عينان

جميلتان وواسعتان..!

هـذا لقبي.زوعينـاي تفتحتـا وصارتـا تبصـران الآن بعد رؤيتك..!

ابتسـمتْ بلطـف وفـرح، ولـم تعلّـق، لكنهـا أخبرتنـي أنهـا تنتظـر صديقتهـا، لكنهـا بعـد دقائـق قـررتْ الدخـول، فدخلنـا سـوية. وهكـذا بـدأت علاقتنا.

لـم تكـن علاقـة وأنمـا عشـق يمكـن أن يـروى كقصص العشق المعروفة في تاريخ الأدب. بمـرور الوقـت صـار الجميـع فـي كليـة الآداب يعرفـون قصتنـا وعلاقتنـا، وكان مثار الغرابـة أن يجـدوا كل منا منفردًا من دون وجود الآخر معه.

كل أصدقائـي فـي مرحلتـي الدراسـية والمراحـل الأخـرى يعرفـون أنهـا حبيبتـي وكـذا صديقاتهـا، حتـى إن أي فتـاة صـارت لا تقتـرب منـي ولا أي شـاب يقتـرب منهـا، لأن الجميـع يعـرف بأننـي لهـا وهي لي.

ومـرّتْ السـنوات. وانتهـت فتـرة الدراسـة الجامعيـة. ولأن عائلتـي، وبالتحديـد أخوتـي، الأكبـر منـي عمـرًا، كانـوا مـن المتنفذيـن فـي الأحـزاب الدينيـة، لـذا مـن خـلال علاقاتهـم وجـدوا لـي وظيفة في إحدى الوزارات بالعاصمة بغداد.

علاقتنا استمرتْ، لكن اللقاءات خفت كثيرًا، لاسيما وأن أهلها رفضوا أن تتوظف، فصارتْ جليسة البيت، وصارت تتحجج من أجل الخروج إلى الزوراء أو إلى أحد الأسواق التجارية الكبيرة المعروفة، والتي انتشرت في بغداد. هكذا كنا نلتقي، وهكذا أيضا اتفقنا على أن أتقدم لها طالبًا يدها للزواج.

لا أعرف لماذا رفض أهلها، بل أخذوا يبالغون في طلب المهر وتوفيرالسكن وتأثيث المنزل، ومتطلبات أخرى مبالغ فيها في نوعية الحلي وكمية الذهب. وكانت هي تسعى من خلال الحديث مع أمها وأخواتها وأخوتها بأن يتدخلوا في الضغط على الأب لتخفيف شروطه المبالغ فيها.

ومع ذلك وقف أخوتي إلى جانبي بكل ما يملكون من سلطة ومال, وأرسلوا عبر علاقاتهم السياسية شخصيات سياسية ووجوه اجتماعية معروفة للضغط على والدها، وفعلًا نجحوا في ذلك، بشرط ألآ تعمل زوجتي وتبقى ربة بيت. وما أسهل هذا الشرط بالنسبة لي فأنا انتمي لعائلة ميسورة الحال بل يمكن القول عائلة غنية، لاسيما بفضل أخويّ المتنفذين في الأحزاب

الدينية، حيث تحولا إلى كبارالأغنياء من أصحاب الملايين.

وتزوجنا.

صمتتْ الجثة خلف الجدار عن سرد حكايتها. طالتْ فترة الصمت. شك آدم الحارس بأنه لم يكن هناك من يتحدث أصلًا، وكل ما جرى من حوار مجرد تهويمات ورؤى نتيجة الأجواء الغامضة للمكان الذي هو فيه، فالتفتَ إلى الصبي وسأل:

قل لي ياآدم.. هل تسمع أحد يتكلم الآن؟

رفع الصبي وجهه الشاحب إليه وقال ببراءة:

لا.. لا أحد يتكلم..لا أسمع شيئًا.

وهل كنت قبل ذلك تسمع من يتكلم..؟

نعم.. كان أحد يتكلم من خلف هذا الباب، لكنه سكت الان..!

اطمئن آدم الحارس بأنه فعلًا كان يتحدث مع المدعو آدم الكفيف، ويستمع لحكايته التي وصلت إلى زواجه من حبيبته. ووجد نفسه لا إراديًا يمد ذراع ويطرق على الباب طرقات خفيفة وهو يقول:

لماذا صمتَّ؟ أكمل حكايتكَ..!

بعد لحظات واصلت الجثة خلف الباب سرد

حكايتها بصوت حزين:

تزوجنا. لا لم يكن زواجًا بالمفهوم العادي للزواج، وأنما كان امتزاجًا وتماهيًا وتداخلًا لروحين وجسدين. عشنا فردوسنا الأرضي. استمتعنا بروحينا وجسدينا ومشاعرنا. الحنان، والرقة، والمتعة، والنشوة، والرضا، والتماسك، والاهتمام، الطيبة، الرفق والرحمة، التسامح، والتفهم، وكل ما يجعل علاقات الرجل بالمرأة حلمًا أرضيًا متحققًا في الواقع.

كنا مثل طيور الحب في قفص، بل القفص الذهبي هو تسمية حقيقية لعلاقتنا الزوجية. كانت علاقتنا مثالية، رومانسية، لا ترى مثلها سوى في القصص الخيالية أو الأفلام الهندية، بل كانت أيضًا منفتحة، وصريحة، وإباحية، مارسنا فيها كل ما يفيض به الجسد من متع، محللة أو محرمة، المهم كنا نستمتع بجسدينا ، برغبة وشبق جامح......لكن الحياة لا تمنحنا كل شيء، إذ لا بد من وجود نقص ما، فليست هناك سعادة دائمة ومطلقة، فبكل هذه الكم من السعادة، كانت هناك ثمة غصة في حياتنا السعيدة، إذ اتضح أن زوجتي عاقر...!

وطبعا، لم نترك طبيبًا أو مستشفى أو مختبر

لـم نـزره. أنفقنـا أمـوالًا طائلـة، لكـن مـن دون جدوى.. لكن هـذا الأمـر، بعـد يأسـنا مـن انجابنـا لطفـل مـن صلبنـا، صـار موضوعـا يُحـرم الحديـث فيـه مـن قبلنـا، لا نقتـرب منـه أبـدًا.. أصدقائـي فـي العمـل صـاروا ينادوننـي «أبـو غايـب» وجاراتنـا ينادونها «أم غايب»، وقبلنا بهذه القسمة الضيزى.

صمتتْ الجثة، وانتظر آدم الحارس أن يواصل حكايته، لكن صمته طال، فسأله:

وماذا حدث بعد ذلك؟ لماذا سكتّ؟

بعد لحظات أخرى من الصمت واصلت الجثة:

صحيح أنـا وحدي فـي هـذه الغرفـة الحديديـة الجـدران التـي تذكرنـي بصناديـق ثلاجـات الجثـث، لكنهـا أوسـع مـن ثلاجـات حفـظ الجثـث بكثيـر. ومـع أنـي وحـدي هنـا، مشـرحة خاصـة بـي، لكنـي سـمعت أصـوات تأتـي مـن خلـف الجـدران الخلفيـة والجانبيـة، وهـذا مـا يؤكـد بأننـي لسـت وحـدي هنـا، لكـن كيـف؟ غرفتـي هـذه لا منفـذ لهـا سـوى البـاب الـذي تجلـس أنـت عنـده، ربمـا أنـا سـجين؟ لا أعـرف، فليـس مـن المعقـول إن يكـو ن هـذا المـكان مشـرحة خاصـة بجثـة واحـدة، لاسـيما وليـس هنـاك قاعـة للتشـريح، ولا جثـث أخـرى؟ ولـم أرَ طبيـا مشـرّحًا ولا مسـاعدًا لـه، ولا قاعـة لثلاجـات الجثـث، أنـا هنـا فـي غرفـة

حديديـة، وليـس هنالـك سـوى جسـدي المتفحـم، وذكرياتي عن هول الجريمة..!

صمت آدم الحارس للحظة ثم سأل:

أليس هناك حارس للمشرحة؟

أدرك آدم الحـارس، حيـن انتهـاء جملتـه، بـأن سـؤاله كان سـاذجًا، فالجثـة تقـول بأنهـا وحدهـا، فـي غرفـة حديديـة تشـبه الزنزانـة، وأنـه لـم يـرَ أحدًا قط، بينما هو يسأله عن حارس المشرحة؟

ردت الجثة باستغراب:

أقـول لـك لـم أرَ أحـدًا، فتسـألني عـن حـارس للمشرحة؟

فقال آدم الحارس بتردد:

عفـوًا.. لا أسـتطيع أن أتخيـل مشـرحة مـن دون حارس للجثث..!

فقالت الجثة بنبرة فيها ضجر مكتوم:

كمـا قلـت لـك.. لـم أرَ أحـدًا، لكنـي أفقـت علـى نفسـي وأنـا فـي هـذه الغرفـة الحديديـة وحـدي، وقبل لحظات سـمعتُ أصوات تطرق الجدران من جوانـب غرفتـي، كمـا سـمعت إيقـاع خطـوات أشـخاص في ممـر، وكأن خلف جدران غرفتـي، أو لأقـل خلـف ثلاجتـي، ثمـة ممـرات وغـرف، وعالـم كامـل، إذ يبـدو أن هـذه المشـرحة كبيـرة، وفيهـا

حجـرات أخـرى..لا أدري.. ومـا يحيرنـي إننـي لا أعرف كيف جاءوا بي، أو بدقة أكبر، لا أعرف إن كان هنـاك مَن جـاء بـي، فقـد أفقـت مـن موتـي فوجدت نفسـي هنـا. علمًا أن جثتي كانـت فـي بلد مجاور..!

استغرب آدم الحارس مما سمع، فسأل:

كنـتَ فـي بلـدٍ مجـاور؟ وكيـفَ أنـتَ هنـا فـي مشرحة بغداد؟

صمتتْ الجثة، بينما هـز الصبـي آدم الصغيـر ذراع آدم الحـارس، فالتفت إليه بنظرات مستفسـرة، وسأل:

ما بك؟

أنا خائف..

مِمَ أنت خائف..؟

من هذا الذي يتحدث من وراء الجدار..

ولماذا أنت خائف منه؟

لأنـي لا أراه.. مـن قـال إنـه مثلنـا؟ نحـن لـم نـراه وأنمـا نسـمع صوتـه؟ وخفتُ منـه حيـن قـال إنـه يسمع وقـع خطوات خلف جدران غرفته.. لنمض من هنا.. أنا خائف..

فقال آدم الحارس مهدئًا:

لا تخـف ياصغيـري.. مهمـا يكـن هـو، شـكله

ونوعه، فهو وراء الباب الحديدي هذا، وهو خائف أكثر منا.

تشبث الصبي آدم الصغير بذراع آدم الحارس بقوة، وكأنه يطلب الأمان، فوضع آدم الحارس كفه على كفي الصبي آدم الصغير المتشبثتين بذراعه، ثم قال للجثة التي ور اء الباب الحديدي:

واصل سرد حكايتك؟ كيف تفحم جسدك؟ وكيف صرتَ في بلد مجاور، بينما أنت هنا الآن في مشرحة بغداد؟

اِصبرّ.. لماذا أنتَ مستعجل وأمامنا اللانهاية؟

اللانهاية؟

نعم اللانهاية.. نحن منذ لحظة موتنا االبايولوجي ومغادرتنا الحياة استيقظنا من موتنا أحياءً في اللانهاية.

لكنني لستُ ميتًا؟ هذا الصبي الصغير يقول لي بأنني ميت، لكني لا أصدّقه، وأريد من يخبرني إن كنتُ ميتًا أم لا؟ لكن كيف لك أن تخبرني وأنت لا تراني، وأنت قابع في غرفتك الحديدية، أو لأقل ثلاجتك الباردة..؟ المهم.. أكمل حكايتك التي أحس إنك تتقصد ألآ تكملها..!

صمت الجثة للحظات ثم قالت:

اعترف لك بأنك ذكي، فأنا فعلا أطيل في

سـر د حكايتـي، لأنـي أخـاف إذا مـا أنهيتهـا لإنـك ستذهب وتتركنـي فـي وحشـتي هنـا، فـي غرفتـي المظلمـة وحـدي، وأنـا وجـدت فـي حديثـي معـك أنسًا لم أعرفه منذ لحظة موتي..!

شعر آدم الحارس بالتعاطف معه، وقال:

كلنـا نعانـي مـن الوحشـة، ولا تنـس بـأن لـكل بدايـة نهايـة، ولـكل حكايـة خاتمـة..! وإذا كنـت لا تريد أن تواصل حكايتك فأنـا أتفهمك.. وسـأمضي على الرغم من ذلك في هذا النفق المظلم.

لا.. لا.. سأروي لك ما جرى.

صمتت الجثة المتفحمة للحظات ثم واصلت:

كمـا أخبرتـك بـأن سـعادتنا الشـخصية كانـت مكتملـة لـولا عقـم زوجتـي وعـدم قدرتهـا علـى الإنجـاب. لكـن فـي مـا بيننـا لـم يكـن هـذا الأمـر مهمـا، فقـد كنّـا سـعداء بحبنـا وشـبقنا ولهفـة كل منـا نحـو الآخـر.،. بـل كان لديهـا شـعور بالذنـب نحوي، لحرمانـي من الأبـوة، وهـذا مـا جعلهـا تلبـي كل رغباتـي الجنسـية، بمـا فـي ذلك تلك الممارسـات التـي نراهـا فـي الأفـلام الجنسـية الغربيـة، كمـا أنهـا اجتماعيًـا كانـت تتسـاهل معـي إذا مـا سـهرت مـع أصدقائـي. كانـت تدللنـي، ولـم أجـد أنهـا تذمرتْ أو شـكتْ يومًـا. ومـرّتْ السـنواتُ. كل شـيء بيننـا كان

رومانسيًا، لم تحدث بيننا مشاجرات، ولا أية توترات..!

لكن في السنوات الأخيرة من علاقتنا، أي بعد 13 ثلاث عشرة سنة، بدأت أمي وأخواتي يسمعنني كلامًا مزعجًا، بدأ أول الأمر بنوع من الشفقة الأمومية والأخوية غير المقصودة، بتأسفهن وإشفاقهن عليّ بأنني محروم من الأبوة، فكنت أرد بأني سعيد في حياتي الزوجية وأحب زوجتي وتحبني، وهي تخدمني كأبنها وليس زوجها، وأنني مرتاح جدًا معها.

لكن تطورت حلقة التعليقات والشفقة، إلى أخوتي، وزوجاتهم، وإلى أعمامي وأخوالي. فبدأتُ أستاء من الأمر، وصرت أتضايق منه، لكن ما كان يواسيني من كل هذا الكلام كون أنه يجري بعيدًا عن مسامعها، فنحن نعيش في بيتنا منفصلين عن العائلة، وهذا الكلام أسمعه حين أكون وحدي في زيارتهم، بينما حين نكون أنا وزوجتي هناك، لا نسمع شيئًا من هذه التعليقات والتعقيبات.

وبمرور الوقت توسعت الدائرة، لاسيما بعد أن توظفتْ في قسمنا بعض الفتيات الجميلات غير المتزوجات. بيد إنهن بفضولهن الغريزي

عرفن كل شيء عن حياتي الزوجية، وعقم زوجتي.. وكنتُ حين أمر في الدائرة، أجد بعضهن يتشاورن ويتهامسن، فأخمن بأنهن يتحدثن عني. وعرفت من زملائي بأن الأمر يمس حياتي الزوجية.

إذ فاتحني، ذات يوم، صديقان مقربان مني جدًا، حين كنا في مطعم المؤسسة، بأن هناك فلانة أو فلانة، كلتاهما تميلان نحوي، وكلتاهما تبحثان عن الزوج، وأن الإسلام يبيح لي الزواج شرعًا إذا ما كانت الزوجة عاقر، و.و.و. وإحداهن مستعدة أن تكون زوجة ثانية.

وقد أزعجني هذا الكلام حقًا، فتركتُ الطاولة مستاءً. بعد ذلك جاءا يعتذران ويؤكدان بأنه لم يكن قصدهما إزعاجي، وأنما مصلحتي، وهما لم يقترحا شيئًا شائنا ومخالفا للشرع. وهكذا. حتى صار الأمر يستفزني أكثر. وصار الأمر يؤثر على مزاجي ونفسيتي، لاسيما وأني أهلي، أمي وأخواتي وأخوتي، اجتمعوا في ما بينهم وقرروا إقناعي بأية طريقة كي اتزوج...

وما زاد الطين بلة أن زوجتي، لا أعرف المناسبة التي دفعتها للخروج من البيت. وأعتقد من أجل أن نذهب سوية لأحد محلات الأثاث

التركي، فمرّت عليّ إلى الدائرة، كي أذهب معها بعد أن أطلب إجازة مؤقتة لساعات. ولأن علاقتي بالاستعلامات جيدة جدا فقد سمح موظف الاستعلامات لزوجتي أن تصعد إليّ وأن تفاجئني في مكتب عملي، كأية مراجِعة للمؤسسة.

ومن هنا بدأتْ المأساة، فقد لمحتْ الموظفاتِ اللاتي معي في الصالة، أو القاعة الكبيرة..! صحيح أنها لم تعلق أو تتكلم حينها، لأننا غادرنا الدائرة ثم انشغلنا بمعاينة الأثاث، لكن ذلك المساء كان مساء الموظفاتِ، فلأول مرة صارتْ تسألني عن عملي، وعن زملاء العمل، وصولًا إلى زميلات العمل..!.

ولم تُبد أية علاماتٍ للغيرة، لكنها صارت صموتة، لا تتحدث كثيرًا، وفقدتْ مرحها، ةصارت ساهية ومشتتة الفكر في غالب الأحيان، بل وصارت لا تقاسمني أفكارها، وما يجول في نفسها، لكنها لم تتهاون أو تقصّر في خدمتي وإسعادي.

المرأة كائن عجيب، لغز محير، لا يُسبر غوره وعمقه. وما زاد الطين بلة، من جانب آخر، هو ضغط أهلي الذي لم يعد مجرد شفقة وتعاطف أسف معي لحرماني من الأبوة، وأنما صار ضغطًا

نفسيًا وطلبًا لحوحًا ومحاولات مكثفة وإقناع مباشر من دون أي اعتبار لطبيعة علاقتي بزوجتي، بل ألقوا اللوم عليها، بأنها لو كانت تحبني فعلا لسعتّ هي بنفسها من أجل أن أتزوج امرأة ثانية.. وهكذا.

ثم صمت.

انتظر آدم الحارس أن تستمر الجثة في سرد الحكاية، لكنها بقيت صامتة. فسألها:

وماذا جرى؟ هل تزوجتَ..!

فواصلتْ الجثة المتفحمة:

لا.. لكن بعد أشهر من محاولات الإقناع من قبل أهلي، بأن هذا حقي، ويمكنني أن أتزوج بالسر، بعد ذلك ستكون هي أمام الأمر الواقع!! لكني رفضت رفضا قاطعًا..... ذات يوم طفح الكيل بي، وكنت قد جئت البيت مستاءً من ضغط أهلي عليّ. وسألتني، ولأول مرة قلت لها بأن أهلي يضغطون عليّ كثيرًا، ويريدون أن تكون لدي خلفة وأطفال...وياليتني لم أبح لها بشيء من هذا..!!

لم أتحدث كثيرًا، بل أكدت لها حبي، ورفضي لكل مقترحاتهم..لا أعرف أيهما أقوى؟ الحب أم الغيرة؟ حينها لم تنفعل، ولم تتأثر، فجأة، صارت

كائنًا لا أعرفه، إذ لم تبد أي اهتمام، كانت نظراتها زجاجية باردة، لكن كان واضحًا بأنها تفكر بأمر جلل.

حينها فكرت بأنها ربما ستذهب لتواجه أهلي وترد على ضغوطاتهم عليّ وتفند مقترحاتهم..!... تلك الليلة كانت ليلة فاصلة بيننا.

كيف؟ ما الذي جرى في تلك الليلة؟

صمتت الجثة قليلًا، ثم واصلت:

لا أخفيك، إنني من كثرة النق والتعليق ومحاولات الإقناع، ومحاولات زميلاتي غير المتزوجات، وتزلفهن ومداراتي، وتنافسهن، وهما اثنتان، أن يثرن انتباهي، لاسيما وأنهن كما عرفت من صديقيّ بأن كلاهما لا تمانعان أن تكون أية منهن زوجة ثانية، لاسيما وإن زوجتي عاقر، بينما في البداية كانت إحداهن موافقة على هذا الوضع. وبصراحة بدأت أقلّب الفكرة في داخلي.

صحيح إنني لم أبين هذا الأمر قط في حديثي، أو سلوكي، ولم ينعكس على تعاملي المحب لها ومعها، لكن للأنثى حاسة سادسة، وسابعة، وثامنة، وتاسعة، وعاشرة، في معرفة ما يدور في عقل الرجل، لاسيما زوجها، أو حبيبها،

أو حتـى أي رجـل يقتـرب منهـا ويـدور فـي فلكهـا، ويحـاول التواصل معهـا، لـذا فقد استلمتْ راداراتها النفسية إشارات لما يجري في داخلي.

وصدّقنـي، لا يمكننـي أن أفسّـر كيـف عرفـتْ بأننـي فكـرت بالأمـر فعـلًا، تحـت ضغـط تكـرار محـاولات الإقنـاع علـى مـدى سنتين، وبشكل شبه يومـي، سـواء فـي البيـت مـن قبـل الأهـل، أو فـي الدائـرة وفـي اللقـاءات الخاصـة مـع قبـل صديقـيّ، وأيضًـا تحـت تأثيـر حضـور أنوثـة زميلتـي فـي المؤسسة.

ومـاذا فعلـتْ هـي؟ كيـف عرفـتَ بأنهـا انتبهـت وعرفت لما كان يجري في داخلك؟

لا أعـرف كيـف انتبهـت لمـا دار فـي ذهنـي وداخلي؟؟..هـذا مـا يحيرنـي وأنـا فـي عالـم الموتـى الأحياء..!؟

فقاطعه آدم الحارس قائلًا:

تذكّـرْ..! لا بـد أنـك، لا إراديًـا، تصرفـتَ علـى غيـر عادتـك فارتابـتْ بـك؟ أو إنـك قلـت، سـهوًا، كلمـة مـا نبّهـتْ حواسّـها الأنثويـة وغيرتهـا؟ أو تعاملتْ ببـرود أو بـلا اِهتمـام علـى غيـر مـا تعـودتْ منك؟ تذكّرْ..

صمتتْ الجثة للحظات، ثم قالت:

لا أدري بالضبط..! ربما نعم، وربما لا..!!؟
لكن أتذكر بأني كنتُ في تلك الليلة عند أهلي. كان أخوتي وأخواتي مجتمعين في بيت أمي. ووجدتهم قد وجدوا لي صبية لم تبلغ العشرين من العمر، وأروني صورتها، وكانت جميلة ومثيرة حقًا، لكني رفضتُ، والرفضُ صار بالنسبة لي روتينًا، لأن نبرة صوتي لم تكن غاضبة كما في البدايات، بل يمكن القول تشي برضا ضمني غير معلن، لكني تشبثتُ بهذا النمط من الرفض، لكني انتبهتُ لنظراتِ أخواتي مع أمي، وابتسامة خفية على وجوههن، بأنهن تقبلن رفضي برضا، وكأنني أعلن عن موافقتي الضمنية الخجولة:ي لا يقال أنني ضعفت واستسلمت لهم بسهولة بعد رؤيتي لصورة الفتاة.

غادرتُ منزل أهلي وذهبتُ لأسهر في بيت أحد صديقيّ. كلاهما كانا موجودين. وفي تلك الليلة، ونظرا لكثافة الانفعالات التي تزدحم في داخلي، شربتُ كثيرًا، أكثر بكثير من المعتاد، حتى سكرت، ولم أستطع العودة إلى البيت بمفردي، فجاء بي أحد صديقيّ إلى البيت.

وماذا جرى في البيت؟ سأل آدم الحارس بفضول الموتى الأحياء.

لا أذكر شيئًا، فأمام عيني الداخلية، وشاشة ذاكرتي، الآن، صورة مشوشة وغير واضحة، لا يمكنني التحقق منها. أرى الآن المشهد كما كان، ومع أني كنت مغمض العينين لكني أرى الآن كل شيء بعينين هما ليستا عينيّ، لأني أراني الآن داخل المشهد كشيء منه، فلستُ أنا من يرى وأنما هما عينان أخريان تريان وتستعيدان ما كان، لكن من ذاك الذي رأى كل شيء؟ لا أدري..!.

المهم...، فقد فتحتْ زوجتي الباب. وحين رأتني سكرانًا وفاقدًا لرشدي، بينما صديقي يمسك بي، نظرتْ إليّ باحتقار واستنكاف شديد، بينما كانت تنظر لصديقي نظرات تشي برغبة وود ولطف، لكن كل شيء كان غائمًا وغير واضح.

ألقيا بي على سريري، وغادرا الغرفة.. إلى أين لا أعرف؟ ماذا جرى بينهما؟ لا أعرف..! أعرف، فقط، بأنهما ألقياني على السرير وغادرا الغرفة معا.

الآن أرى المشهد أمامي، أراهما جالسين في المطبخ، بينما تسعى هي جاهدة إلى خدمته. تفتح الثلاجة وتُخرج كل ما فيها من طعام محفوظ وتضعه على المائدة الصغيرة، ثم تسخن قدر الرز المطبوخ وقدر مرق الفاصوليا البيضاء.

وكانت هي قد اتصلت بي حينما كنتُ عند أهلي، وعدتني بالوجبة التي أعشقها، الرز والفاصوليا، لكنها الآن تسخنها لتقديمها لصديقي! وها هي تعد الشاي في الوقت نفسه.

ماذا أرى..ها هي تمر من جانبه في المطبخ الضيق نوعًا ما، وها هو يمسك بكفها ويسحبها إليه، فصارت خلال لحظة في حضنه، فأجلسها على ركبتيه. حاولتْ أن تمنعه وتتملص منه لكنه بجرأة الثمل مسك بها فاستسلمتْ لضغط جسده عليها، وبقيتْ جالسة في حضنه، مثل غزالة وقعتْ في شبكة.

أهذه هي زوجتي حقًا؟ أهذه التي كنت أعدّها رمزًا الحب والوفاء والإخلاص؟ أهذه التي كنت أعتبرها قديسة تمشي على الأرض..! ومن جانب آخر، هل ما جرى الآن هو تهور سكران لم يعرف ذمة لصديق؟ أم علاقتهما كانت موجودة وأنا الغبي الساذج الذي آمن بالوفاء والإخلاص والصداقة فلم انتبه لما كان بينهما؟... لكن لا أعرف ماذا جرى.. لقد انقطع شريط الرؤيا..!!.

ماذا تقصد؟ ألا ترى أو تتذكر شيئًا؟ سأل آدم الحارس بلهفة واضحة.

قلت لك لستُ أنا من يرى، وأنما يُعرض

أمامي وكأنما أرى كل شيء على شاشة مثل فيلم سينمائي، لكني لستُ المصور ولا المخرج، لأني أرى نفسي ضمن الذين داخل المشهد..المهم.. لقد انقطع المشهد حينما شاهدتُ صديقي يريد تقبيل زوجتي، وكأنما ثمة رقابة أخلاقية على الفيلم الذي يُعرض أمام أعماقي، كما في الأفلام العربية، حينما يصل البطل والبطلة إلى مشهد حميم، فيتم قطع المشهد..! ....لحظة ..لحظة.. عادتْ الرؤيا. ما هذا؟

ماذا؟ ماذا ترى؟ ماذا جرى؟

أرى التالي..الشقة مظلمة، لا أحد هنا، وها أنا أرى نفسي نائمًا بعمق السكارى حين يغرقون في النوم..! يبدو أنني قد تجاوزتُ حدودي في ارتشاف الكحول، فأنا أرقدُ كجسد لا حراك فيه. أين زوجتي؟ أين صديقي؟ لا أحد في الشقة، وأنا في غرفتي المعتمة....لا..لا.. ها هي زوجتي تدخل، وهي قلقة الملامح، نظراتها جامدة تنم عن إرادة شيطانية لاقتراف أمر مريب، لكنه أمر مهم بالنسبة لها. ها هي تفتح الخزانات، تسحب حقيبةً جلديةً صغيرةً من أسفل الخزانة، لا تضع فيها سوى قطعٍ صغيرةٍ من الملابس، ثم تمد يدها لترجعها وهي تقبض على صندق مجوهرتها

والحلي الذهبية التي جمعتها على مدى سنوات.
تفتح الخزانة الصغيرة في عمق الخزانة الكبيرة، وتأخذ كل ما فيها من أموال، بالدولار والدينار، وهي مبالغ لا بأس بها، كنتُ قد جمعتها من بعض حصتي في أملاك العائلة التي يديرها أخواي، بل ها هي تأخذ جواز سفري وكل وثائقي مع وثائقها وتضعها في حقيبتها اليدوية...

أغلقتْ الحقيبةَ الصغيرة، وحقيبتها اليدوية وذهبت بهما إلى خارج الغرفة، بينما أنا أرى نفسي راقدًا كحجر ثقيل على السرير.. الشقة غارقة في السكون. ثمة من يخرج من الشقة، ماذا هل غادرت زوجتي؟ إلى أين؟ ما الذي يجري؟ من هذا الذي يصور كل شي من دون أن أراه؟ ولماذا..؟ وهل هو طويل القامة بحيث أرى بعض المشاهد وكأنها تم تصويرها من السقف؟...

هل كنتَ تشك بزوجتك سابقًا؟ سأل آدم الحارس متعاطفًا مع الجثة.

صمتت الجثة للحظات، ثم واصلتْ بنبرة تأكيد:

مستحيل، فقد كان حبنا يضرب في الأمثال، بل ويتم الحديث عن حبنا وتمسكنا ببعضنا

حينما يتشاجر الأزواج من زوجاتهم والعشاق مع حبيباتهم..! كانت هي رمزًا للوفاء والإخلاص وأنا رمز الرجولة والتضحية والإخلاص، لذا فقد كان من المستحيل إن شككت فيها. وما شاهدته في ذلك المشهد بالمطبخ مع صديقي صدمني، مع أني رأيته الآن، بينما كنتُ حينها راقدًا كحجر ثقيل على السرير.

ربما لم تنتبه لما كان يجري من وراء ظهرك؟

صمتت الجثة للحظات، ثم قالت وفي نبرة صوتها شك وقلق:

ربما.. لم يعد هناك من يقين؟ لاسيما بعدما شاهدت كيف أخذت الجواهر والحلي وما لدينا من أموال ووثائقي؟ لكني لم افهم لماذا أخذت كل وثقي أيضًا؟ وإلى أين ذهبت بالحقيبتين؟

وماذا جرى بعد ذلك؟

لحظة.. لأرى ما جرى..! ها أنا أسمع صوت فتح الباب ودخول شخص ما، وهمهمات عند الباب لم أتبين مضمونها، لكني لا أرى أحدًا، فالمشهد حاليًا هو في غرفتي..! لكن مهلًا، ها أنا أرى زوجتي تدخل الغرفة حيث أرقد، وبيدها عبوة بلاستيكية كبيرة، بحجم غالون يسع عشرين لترًا .....

صمتت الجثة فجأة، وطال صمتها، فسأل آدم الحارس:

لماذا سكتّ؟ ماذا ترى؟

بعد لحظات قالت الجثة:

أخاف أن أواصل المشهد المخيف؟

لكن لقد جرى الذي جرى..! أنت الآن تستعيد مشاهدته لا أكثر..!

بعد لحظات من الصمت الثقيل واصلت الجثة:

تلفتتْ في ما حولها، علمًا هي وحدها في الشقة، ولا أدري إن كان ثمة أحد آخر معها، ينتظرها في المطبخ، أو الممر، أو الصالون. تقدمت نحوي وأنا غارق، وغاطس، وفاطس، في النوم، وأخذت ترش عليّ السائل الموجودة في العبوة.

كنت من السكر بحيث لم انتبه لبللي الكامل بالبنزين، بل صار الفراش وخشب السرير كله منقوعًا بالسائل، ورشت على أرضية الغرفة والجزانات، وفتحتها ورشت السائل على الملابس وعلى قطع الأثاث في الغرفة. وحتى على الستائر والجدران وباب الغرفة، ثم ذهبت ترش الأرضية خارج الغرفة أيضًا. عادت إلى الغرفة، وبيدها

علبة الثقاب، اقتربت من السرير، نظرتْ إليّ طويلًا. كانت الكاميرا المجهولة تصور عينيها ونظراتها المليئة بالحقد، والجنون، ونيران الانتقام.

فجأة، فتحت علبة الثقاب، وسحبت عودًا كبريتيًا وأشعلته، وألقته على جسدي الذي اشتعل فجاة. كانت النيران الهائلة والمتصاعدة من جسدي تنعكس على حدقتي عينيها، وفجأة، ارتسم الرعب على وجهها، وغادرت الغرفة، ثم الشقة فورًا.

وماذا جرى؟ ألم تنتبه وتصحو من سكرتك بفعل الحريق؟

لا أدري، كان الحريق هائلًا، والنار هائلة، وربما افقت، لكني تعرضت لحروق قوية جدًا جدًا، فالنار كانت قد انتشرت في السرير، والخزانات، وأرضية الغرفة، والستائر، وجدران الغرفة، وبابها. وربما امتدت إلى الشقة كلها، ولولا أن النيران الهائلة والدخان قد أيقظت الجيران، ومصادفة أن عائلة من الجيران كانت قد رجعت من سهرتها فانتبهت للحريق، وقد اتصلتْ تلك العائلة بالإسعاف والطوارئ والمطافيء الذين، وبقدرة قادر، جاءوا بسرعة، فأطفأوا الحريق،

لكن بعد فوات الأوان.

ارتبكَ آدم الحارس، وتشبثَ الصبي آدم بذراع آدم بقوة خوفًا وهي يستمع معه إلى حكاية هذه الجثة الغامضة، وربتَ آدم على كف الصبي مهدئًا، ثم سأل بتردد:

وماذا جرى بعد ذلك؟

جرى الذي جرى. تم الاتصال بأهلي الذي جاءوا فورًا. أنا نُقلت إلى المستشفى، وكان الأطباء يائسون من قدرتي على البقاء حيًا...

كان الجميع قد ظن بأن زوجتي قد تفحمت وذابت في الحريق، إذ لا أثر لها. لكن عدم وجود وثائقنا الرسمية العائلية في الخزانة الخاصة، وغياب صندوق الحلي والجواهر ولا بقاياه المحترقة، وكذلك اختفاء بقايا الأموال النقدية الورقية، أثارَ الشك، لاسيما وعدم وجود أي أثر لتفحم الجسد سوى جسدي الذي تعرض لحروق هائلة...

ومع سعي الأطباء لانقاذي، لكنهم أعلنوا عجزهم، واخبروا أخوتي عن عجزهم، ونصحوهم لنقلي فورًا إلى بلد مجاور..! فاعترضتنا مشكلة كبيرة، هو عدم وجود جواز سفر خاص بي، فقد أخذته زوجتي مع ما أخذتْ..!.

لم يأبه أحد لغيابها في حينها، فقد ظنوا أنها أما عند أهلها، أو أنها ربما احترقت، ولم يكن أمام أخوتي سوى أن يرسلوني إلى بلد مجاور، لكن المعضلة كانت فقدان جواز سفري، مما أضطر أخوتي أن يرسلوني بجواز سفر أخي التوأم، وبما أن وجهي وجسدي قد احترقا، فلم يعد هناك من يمكن النظر إليه ومقاربته من صورة الجواز، ناهيك أن حالتي كانت تثير الشفقة، ولا يمكن لأية جهة أن تفكر بأن هذا الجواز والاسم لا يعودان لي..!.

فسأل آدم الحارس بلهفة وهو منسجم مع حكاية الجثة الغامضة:

وهل تمَ الأمر بيسر ومن دون مشاكل؟

طال صمت الجثة الغامضة، ثم جاء صوتها:

آسف على التأخر في الجواب، فقد كنت أتنصت على الضجيج خلف جدار هذه الغرفة المظلمة، إذ أعتقد إن هناك غرف أخرى وممرات، وإن غرفتي تقع في مكان تشاركني فيه كائنات أخرى..! عمومًا، كما قلت لك، لدى أخوتي باع، وامتداد، وعلاقات عميقة بالسلطة، بل هم جزء منها، لذا لم يكن الأمر صعبًا مروري من المطار في بغداد، ولا حتى في مطار الدولة المجاورة

للعـراق. وبـدأت رحلـة علاجـي، لكـن كانـت بـدون جـدوى، ففـي اليـوم الرابـع فارقـت عالـم الأحيـاء. وهنا بدأت الكارثة الحقيقية.

قاطعه آدم الحارس سائلًا بفضول، واستغراب:

أية كارثة؟

صمتت الجثة قليلًا، ثم واصلت:

أخوتـي قـرروا حينهـا إعادتـي إلـى العـراق، واسـتحصلوا شـهادة الوفـاة، وقيـل لهـم بأنهـم لا يسـتطيعون أخـذ الجثـة معهـم، إلا إذا تمـت المصادقـة علـى شـهادة الوفـاة مـن قبـل السـفارة العراقيـة فـي ذلـك البلـد..! وهنـا ارتعبَ أهلـي، لأن تصديـق السـفارة علـى شـهادة الوفـاة، التـي استخرجت باسم أخي صاحب جواز السفر، يعنـي أن اسـمه سيُمسـح ويُلغـى مـن كافـة السـجلات العراقيـة، ويصبـح ميتًـا فـي نظـر القانـون، يصيـر ميتًـا الحيـاة، فـلا يمكنـه اسـتحصال أيـة وثيقـة رسمية..!!.

صمـت آدم الحـارس مذهـولًا وهـو يفكلا فـي مـا سمع، وقال:

إنها ورطة حقيقة. وماذا فعل أخوتك؟

لا شيء..!

لا شيء؟

نعم ، لا شيء.. أخي الأكبر الذي جاء معي عاد إلى بغداد مُنكسر الخاطر، بعد أن ترك جثتي في البلد المجاور، وبعد أن تجنب تصديق شهادة الوفاة في سفارة العراق بالبلد المجاور، بينما لم يصدق أخي، صاحب جواز السفر والذي كان قد بقى في العراق، بأنه تخلص من ورطة أن يكون ميتًا وهو في الحياة.

صمتت الجثة قليلًا، فسألها آدم الحارس، بفضول:

وكيف جئت إلى هنا، إلى هذا المكان، إلى بغداد..؟

لا أعرف بالضبط، جرى كل شيء بشكل غامض. الذي أعرفه إن إدارة المستشفى احتارت بجثتي، فهم يعرفون إنني عراقي، ويفترض أن يعودوا بي إلى بغداد، لاسيما أن أخي ومن كان كان معه، الذين جاءوا بي إلى هذا البلد للعلاج، غادروا راجعين إلى بغداد، تهربًا من ورطة جوازي سفري المزور..!. اجتمعت إدارة المستشفى، وأبلغت الجهات الأمنية بوضعي، فقرروا أن تنقل جثتي إلى مشرحة ذلك البلد حيث تحفظ جثث الغرباء..!

قاطعه آدم الحارس سائلًا:

ألم تكن في مشرحة المستشفى؟

نعم.. صحيح.. لكن كان لديهم مكان خاص، مشرحة خاصة، للموتى الغرباء مجهولي الهوية.

كم كان هناك من الموتى الغرباء؟

كنا بالعشرات.. بيننا غرباء من بلدان مختلفة...

وكيف صرت هنا في بغداد؟ أو كما أقرأ على لافتة المكان هنا في «مشرحة بغداد»..؟ مع أني غير مقتنع بكل ما أرى وأقرأ لأني أنا آدم حارس «مشرحة بغداد» التي موقعها ليس هنا في النفق، وهي مبنى وليس بابًا كأنه جدار حديدي..!

امتد صمت مشحون بالترقب بينهما. إلى أن نطقت الجثة:

أنا أعيش في ظلام مطبق في هذه الغرفة أو الصندوق الحديدي، لا أرى شيئًا قط، لكني كما تسمع حديثي، أنا حي، أو لأقل بدقة أكبر، ميت حي.

لكنك لم تخبرني كيف وصلت إلى هنا وأنت جثة مرمية في مشرحة ببلاد أخرى؟

هذه قصة غريبة أخرى، ومليئة بالألغاز كما هي قصة حبي، وحرقي من قبل زوجتي، التي لا أعرف إلى الآن لماذا أشعلت الناري في جسدي

بهذه الطريقة البشعة، لا أعرف لماذا سرقت وثائقي وجواز سفري؟ هل كانت تكرهني وحاقدة عليّ إلى درجة قتلي بهذه البشاعة؟ هل كان لديها عشيق، واتفقتْ معه على قتلي؟ هل غيرتها تغلبتْ على حبها؟ وأني ما زلت على الرغم من موتي أسأل: أيهما أقوى، الحب أم الغيرة؟ أخبرني أنت: أيهما أقوى، الحب أم الغيرة؟

فقال الحارس آدم:

سبق وإن أجبتك..؟ أنا غير متزوج، ولم أجرب الحب سوى مع جثة لقروية، قُتلت ظلما، عشقتها، لذا لا أعرف شيئًا عن الحب، لا ولا عن الغيرة. لكن حدثني كيف وصلت إلى هنا؟

لقد قلتُ لك، إن إدارة المستشفى اتفقت مع الجهات الأمنية على نقل جثتنا إلى مشرحة أخرى، تقع على مشارف المدينة، بل على مبعدة منها، في عزلة تامة.

وجرى ذلك. لم يكن هناك من حارس لتلك المشرحة، سوى رجل غريب الأطوار يعيش على مسافة ليست بالقريبة من المشرحة. وكان يأتي كل يوم ليملأ المولدات بالزيت، ويشغلها، كي تبقى الثلاجات على درجة محددة من البرودة التي تمنع العفن وانتشار الروائح من الجثث.

لكن يحدث أن تنطفيء المولدات أو يتأخر هو عن المجيء لسبب ما، فتسخن الثلاجات وتنتشر الجيفة على الرغم من وجودنا داخل صناديق حفظ معدنية، فتلتم الضباع حول المشرحة.

وحدث إن تعطلتْ المولدات، ذات مرة، وانتشرت رائحة الجيفة حتى وصلت إلى المدينة، ولم يكن أمام ذلك الرجل غريب الأطوار الذي هو الحارس إلا أن يفتح أبواب المشرحة، وبوابات الصناديق المعدنية التي نحن فيها، كي تتسرب الجيفة في الهواء وتخف قليلا. لكنه لم يكن يعرف بأننا أحياء جميعًا..!!

هو لا يعرف بأن الجثث التي لا تُدفن أو تُحرق، تبقى حية بين عالمين، كما في الديانات الندية، أو بعض العقائد المتشبة بالأرواح وعالمها الغامض.

كنا، نحن الجثث، الموتى الأحياء، نقضي العلى وحشتنا وخوفنا من وجودنا في هذا المكان الغامض بتبادل الأحاديث، حيث كل منا كان يروي قصة وجوده في الحياة وكيفية وصوله إلى المشرحة..!

مرة روى جاري، الجثة التي على اليسار، قصة وصوله إلى هذا المكان الموحش. وجاري هذا

هـو رجـل هـرب مـع زوجتـه الشـابة، مشـيًا علـى الأقـدام، مـن بـلاده التـي خربتهـا الحـروب، ودخـل إلـى هـذه البـلاد، وكان بـلا أيـة وثائـق تثبـت شخصيته.

عـاش حيـاة بائسـة. هـو زوجتـه الشـابة الصبيـة التـي انبهـرت بحيـاة المدينـة الحديثـة. وكان هـو يتعـذب ويتحسـر مـن أنـه لا يسـتطيع أن يوفـر لهـا حيـاةً كريمـة، بـل يسـتطيع أن يسـد جوعهـا بطعـام صحـي وشـهي، مـع أنـه لـم يتـرك مهنـة أو عمـلًا لـم يجربـه. لكـن لعنـة المهاجـر كانـت تلاحقـه، فهـو بـلا وثائـق أو هويـة رسـمية، لـذا كان موضـع شـبهة أينمـا حل واشتغل.

وبعـد معانـاة بحثًـا عـن لقمـة العيـش، وجـد عمـلا كحـارس لعقـار قيـد الإنشـاء علـى أطـراف المدينـة، وسـكن مـع زوجتـه الصبيـة الشـابة فـي مخـزن الإسمنت ومواد البناء المستخدمة في البناء.

وهـو يتذكـر جيـدًا أنـه حيـن قـدم علـى المبنـى وتحـدث مـع رئيـس العمـال الـذي رفـض الحديـث معـه أصـلا، لكنـه حينمـا رأى زوجتـه الصبيـة معـه، افترسـها بعينيـه، ووافـق فـورًا علـى تشـغيله، بـل وعـرض عليـه مخـزن الأسـمنت كـي يسـكنه مـع زوجته.

صار يهتم بهما، ويزورهما يوميًا. وأحيانًا كان يمر عليهما مساء بحجة متابعة أشياء تخص البناء، فيقضي وقتًا عندهما يشرب الشاي، ويستمتع بالاهتمام الذي يبديانه نحوه، لاسيما الزوجة الفتية، التي عرفت بغريزتها الأنثوية بأن رئيس العمال يريدها بأي شكل له وأن زياراته اليومية المتكررة هي من أجل رؤيتها لا أكثر. أعجبها أنها صارت موضع اهتمام رئيس العمال، لاسيما أنه أخذ يأتي لها بالهدايا البسيطة. فأحيانا يأتي بالفواكه أو يأتي بالمشويات ويقضي السهرة معهما.

وتجرأ ذات مرة بأن طلب منها وأمام زوجها أن تساعده في تنظيفه (كرفانه) الذي يقع خلف المبنى. تردد الزوج لكنه لم يعترض. وهناك حاصرها، بل ضاجعها برضاها ورغبتها. وحين رجعت في تلك المرة كانت سعيدة بأن لديها الآن عشيق، غير هذا الزوج المتعب الملل.

مع مرور الوقت صارت الزوجة عشيقة لرئيس العمال، بل تعلقتْ هي به، وأخذتْ تذهب إليه بالشاي وهو في العمل، وتطبخ له الطعام وكأنها زوجته، فصارتْ مثار حديث العمال. ووصل بها الأمر إلى أن تستغفل، أحيانًا، زوجها وتذهب إليه

إلى كرفانه لتقضي الليل عنده وترجع فجرًا.
وذات مساء اختفتْ الزوجة، بيد إنها وقبل أن تختفي أقنعت زوجها بأن يصعدا إلى سطح البناية غير المنتهية، كي يتمتعا بمنظر الأفق والسماء وغروب الشمس، وكي تمنحه لذة بعيدًا عن الأنظار، لكنها عوضًا عن ذلك دفعته من سطح المبنى ليسقط ويتهشم على الأرض. ولاذت بالفَرار.
اختفت وحدها، فرئيس العمال واصل عمله وكأنه لا يعرف عنها شيئًا، بينما نُقلت جثة الزوج هو إلى المستشفى، وانتهى به المقام معي في المشرحة التي بأطراف المدينة..!
أما جاري، الجثة التي كانت على اليمين، فقصتها قصة أخرى مؤلمة أيضًا. فهو جندي عراقي جُرح أثناء خدمته على الجبهة خلال فترة الحرب بين العراق والبلد الجار، فوقع أسيرًا، لكنه مات على أثر جراحه في المستشفى، ونقل معنا إلى مشرحة الغرباء أيضًا.
المهم، كما قلت لك، ذات مرة، انطفأتْ المولدات ونفذ الوقود فيها، فتصاعدت الجيفة من المشرحة. وبعد أيام جاء الحارس الغامض، ففتح الأبواب، لاسيما بوابات صناديق الثلاجات

التي نتمدد فيها، فهربنا نحن الثلاثة في منتصف إحدى الليالي.

هربنا من المشرحة، وسرنا الليل كله نقطع البراري. صاحبنا الذي قتلته زوجته كان أفغانيًا، فقرر التوجه إلى بلاده، أما أنا والجندي فاتجهنا نحو بلادنا، نحو العراق.

مشينا ليالٍ وأيام بكاملها. لكن حين وصلنا حدود بلادنا، توقفت جثة الجندي. لم يتقدم خطوة واحدة. حين سألته:

لماذا توقفت عن المشي؟ دعنا ندخل البلاد..!.

لحظتها جلس على الأرض يائسًا ثم قال لي:

إلى أين أمضي؟ ولمن أرجع؟ لا أحد لديّ؟ أبي وأمي قد ماتا؟ وأخي الأصغر من بخمس سنوات قد تزوج زوجتي؟ حدث ذلك قبل عام من موتي على الجبهة..!

استغربت قوله فسألته:

كيف؟ ماذا تقول؟

صمت لكنه أجاب وكأنه مجبر على التوضيح فقال:

هذا ما حدث. أنا التحقتُ بجبهة الحرب منذ سنتها الأولى. وبعد أشهر أُعلن عن فقداني ثم

استشهادي. لكني لم أقتل، وأنما كنا محاصرين من قبل جيش البلد الآخر، لذا اعتبرتنا الحكومة ضمن المفقودين والشهداء. لكننا حاربنا وصبرنا وصمدنا، إلى أن تم كسر الحصار بعد فترة طويلة. المهم..بعد تحرير منطقتنا من الجيش العراقي منحت إجازة.

حين عدت بعد أربع سنوات عرفتُ أن أهلي قد أقاموا العزاء لي، واستلموا مكافأة الدولة لشهداء الحرب. ووفقًا لبعض التقاليد الاجتماعية فقد تزوج أخي، الذي يصغرني بخمس سنوات، من زوجتي التي تكبره بثلاثة أعوام، فقد كانت هي تصغرني بسنتين. وحين عدتُ انقلبتْ الدنيا ولم تقعد. حينها كان والدايّ قد توفيا.

كان وجودي محرجًا لأخي وزوجته، التي هي زوجتي، بل كان أخي محرجًا ويحاول أن يبرر لي ما جرى، لكن زوجته التي هي زوجتي، كانت غير آبهة بما جرى، وتتصرف من دون اي شعور بالذنب، بل كان واضحًا أنها سعيدة بزواجها من أخي، بل ومتضايقة من وجودي أصًلا.

من طرفي حاولتُ اقتناص لحظات كي انفرد بها. وحين سألها إن كانت لا تزال تحبني كما كانت تؤكد لي أيام زمان، إذا إننا تزوجنا من

خلال قصة حب عاصف؟ أو هي نادمة عمّا جرى؟ لكنها كانت تنفر من وجودي، بل حين يغادر أخي البيت تدخل غرفتها وتقفل الباب من الداخل، هربًا مني، ومن أي حوار يمكن أن يجري بيننا.

لم أطق الوضع. كنت قد تجاوزت فترة إجازتي، وصرت ضمن الفارين من الخدمة العكسرية، لذا أُعتبرت مختفيًا في بيتهما الذي هو بيت والديّ، فلم أخرج قط خارج البيت، فحتى وصولي الأول كان في ساعات الفجر الأولى، لذا لم ينتبه أحد من الجيران لمجيئي، فكأن وجودي من عدمه سواء.

لكني لم أطق وضعي. فبعد أيام انتهزت فرصة غياب أخي، وقبل أن تدخل غرفتها وتغلق الباب مسكت بذراعها لأحدثها، فنفرتْ مني وأبعدتني عنها بقوة وصرخت بي:

لا تمسك ذراعي.

أنا زوجك..!؟

لا .لا . لست زوجي. ولم تعد زوجي.

أنتِ ما زلتِ على ذمتي شرعًا..! أنتِ لستِ أرملة..! أنا ما زلتُ حيًا..! عليكِ أن تتطلقي مني كي يمكنك الزواج بأخي..!

فصرخت بي بحقد وشراسة لم أتوقعها :

أنتَ ميتٌ رسميًا منذ سنوات. ألا تفهم..أنتَ ميت منذ سنوات..!

لكن هذا غير صحيح، فها أنا أقف أمامك وأحدثك..!

هذا لا يعني شيئًا.. بالنسبة لي أنت ميت..!

ثم نظرتْ إليّ بصرامة وحدقّت في وجهي وقالت بحزم وغضب واضح:

لأقل لك شيئًا. حتى لو ذهبنا للمحكمة وقررت إعادتي إليك وأقرّتْ ببطلان زواجي من أخيك، فأني سأطلب الطلاق منك، وإذا لم توافق سأخلعك.! وبنفسي سأطلب الزواج من أخيك. ألا تفهم..!؟

لكنه مثل أخيك الصغير. أنتِ أكبر منه بثلاث سنوات..

صمتت للحظات وقالت لي بوقاحة لا نظير لها!

ثم ماذا؟ سأقول لك شيئا ربما يزعجك..! أنا عرفتْ الحياة معه. معه فقط. وأقولها لك هو فحل ورجل حقيقي وليس مثلك.. لو كنتَ رجلًا حقًا فعليك أن تغادر فورًا..! أنت رجل بلا كرامة..ألا تشعر بالعار..ألا تصلك آهاتي حين

يقترب مني ليلًا، بل وحتى ظهرًا حين نأخذ القيلولة؟ لكنك رجل بلا كرامة... أنا لا أفهم كيف كرامتك تتحمل أن تسمع لمَن تسميها زوجتك وهي تصرخ وتتأوه متعة تحت أخيك وهو يخترقها بقوة وهي تطلب منه المزيد من العنف والقوة..!.أنا الآن أحذرك. إذا لم تذهب وتغادر البيت فسنسلمك للمنظمة الحزبية في منطقتنا! وإذا لم يفعلها أخوك سأقوم أنا بذلك. فغادر بكرامتك.

وماذا جرى؟ سألته.

صمت الجندي قليلا ثم واصل:

الحقيقة إن الحرب دمرتني ولم تبق لي ذرة من الكرامة واليقين والإيمان بشيء. بقيت في البيت. كنت أتعذب وأنا اسمع ليليًا أصواتهما الشبقة. ويبدو أنها أمعنتْ في إذلالي، من خلال تقصدها بالمغالة في الممارسة مع أخي ليل نهار، حتى إن أخي كان حين يخرج من غرفتهما بعد الممارسة لا يستطيع أن يرفع عينيه وينظر إليّ.........هي لم تدرك بأن الحرب أخصتني وقتلت رجولتي، فأنا لم أكن أحتاج لجسدها بل لحنانها وأمومتها. لكن من دون جدوى. هي كانت تركز على قضيبي وفحولتي وليس على حبنا

والعلاقة التي كانت بيننا.....وأخيرا، حسما موقفهما، أقصد زوجتي وأخي، بعد أن صرت عبئًا عليهما. وفعلا ذهب أخي وزوجته، التي هي زوجتي، إلى المنظمة الحزبية في منطقتنا، وأخبراهما بأني وصلت للتو إليهما، هاربًا من الجبهة بعد أن اعتقدوا بأني استشهدت!!؟ فألقي القبض علي وأرسلت إلى الجبهة مرة أخرى..... وحدث في هجوم مضاد أن جُرحت وتم أسري ومتُّ في المستشفى. وجرتْ الأمور لاحقًا كما رأيت بنفسك.

كان آدم الحارس والصبي آدم الصغير يصغيان. وكان الصغير ماسكًا بذراع آدم الحارس ومتكئًا برأسه عليها. وكان آدم الحارس موجها انتباهه نحو الباب الحديدي الذي من خلفه تأتي حكاية الجثة المحروقة ورفاقة.

صمتت الجثة المحروقة. امتدَّ صمتها، فسأل آدم الحارس:

وماذا بعد؟ إلى أين رحلتْ جثة الجندي الأسير؟ وكيفَ صرتَ أنتَ هنا؟

استرسلتْ الجثة المتفحمة بالحديث:

بقيت فترة طويلة أحاول إقناع الجندي السير بعبور الحدود معي، وأفهمته بأنه يستطيع العيش

ككائن غير مرئي، كجثة حية، لكنه بقدر شوقه للبلاد كان يعيش متأثرًا بخيانة زوجته وأخيه له. وأخيرًا قرّر التيه في ظلمة الليل. قام حينها واختفى في البراري المظلمة. صار شبحًا. بينما كنت أنا بجثتي المتفحمة متماهيًا في الظلام والعتمة.

وأنتَ؟ سأل آدم الحارس.

أنا..؟ أنا نفسي لا أعرف كيف وجدتُ نفسي هنا في هذه الغرفة المعدنية الجدران؟ لكني أتذكر نفسي بعد مغادرة الجندي الأسير وتماهيه في ظلام الليل وعتمة البراري، بأن توجهت إلى الحدود لأجتازها. وما أن خطوت خطوتين وصرتُ في المتر الأول من أرض بلادي حتى أحاطتني مجموعة من الأشباح. لا، لا، مجموعة أشبه بالزومبي. موتى أحياء مثلي، لكنهم ليسوا مثلي...

من هم؟ وماذا فعلوا بك؟

لا أعرف من هم..!. لكن كان واضحًا بأن لديهم سلطة حتى وهم موتى أحياء..

وماذا فعلوا معك؟

كما هو متوقع، فقد حققوا معي. أفهموني بأني مكثت في مشرحة البلاد المجاورة فترة طويلة. وإن البلاد الآن تحت سلطة الزومبي

العراقي. وأنا متهم في نظرهم حتى تثبت براءتي، لكنني أخبرتهم بأنني من أبناء النظام الجديد، ولم أكن أسيرًا، وأخوتي شخصيات بارزة في النظام الجديد. ومع ذلك بقيت متهمًا في نظرهم. وسألوني إن كنت مشاركًا في تظاهرات تشرين؟ وحينما نفيتُ ذلك سألوني هل أنا مؤيد لها أم لا؟ والحقيقة لم أفهم ما يقصدون!!.

قصتك غريبة. ووجودك في المشرحة لوحدك أغرب. قال آدم الحارس.

لا أعتقد إنني وحدي. بدأت أشك في ذلك. أظن أنني في مكان مغلق، وأنا لستُ وحدي!؟

كيف؟ ألم تقل إنك وحدك هنا ولا أحد غيرك؟

نعم.. صحيح.. لكني سمعتُ ضجيجًا يأتي من خلف الجدار الخلفي لغرفتي. وأظن هناك غرف أخرى وقاعات وممرات. فالضجيج ينم على وجود موتى أحياء مثلي. مهلًا. مهلًا. أسمع ضربات من الجدار المجاور.. ثمة من يكلمني.

وانقطع الصوت. وأنطفأ المصباح الشاحب المعلق فوق الباب الحديدي. فغرق النفق من جديد في الظلام.

(3)

شمعة في نفق مظلم

في عتمة النفق الغامضة لاحتْ نقطة ضوء. بدتْ مثل نجمة تومض وتختفي أو مثل شعلة متذبذبة. كان الصبي آدم خائفًا وهو يمسك بجذع آدم الحارس ويحطيه بذراعيه. وكلما توغلا في أعماق النفق واقتربا من نقطة الضوء، تذبذبتْ أكثر.

حينما اقتربا وصارا على بعد عشرين مترًا أتضح لهما بأن هناك إنسان يجلس وهو يحمل شمعةً. يمسك بيده شمعته وبكفه الأخرى يحيطها كي لا تنطفئ.

حينما صارا على مقربة منه، بل أمامه تمامًا، اِرتد آدم الحارس للوراء من هول الصدمة، وتشبث الصبي به بذراعه مذعورًا.

كانت الرجل بلا عينين، بل لقد قُلعت عيناه وليس في وجهه سوى كهفين مظلمين يذكّران بوجود عينين تم اقتلاعهما. كان الرجل يردد:

أنا الذي رأى كل شيء.. أنا الذي رأى كل

شـيء..! أنـا كلكامـش الأعمـى، كلكامش الخائـف من جيفة الموت، كلكامش الخائب الذي انتصرتْ عليه أفعى فقضمت زهرة الخلود..! أنا اللاشيء القادم من اللاشيء. أنا الذي رأى كل شيء، ولم يرَ شيئًا سوى الظلام..! الظلام.. الظلام.. الظلام..!

فجأة، انتبه االرجل حامل الشمعة لوجود من يقف أمامه. وسأل:

هل هناك أحد؟

صمت آدم الحارس للحظات، ثم قال:

أنا آدم الحارس. حارس مشرحة بغداد..

مشرحة بغداد؟

نعم.. مشرحة بغداد

هل نحن في بغداد؟

نعم.. هكذا أعتقد.. لكننا الآن في نفق مظلم.. لا أدري إلى أين يقود؟

ظننت أنني كنت في السماوة.. في سجن نقرة السلمان..! ما زلتُ أسمع أنين السجناء الشبان الذين كنتُ أسحب دمهم يوميًا كي يرسل إلى الجبهات، ونجري عليهم التجارب الكيماوية، أسلحة بايولوجية تستورد من أوروبا وتجرب على هؤلاء الضحايا المساكين، الذين هجروا أهاليهم

إلى البلد المجاور بحجة تبعيتهم لها، بينما تجرى التجارب الكيماوية والأسلحة البايولوجية على أبنائهم قبل استخدامها في الجبهات وتسحب الدماء من شرايينهم لترسل إلى المستشفيات وإلى جبهات القتال.

أنت تتحدث عن الحرب مع الدولة الجارة؟

نعم..

لكن مضى على ذلك عقود من الزمان. سقط النظام الذي خاض تلك الحرب، وجاء نظام جديد. ألا تعرف ذلك؟

لا. لا. لقد قبضوا عليّ، وأقتلعوا عينيّ لأني رأيت كل شيء. لأني رأيت كلَ شيء. أنا كلكامش الحزين مفقوء العينين. أنا العتمة الباهرة، أن الزمن الميت الحي. أصبُ لعناتي على هذه الأمم الحقيرة. أصب لعنتي على تلك العقائد التي تدعو إلى الحروب، وتدعو إلى الكراهية، وتدعو إلى التعصب، واحتقار الآخر، باسم المقدس، مقدسها الخاص الذي يمنحها أفضلية على الآخرين.... أصب لعناتي على نفسي، لأني انتمي لهذه البقعة من الأرض. أنا كلكامش الأعمى. سليل الأنوناكي.

من أنت؟

صمت الرجل لوهلة، ثم قال متمتمًا وكأنه يحدث نفسه:

أنا رجل مفقوء العينين يحمل شمعة في نفق.

ما قصتك؟ ولماذا أنت هنا؟ ومن فقأ عينيك واقتلعهما من محجريهما؟

أنا خلاصة رحلة من العذاب والإثم والخطيئة. عشت تجارب ليست سوى خطايا. لكن ماذا تفعل أنت هنا؟ وأين نحن بالضبط؟

لا أدري أين نحن. وأنا لستُ وحدي، فمعي الصبي آدم الصغير، رافقني منذ لحظة خروجي من المشرحة بعد أن فرّت الجثث كلها.

فرّت؟

نعم.. كل الجثث التي كنتُ أحرسها في المشرحة قد فرّت منها، ورأيتها تسير في المدينة. لم يبق في المشرحة سواي وسوى الصبي آدم الصغير. وحين غادرنا المشرحة، رأيتُ في شوارع بغداد كلها جثثًا تمشي.. العديد من تلك الجثث أعرفها. جثث كانت في المشرحة، لكنها كما أنا وأنت.. جثث حية. لكني وجدت أيضا فريقًا من الفئران الكبيرة التي أشبه بكلاب كبيرة، مدججة، وتسير بطريقة منظمة وعسكري، وخلفها زومبي، وحشد من الجثث الهاربة.

قاطعه الرجل مفقوء العينين قائلًا:

نعم.. نعم.. رأيتها بعين الظلام.

ماذا؟ كيف رأيتها وأنت بلا عينين؟

نعم.. صحيح إن عينيّ قد اقتلعتا من محجريهما، لكنني أرى بقوة الظلام. الظلام الذي في المحجرين.. أرى بعين الظلام، رأيت حشودًا من الزومبي قد مرتْ من أمامي هنا في هذا النفق.

هل هذا يعني أنك ترانا الآن؟

لا.. لكني أستطيع أن استحضرك في ذهني. لا أراك رؤية العين.. لكن أراك بعين الظلام.. والظلام لا يرى سوى الظلام..! أنت ظلام يمشي في الظلام. كلنا نمشي في الظلام.!

فجأة انطفأت الشمعة في يد الرجل مفقوء العينين. عمّ الظلام. لم يعد آدم الحارس يرى شيئًا. عمّ الصمت للحظات. فأراد أن يتأكد من وجود الرجل حامل الشمعة، فسأل:

هل أنتَ هنا؟

لم يجبه أحد، فكرر سؤاله:

هل أنت هنا ياكلكامش الأعمى؟

لم يجبه أحد. نظر آدم الحارس إلى آدم الصبي. لم يره لكنه كان يحس بوجوده لأن الصبي

آدم متشبث به، فسأله:

هل ترى شيئًا يا آدم..؟

فتمتم الصبي بصوت خائف:

لا.لا أرى شيئًا. أنا خائف. دعنا نمشي من هنا.

احتوى آدم الحارس كتفي الصبي آدم الصغير. وسارَ بحذر في ظلام النفق. لاشيء سوى الظلام. وتذكر آخر جملة سمعها من الرجل مفقوء العينين:

أنت ظلام يمشي في ظلام.. كلنا نمشي في الظلام.

سأل آدم الحارس نفسه:

كلنا نمشي في الظلام جملة مفهومة، لكن أنت ظلام يمشي في الظلام جملة غامضة. ماذا تعنى بها؟

حاول تفسير الجملة وهو يمشي مع الصبي معتمدًا على معارفه الفكرية والفلسفية والأدبية، لكنه لم يستطع سوى استذكار أبياتًا من رباعية شاعره الإنكليزي المفضل، الذي حفظ ترجمة إحدى رباعياته، فأخذ يتمتم بها مع نفسه:

ظلام ظلام ظلام،
جميعهم يمضون فى الظلام،
فى الفضاء الخالى مابين النجوم،
الفراغ فى الفراغ.

القباطنة ورجال البنوك ورجال الكلمة المرموقين،
ورعاة الفن الكرماء ورجال الدولة والحكام،
وكبار رجال الحكومة ورؤساء عديد من اللجان،
وسادة الصناعة وصغار المقاولين،
جميعهم يمضون فى الظلام.

وظلام هى الشمس والقمر والتقويم
وجريدة البورصة ودليل المديرين.
وتبرد الحواس ويضيع الدافع الى الحركة،
ونذهب جميعا معهم فى الجناز الصامت؛
جنازة لأحد؛ فليس هناك من يدفن.

وقلت لروحى اسكنى ودعى الظلام يحل عليك والذي سوف يكون ظلام الله،
كما فى مسرح عندما تخفت الاضواء بحفيف

أجنحة جوفاء،

وحركة الظلام على الظلام.

في تلك اللحظة التي كان فيها آدم الحارس منشغلًا مع نفسه، سمع أصواتَ قادمة من البعيد. فانتحى جانبًا ملتصقًا بجدار النفق وهو يضم الصبي آدم إلى نفسه.

(4)

الغرفة الزرقاء...
قوادة بغداد في زمن الحصار

لا يعرف آدم الحارس كم مر من الوقت عليه وهو، مع الصبي الذي يحتضنه، ملتصق بجدار النفق. فليس هناك زمن في الظلام. لا وقت في النفق المظلم.

كان الصمت مهيمنًا على النفق. لا نأمة تُسمع. وشيئًا فشيئًا فك نفسه من على الجدار، ومسك بكف الصبي آدم وأخذا يمشيان في الظلام.

بخطواتٍ حذرةٍ وبترقب لأي مفاجأة كان آدم الحارس يمشي. فجأة، وعلى غير توقع، سمع صرخات أنثوية عالية، تأتي من عمق النفق. تقدما في النفق مشيا. فلاح ضوء أزرق يرش مساحة من أرضية النفق.

أخذا يسرعان الخطى نحو تلك المساحة المضاءة. وحينما وصلا إليه. انتبها إلى أن الضوء يأتي من نافذة جانبية. نافذة حديدية

محصنة بقضبان سميكة تفصل بينها مسافات قصيرة جدًا، تطلّ على غرفة مضاءة بمصابيح زرق. وفي عمق الغرفة تجلس امرأة في ثوب أبيض شفاف يبدو أزرقَ من توهج الضوء الأزرق.

كانت الغرفة مليئة بالكتب. وكانت المرأة مثل حامل الشمعة، كلكامش الأعمى، كانت عمياء ومفقوءة العينين. ومع ذلك كانت تمسك بكتاب بين يديها.

كانت جالسة على كرسيها من دون أية حركة. كأنها تمثال من الشمع، بعينين كأنهما مغارتين مظلمتين.

حين اقترب هو من النافذة رفعتْ رأسها وكأنها زومبي. كانت حركة آلية متقطعة. ونظرتْ بتركيز، من خلال محجري عينيها، اللذين وكأنهما مغارتين مظلمتين، إليه. لم يكن الصبي آدم الصغير بمستوى النافذة من ناحية الطول لذا كان آدم الحارس وحده يرى ما في الغرفة. انتبهت إلى وجود شخص ما أمام النافذة فسألت:

من أنتَ؟

أنا آدم الحارس. لكن من أنتِ؟ ولِمَ أنتِ وحدك في هذه المكتبة؟

كانت البحيرة متجمدة. الثلج كان ينهمر بشدة،

الصحراء بيضاء. والمطار كان مقفرًا ولا أثر لأي إنسان. ما حدث لم يحدث أبدًا. وما حدثَ قد حدث، وما يجب أن يحدث سيحدث، وما حدث لم يحدث أبدًا.

لم أفهم..!؟ تمتم آدم الحارس.

هل سمعت تلك الأغنية الأجنبية التي عنوانها «لأنك أحببتني»؟

لا..

تبًا لك.. كلماتها تخفف عليّ وحشتي هنا في هذه الغرفة الزرقاء.

بدت المرأة وكأنها مجنونة. أحس آدم الحارس بالخوف منها مع أنه بعيد عنها، ويفصل بينهما جدار ونافذة ذات قضبان حديدية متينة.

فجأة، تحركت المرأة عن كرسيها بحركة آلية. واقتربتْ من النافذة ماشية كما يمشي الزومبي، وحين صارت أمام النافذة قالت له:

من أجل المرات التي وقفتَ فيها بجانبي
من أجل الحقيقة التي جعلْتني أراها
من أجل السعادة التي حملتها إلى حياتي
من أجل الأخطاء التي صححتها لي
من أجل الحلم الذي جسدته لي واقعًا
من أجل الحب الذي وجدته في أعماقك

سأكون شاكرةً لك للأبد يا حبيبي.

أنتَ من ساندني..
لم تتركني أسقط أبدًا..
أنتَ من عرفني حقًا طول الوقت.

لقد كنتَ قوتي عندما كنتُ ضعيفةً..
لقد كنتَ صوتي حينما عجزتُ عن الكلام..
لقد كنتَ عينيّ لحظة عجزي عن الرؤية..
أنتَ رأيت أفضل ما فيّ..
رفعتني إلى حيث لم أستطع التحليق
أعطيتني الإيمان لأنك آمنت بي..
فكل ما أنا عليه الآن
لأنك أحببتني.

صمتت المرأة للحظات، ثم واصلتْ:

لكن كل هذا كلام في كلام. فأنا المرأة التي أحبتْ من دون حكمة. قامتْ من أجل حبها المريض بجرائم مروعة، ومع ذلك انتظرتْ من الآخرين أن يتعاطفوا معها ويتفهموا جرائمها ويسامحوها..! لكن لا أحد سامحها. ولا أحد تفهمها.. فقررتْ الانتحار. لم تقتل نفسها وأنما

دمّـرت كل شـيء، نفسـها والآخريـن. لـم يبـق مـن الحب في حياتها سوى تلك الكلمات من الأغنية.. فحياتها مثل البندول الذي كان يتأرجح بين الكراهية والانتقام.

لـم يكـن آدم الحـارس يفهـم شـيئًا مما تقـول وعمّن تتحدث. لكنها واصلت:

أتعرف ياأيها العابر الغريب. ما هو عقابي؟
ما هو؟

عقابـي هـو إننـي لـم أمـت موتًـا. العـودة للحيـاة الميتـة هـو عقابـي. صحيـح إن المـوت ليـس نزهـة، لكنه اندماج مع اللانهاية.

أنـا هنـا، كمـا ترانـي، محاطـة بمكتبـة، لكنهـا مجـرد ديكـور لا أكثـر. مغلفـات تشـبه الكتـاب لكنهـا فارغـة. مكتبـات للزينـة. معرفـة مزيفـة وفارغـة، بـل إنهـا معرفـة اللامعرفـة. الـكل يخـاف المعرفـة. حتـى القديـر فـي بعـض الأديـان نهـى الكائـن الإنسـاني الأول مـن الاقتـراب مـن شـجرة المعرفـة، شجرة الخير والشر..!

مـن أنـتِ؟ وكيـف أنـت هنـا فـي هـذه الغرفـة الزرقاء؟ ولِمَ أُقتلعتْ عيناك من محجريهما؟

حدقتْ المـرأة فـي وجـه آدم الحـارس، وكان هـو ينظـر إلـى أعمـاق محجريهـا الفارغيـن ككهـف

مظلم، وقالت:

دع عنك معرفة من أنا أو كيف وُجدتُ هنا، ولِمَ جرى معي ما جرى، فكل القصص والحكايات تتشابه. لكن ببساطة أقولها، لقد اقتلعوا عينيّ لأني رأيتُ كل شيء، رأيتُ ما لم يجب أن يُرى..!.

وماذا رأيتِ؟

دعك عن ذلك.. لأن ما سأرويه لا يعرفه أحد. إنه جزء من الخراب الذي عاشه هذا الشعب الضحية.

أنا أسمعك..

أنا حواء بنت الأحدب. كنتُ أشهر قوادة في بغداد. لدي بيت فاره، بل قصر فاره وواسع الجنبات في المنصور. وكنت أقيم فيه الحفلات والسهرات. كنتُ عشيقة لأحد أكبر المسؤولين في البلاد، لكن أحد أبناء رئيس البلاد رآني ذات مرة، فأمر عشيقي بأن يتنازل عني له. وهذا ما حدث. المشكلة التي واجهتني هو أنني عشقت عشيقي الأول لأنه كان فحلًا، ولديه تحفة لحمية رائعة، لذا كنت أتغاضى عن مغامراته الجانبية لأني كنت أحلم بالساعة التي يكون فيها معي. أما ابن رئيس البلاد فكان عاجزًا، على الرغم من كل سمعته الفضائحية والدونجوانية.

طبعًا، ليستْ هناك أية امرأة كشفتْ عن ذلك، عن عجزه، لأنه يهددهن بأنه سيقطّعهن تقطيعًا، وهذا ما قام به فعلًا، ذات مرة، مع فتاة جامعية اختطفها رجاله من حفل زفافها له، وقد روتْ الفتاة لصديقة لها بأنه لم يمسها، بل كان يداعبها بأصبعه، فلم يمر وقت طويل حتى انقضّت أجهزة المخابرات على الفتاة وصديقتها وأهلهما، واختفى الجميع.

المهم، معي حدث الشيء نفسه، ولأنني أعرف شراسته وعنفه الوحشي فقد أخذت أروى قصصًا وهمية عن فحولته. وكان هو يعرف ويسمع ويصله كل شيء، لذا كان مرتاحًا معي، ومع أنه كان يأتي بنساء أخريات، لكنني كنت مدللته.

كان ذلك والبلاد تعيش حصارًا دوليًا، نتيجة مغامرة هوجاء قام بها رئيس البلاد على بلاد صغيرة مجاورة. المهم.. ذات مرة سافرت إلى بلد عربي مجاور، وطبعًا أنا أعرف أنني مراقبة من لحظة خروجي من منزلي بالمنصور إلى لحظة دخولي غرفتي في الفندق بعاصمة ذلك البلد المجاور..

هناك التقيت بطبيبة عراقية لديها عيادة كبيرة تشبه المستشفى. ويبدو أنها تعرف عني

كل شيء، فقد كنت في الأوساط الخاصة معروفة بعلاقتي بابن رئيس البلاد... تقرّبتْ هذا الطبيبة مني، وذات مرة، وفي سهرة شربنا فيها ما يكفي لكي ننسى تحفظنا واحتراسنا ونباهتنا وحذرنا. وحينها، في تلك الليلة، فاتحتني تلك الطبيبة عن مشروع يدر علينا عشرات الألوف من الدولارات، بل مئات الألوف لو استمر بشكل جيد.

المشروع وما فيه هو أن البلاد تعيش حصارًا اقتصاديًا وسياسيًا محكمًا، بحيث انهارت المنظومة القيمية، فصار أستاذ الجامعة، بل والمراتب العسكرية العليا، تستخدم سياراتها الشخصية كسيارات أجرة وتاكسي. وصار طبق البيض يساوي مرتب شهر كامل لمدرّس، وصار الأطفال يموتون من نقص الطعام وفقدان الحليب وفقدان أبسط المقومات للاستمرار في الحياة... وانتشرت الدعارة، وزواج الفتيات القاصرات من أجل لقمة العيش.

المهم، أقنعتني تلك الطبيبة، بأن أستفيد من حالة الحصار، وذلك بأن آتي بفتيات مراهقات عذروات، باكرات، وأقنع أهاليهن، بأن يأتن معي إلى البلد المجاور للمشاركة في مؤتمر خيري. ومن هناك تقوم هذه الطبيبة بالتنسيق مع جهات

أخرى في ذلك البلد وبأحد البلدان الخليجية، بإرسال هاتيك الفتيات إلى تلك البلاد، بحيث يحظى بعض التجار هناك بفض بكارتهن مقابل خمسة آلاف دولارًا أو أكثر، وحسب الجمال والعمر. يبقين أسبوعًا هناك، ثم يرجعن للبلد المجاور لنا والذي انطلقن منه، لتقوم الطبيبة برتق بكارتهن، وأعطاء كل واحدة ما يقارب ثلثمائة دولارًا، لنعود بهن إلى بغداد باكرات، عذروات.

قمت بذلك بسهولة. لكن، كما هو واضح، فلم يخفى شيء على عشيقي ابن رئيس البلاد ولا عن سفارة بلادنا، فكانت التقارير تذهب إليه بعددهن والمبالغ المستحصلة، لذا كنت مضطرة إلى تقسيم المبالغ المستحصلة بيننا. نصفها لابن رئيس البلاد، وأنا والطبيبة نتناصف الجزء المتبقي بعد أن نوزع على كل فتاة مبلغًا بسيطا.

هل تصدق أن العديد من العوائل صارت تتوسطني من أجل الاتجار بفتياتها؟ هل كانوا يعرفون بما يجري أم يظنون بأنني أحتاجهن لخدمتي في المؤتمرات التي أقيمها في البلد المجاور..؟ لا أعرف.

اشتريت بيتا واسعًا (فيّلا) في ذلك البلد

الخليجي، بل توسعتْ تجارتنا، أنا والطبيبة، بحيث صرنا نتعامل مع أكثر من بلد خليجي. وطبعا كنا نتوزع الأموال كما النسبة التي ذكرتها.

كان آدم الحارس مندهشًا مما ترويه، غير مصدق إن هذا جرى في بلاده، بل كان يستذكر في ذاكرته بعض الأفلام عن تجارة الدعارة من قبل المافيات في أميركا اللاتينية. لكنه سألها، لأنه أدرك بأن خاتمة الحكاية مختلفة، فهذه المرأة مقتلعة العينين من محجريهما، وقالت له لأنها رأت كل شيء، فما الذي رأته كي تستحق هذا العقاب..؟. لذا سألها:

وما جرى في ما بعد؟

لا شيء. استمرت هذه التجارة. بدوري اشتريت شققًا فارهة في الأبراج الشاهقة في بلدان الخليج، بل واشتريت يختًا أبقيته في ذلك البلد الخليجي الذي كان منطلقًا لتجارتي. وحصلتُ على إقامة فيه، بل توسعت علاقتي مع شخصيات مهمة هناك.

لكن، كما تعرف، النفس أمارة بالسوء. وطمع الإنسان ليس في المال فقط، وأنما يطمع في السلطة، والشباب، والشهوات.الشهوة تقودنا من أنفنا كما يقاد الدب إلى حلبة السيرك، لذا

تقرّب مني شاب وسيم جدًا، وشاكسني بجرأة، لكني كنت حذرة جدًا، وكنت أحسب أنه مدسوس ومرسل من قبل جهة ما، فليس من المعقول أن أراه يطاردني في كل مكان، ويتقرب مني بجرأة غير طبيعية، متغزلًا بجمالي، غير آبه لأية رد فعل قد يصدر مني. وطبعا كان ذلك في ذلك البلد البعيد.

وأقول لك بصدق. المرأة لغز. فمهما بالغتْ في الطهارة والحصانة، والتعفف، لكنها تضعف أمام جرأة الرجل الذي يقتحم موانعها ويتغزل بجمالها، حتى لو أبدتْ النفور والغضب العلني من ذلك، لكن في أعماقها ثمة رضا وقبول مكتوم.

أنا لستُ طاهرةً، ولا عفيفةً، فأنا قوادة لا أكثر.

ولا أعرف ماذا جرى وكيف جرى. فذات ليلة انتابني أرق، ولم أستطع النوم. وجاءتني رغبة بأن أقود سيارتي واتنزه في شوارع المدينة. وأذهب إلى ساحل البحر باحثة عن الهدوء، متأملة حياتي الفارغة، التي فيها كل شيء، ومع ذلك لاشيء فيها، حياة فارغة.

كنت أعيش في منطقة هادئة جدًا، لا نأمة

تُسمع فيها. شوارعها مقفرة. فكلها قصور عالية الأسوار. المهم. ما أن خرجتّ من باب فيلتي حتى اعترضتني سيارة سوداء.

كنت منذهلة، فقد كنتُ على وشك أن أصطدم بها. وفجأة، خرج ذلك الشاب الجريء. أحسست بجسدي كله يرتعش. لم أكن أعرف ماذا أفعل. هل أتصل بالشرطة والنجدة أم أترك الأمور لأرى كيف ستنتهي. لم أشأ أن أفضح حالي، فالأمر سيفسر على غير ما هو، وأيضًا كان في نفسي شيء من رضاي وإعجابي بجرأته. قلت لك المرأة لغز.

المهم. اقترب الشاب مني، وفتح باب القيادة، وسحبني من ذراعي بقوة شلتني. أخرجني من السيارة، ومن ثم فتح الباب الخلفية لسيارتي ودفعني هناك، ودخل معي، ومن دون أي كلام، مد ساقي وسحب وسروالي، ومن دون مقدمات، ولا كلام، وبرغم محاولاتي لإبعاده، لكنه أولجه فيّ بقوة وعنف.

سأقول لك شيئًا. لو لم يكن هناك قبول نفسي لما يقوم به لما استطاع فعل ذلك. لقد مكنته من ذلك، فبعد لحظات، فتحت له ساقي، وسهّلت له الإيلاج. وكان مجنونًا، فقد كررها

مـرات، وبأوضـاع مختلفـة، وكنـت وهـو يلجنـي بقـوة وبعنـف وأوضـاع مختلفـة، أفكـر مـع نفسـي، بأنـي أحتـاج لرجـل مثلـه. لكـن علـي المحافظـة عليـه وعلى سـرية ما سيجري معه.

أنهكنـي وأنهكتـه. وحينمـا هدأنـا. طلبتُ منـه أن يدخـل معـي إلـى بيتـس الفـاره بعـد أن يركـن سـيارته في المرآب داخل بيتي.

وهكـذا أتخذتـه عشـيقا سـريًا. عشـتُ معـه أجمـل الأوقـات. وصـرت أقضـي الكثيـر مـن وقتـي فـي ذلـك البلـد. لكـن الطامـة الكبـرى أنـه اختفـى فجأة.

لـم أسـتطع أن أبلّـغ شـرطة ذلـك البلـد عـن اختفائـه لأنـه ليسـت هنـاك مـن قرابـة أو علاقـة تربطني به، وهو في عالمي أشبه بالشبح.

حاولـتُ بشـكل غيـر مباشـر، مـع بعـض رجـالات الأمـن مـن تلـك البـلاد، مختلقـة حكايـة، بـأن هنـاك عائلـة فـي بغـداد تبحـث عـن ابنهـا الـذي انقطعـت أخبـاره، ويـردون معرفـة إن كان قـد تعـرض لحـادث، فـكان هـؤلاء الرجـالات يسـعون بـكل طيبـة إلـى مساعدتي، لكن النتيجة كانت: لاشيء.

وأخيـرًا، لـم يكـن أمامـي سـوى التوجـه إلـى سـفارة العـراق فـي ذلـك البلـد، وأخبرتهـم بـأن أحـد

العاملين لديّ قد اختفى. جلست في صالة الاستقبال منتظرة. وبعد قليل من ذلك قيل لي بأن القنصل يريد أن يتحدث معك.

حين دخلت عليه وجدتُ رجلًا آخر عنده، فعرفتُ بأن لديهم معلومات عن الأمر. قال لي القنصل، وهو يشير إلى الرجل الآخر:

هو يستطيع أن يجيبك على سؤالك.

ومن دون مقدمات توجه إليّ ذلك الرجل قائلًا، بنبرة فيها عدم احترام مبطن:

نحن نعرف هذا الشخص. وهو حاليًا في بغداد. يمكنك أن تذهبي فورًا إلى بغداد لتنقذيه قبل فوات الأوان.

عرفتُ لحظتها بأنهم يعرفون كلَ شيء عنه وعن علاقته بي. ارتعبتُ. لكنني كنتُ قد أحببته فعلًا. وراودتني خاطرة بأن يمكنني أن أسافر إلى بغداد وأتوسل عشيقي ابن الرئيس لأنقذ الرجل الذي أحببته بحق. ولم أنفق الكثير من الوقت لأحسم أمري. فقد حجزتُ بطاقة سفر عبر البلاد التي تعيش فيها الطبيبة، ثم من هناك إلى بغداد، فلم يكن هناك رحلات طيران مباشرة بين بغداد ودول الخليج.

حين وصلتُ بغداد كان في استقبالي رجال قد

أرسلهم عشيقي ابن الرئيس، فأخذوني مباشرة إلى قصرٍ بعيد من قصوره.

حين دخلتُ عليه وجدته جالسًا على كرسي بهي مطعم بالذهب، وأمامه يرقد فهد صغير ساكن الحركات لأنه قد شبع أو ربما قد خدروه كي يهدأ ويفقد شراسه واندفاعاته غير المحسوبة.

ما أن دخلتُ حتى ابتسم لي ابتسامته الشرسة الشريرة المليئة بالوعيد وقال من دون ترحيب أو أية مقدمات:

ما الذي قصرتُ فيه معك كي تخونيني مع واحد أجرب..؟

أحسستُ بأن الأرض تميد تحت قدميّ. فأنا أعر ف هذه النبرة حين يتحدث بها، فتمّتمتُ:

أنا لم أخنك..

قهقه قهقهة مصطنعة مليئة بالسخرية، فكدت أنهار ويغمى عليّ، لكنه واصل كلامه قائلًا:

أنت تنكرين..! لكن عشيقك الذي خنتني معه اعترف بكل شيء..! بكل شيء.

حاولت أن أتماسك بكل ما لدي من جذوة الحياة، فلم يعد هدفي أن أنقذ عشيقي وأنما أن أنقذ نفسي، لذا استنهضت غريزة الحياة فيّ،

لـذا لا أعـرف مـا أيـن جاءتنـي الوقاحـة والجـرأة لأرد عليـه، ربمـا هـي من شراسـة ووقاحـة القوادات، فلقد كنت على حافة الهاوية، لذا قلت:

إنـه يدعـي ذلـك كي يسـيء إلـيّ، فلقـد ألـح علـيّ بأنه أشغله وأجد له وظيفة لكني رفضت..!

فقهقـه قهقهـة عاليـة مـرة أخـرى، ونظـر لبعـض الرجـال الأشـباح الـذي يحيطـون بالصالـة التـي يجري فيها الحوار، وقال لهم:

اسـمعوها..تقول إنـه يدعـي ذلك..وهـي لا تعـرف بأننـا أرسـلناه لنختبـر إخلاصهـا لنـا. لكنهـا، مـع الأسف، رسبتْ في الامتحان، بل صارت عشيقته، وصـارتْ تنفق عليـه مـن أموالنـا، وهـو الحقيـر بـدوره انغمـس فـي الـدور وصـار العاشـق المتمـرد الـذي تحدانـي. نحـن أرسـلناه ليلعـب دور العاشـق وليختبـر اخلاصـك ووفائـك لـي أيتهـا القـوادة الفاشـلة، لا أن ينغمـس فـي دور العاشـق. وأنـتِ امتحنّا صبرك لكنـك لـم تصمـدي أمـا قطعـة اللحـم التـي اخترقتـك، لـم تسـتطيعي السـيطرة علـى شهوتك رجعت لأداء دور القحبة.

لدينـا فيـدوات مصـورة تكشـف لنـا كيـف كنـتِ تتوسـلينه كـي يخترقـك..! هـو نفسـه نصـب لـك الكاميـرات وزوّدنـا بـكل شـيء فـي البدايـة، لكنـه

أطفأها في ما بعد، فأعتقلناه. دعوناه إلى هنا لانجاز مهمة، وهنا أبقيناه.

حينها أدركتُ هول الفخ الذي وقعتُ فيه. ولعنتُ ضعفي أمام فيضان النار التي كانت تتأجج بين فخذيّ، فلقد أنساني ذلك حذري الدائم من غدرهم، وشلَّ يقظتي التي لا تهدأ وتسكن، فأنا أَعَرف الناس بقساوة هؤلاء الخنازير. ومن دون انتظار لما سأقول أمر الآخرين:

هاتوه...

بعد لحظات دخل رجلان وهما يجرانه. كان عاريًا، مهشمًا، ملطخًا بالدماء والغائط. وانتبهتُ إلى أنهم قطعوا قضيبه واجتذوه من مكانه، وقطعوا شفتيه ولسانه، فكان وجهه مثل جمجمة ضاكة ملطخة بالدماء.

لم يكن هو ذاك الرجل الوسيم، المنتصب القامة الذي عرفته، الرجل الذي أحببته وقبّلتُ كلَ زاوية في جسده بنشوة وشبق. فالذي أمامي كان كتلة من الدماء والأعضاء المشوهة.

ومن دون كلام، أمر بأخذ الفهد الصغير من أمامه، فتقدم أحدهم وجرَّ السلسلة التي برقبة الفهد الصغير. وغادر الصالة. أما هو فقد التفتَ

إلى الرجال الآخرين وقال:

قوموا بالواجب المعتاد.

صفّق أحدهم، فدخل رجلان يقودان كلبين كبيرين، أسودين، شرسين، من نوع الكلاب البوليسية الألمانية. يسيل اللعاب من جوانب فمهما ولسانيهما. وكانت أنيابهما المدببة الكبيرة مخيفة.

كان حبيبي في وسط الصالة وأنا على أحد جوانبها، حيث يقف رجلان إلى كل جانب مني. وفجأة أطلق الرجلان الكلبين الجائعين الشرهين، فأنقضا على الذي كان حبيبي.

هل رأيتَ مثل هذا المشهد؟

هل رأيتَ يومًا كيف ينقض حيوانان مفترسان بوحشية على فريستهما العاجزة المستسلمة.؟

كنتُ سابقًا قد رأيت مشاهد فيديو عن افتراس الأسود والنمور للغزلان، ومن أين يعضان فريستهما كي تستسلم، لكني لم أرَ كيف ينقض كلبان شرسان على إنسان ويلتهمانه..!

كم تمنيت لو أنهم أطلقوا الرصاص عليه قبل إطلاق الكلاب الشرسة نحوه لتنهشه. لكن مع الأسف كانت الوحشية البشرية في أقصى صورها التي يمكن تصورها.

أن تسمع بالأمر شيء وأن تراه بعينيك شيء آخر..!. كان الكلبان يعرفان كيف يفترسانه، فقد قفز أحدهما على رقبته وأنبت نابيه القاطعين في شريانه، فأنهار إلى الأرض ربما من الرعب أيضًا.

كنت أراه يحرك يديه ويرفس بساقيه محاولًا حماية نفسه. وكانت صرخات الألم الوحشي تتعالى منه وتهز القاعة والقصر. ورأيت كيف كان الكلبان الذكيان بالغريزة يعرفان طريقة النهش، فقد ظل أحدهما قابضًا على رقبته بأنيابه، بينما كان الكلب الآخر ينهش لحم فخذيه حتى برز العظم. وكذلك نهش عضلتي الساعدين. وشيئًا فشيئًا همدتْ حركته واستسلم لموته المرعب والمؤلم.

لقد رأيتُ كلَ شيء، كلَ شيء. رأيتُ كيف هشم أحد الكلاب جمجمته، وسمعتُ صوت تهشمها بين أنيابه، وكيف جرها فتناثر دماغه على البلاط، فأخذ يلتهم ما تناثر من مادة شبه مخاطية من دماغه. وكيف نهش الكلب الآخر بطنه، وشقها ومزق أمعائه.

رأيت كلَ شيء. رأيتُ كلَ شيء.

ولم تمضِ أكثر من عشرين دقيقة حتى لم يبق

من ذاك الذي كان حبيبي سوى بقايا غائط، وعظام ملوثة بالدماء ببعض اللحم. وتلافيف من الأمعاء والمثانةتلطخ بلاط القاعة.

إلى الآن وأنا ميتةٌ حيةٌ، استغرب شراسة وقساوة هؤلاء الناس. لقد كانوا جميعًا ينظرون إلى المشهد من دون تأثر أبدًا. وكأنهم ينظرون لمشهد من على شاشة التلفزيون، أو أنهم اعتادوا عليه من كثرة تكراره. لكني انتبهت إلى أن ابن الرئيس كان يحدّق في وجهي بتركيز طوال الوقت.

لم أكن أستطع الوقوف. فقد أدركتُ نهايتي. ولا إراديًا سال البول من مثانتي، سال من بين ساقيّ فأحاطتني دائرة البول. كان موقفي مخزيًا، لاسيما وأن ابن الرئيس لم يرفع عينه عني. وكان ينظر إلى رعبي وبولي على نفسي. كان ينظر إليّ وعلى وجهه ابتسامة مكشرة ساخرة. ثم قال لي بنبرة هادئة ومحايدة وبلامبالاة:

هل رأيتِ جزاء الخيانة؟ من يخونني هذا مصيره.

أنا لم أخنك أبدًا. تمتمتُ برعبٍ وتوسل.

صمتَ للحظات، وقال:

أعرف..ما يشفع لك هو أنك لم تذكريني

بسوء قط. هذا ما فهمناه منه، وما مسجل لدينا في الفيديوات والتسجيلات الصوتية الأخرى. لذلك لم ألق بك إلى الكلاب الجائعة. وأعرف إنك قدّمت لي خدماتٍ جليلة، ولام تخفي عني شيئًا من واردتك مع تلك الطبيبة، بل وسهّلت لنا الأمر بالتعامل مع بعض الشخصيات الخليجية والعربية التي تعمل هناك، لكن كونك ضعفتِ وفتحت ساقيك وفرجك لهذا الكلب كي يلعقه، فهذا أمر لن أغفره لك أبدًا. أنت ملكي ولا أحد يمس ما أملكه. والآن، ولأنك رأيتي كلَ شيء، وهذا غير مسموح لك به أبدًا، لذلك عقابك سيكون بأن أقتلع عينيك.

ذُهل آدم الحارس وأقشعرَّ خوفًا، وأشفق عليها لأنها رأتْ كل شيء، فسألها:

وهل اقتلعوا عينيك حينها فعلا؟

لا.. تلك الحاشية اللعينة، التي لا تعصي له أمرًا، عصوه قليلًا في هذا الأمر، أو لأقل بدقة أكبر، إنهم تأخروا في إنجاز العقاب.

كيف؟ سأل آدم الحارس.

لقد أبقوني في إحدى الشقق، وكانوا يتناوبون على مضاجعتي، بل كان يلجني يوميًا أكثر من عشرة منهم، وأحيانًا الواحد منهم يكرر مضاجعته

لـي ومـن كل الجهـات والثقـوب. لكـن ذات ليلـة، جاءوا وهـم يرتعشـون، وأخذونـي إلـى غرفـة جانبية، وحينهـا قـال لـي أحدهـم: «أشـفقنا عليك، ولـم ننفـذ العقوبـة، لكنـه سـأل عليك الليلـة، لـذا ليس أمامنـا سـوى تطبيـق العقوبـة». وكان هنـاك طبيبـان. ومـن دون تـخدير، تم اقتلاع عينـيّ.

ومـاذا جـرى بعـد ذلـك؟ سـأل آدم الحـارس مرعوبًا.

لا شـيء.. أخذونـي إليـه بينمـا الدمـاء تسيل مـن محجـري عينـيّ. هـل تصـدق، إننـي علـى الرغـم مـن اقتـلاع عينـيّ، وربطهمـا بالشـاش، كنـتُ أرى الصالـة كلهـا. كنـت أرى بعيـن الظـلام. لكـن حـدث مـا لـم يكـن بالحسـبان. فقـد قـال لـي ابـن الرئيـس: «لـن أقتلـك. بـل سـتقومين بواجبـك. تسـتمرين بمـا كنـت تقوميـن بـه، لكـن هنـا فـي بغـداد. سـنرّوج لـك باعتبـارك كاتبـة وشـاعرة ومؤلفـة عمياء، وسنشـبّهك بشـعراء وأدبـاء عميـان فـي تراثنـا الأدبـي. وأريـد منـك أن تأتينـي بهاتيـك المثقفـات، اللاتـي يشعرننـي بالنقص،كـي أضاجعـه. أريدهـن وهـن يلهثـن تحتـي ويتوسلنني بأن أخترقهن.

لـم أفهـم..!! ألـم تقولـي بأنـه عاجـز جنسيصا؟؟ سـأل آدم الحـارس.

نعم هو كذلك..لكن اسمع الحكاية وستفهم.. صرتُ قوادة للمثقفات. فهو لديه عقدة اسمها «الثقافة». كان يشعر بالنقص أمام كل مثقف أو مثقفة، أو أديب أو كاتب أو شاعر أو أكاديمي، لذا نصب نفسه عميدًا للمثقفين والصحفيين والأدباء في العراق. لكن كانت هناك شاعرة متميزة، جميلة، وأنثى مثيرة، هي التي كان يسعى إلى أن تكون تحته وتتوسله، علمًا هو يعرف بأنه عاجز عن مضاجعة أية امرأة.

وهل حققتِ له رغبته؟

وهل لديّ خيار آخر. لقد صدرتْ كتب شعرية ونقدية باسمي، كتب لا علم لي بها ولم أكتب منها حرفًا واحدًا. وكانت الصحفُ تنشر مقالات نقدية عن كتبي وإصداراتي، بل وصل الأمر إلى كتابة أطاريح ورسائل جامعية عني في الجامعات. وصارت تقام عني الندوات التي تقدم فيها البحوث عن جماليات شعري، بينما أنا لم أكتب حرفًا واحدًا.

صرتُ شاعرة وأديبة كبيرة. وصرتُ قبلة لكل من تريد الشهرة. صار بيتي مكتبة هائلة. ديكورات لمكتبة. وصرتُ أستضيف الأديبات والمثقفات في بيتي. ولكن الهدف كان الوصول

إلـى شـاعرة محـددة. هـي ابنـة لقائـد عسـكري معروف مقرّب من الأب – الرئيس....

وذات ليلـة جاءنـي بعـضُ مرافقيـه وقالـوا لـي بأنـه سـيزورني، وطلـب منـي دعـوة تلـك الشـاعرة التـي يرغـب بهـا. طلبـوا منـي أن أدعوهـا وحدهـا. وفعلتْ. وهل لي ألّا أفعل؟

وماذا جرى..؟ سأل آدم الحارس بلهفة.

صمتت المرأة قليـلًا، وكأنهـا تسـتعيد مشـهد مـا جرى، ثم واصلت:

جـاءت الشـاعرة. واسـتغربتْ حينمـا وجـدت نفسـها المدعـوة الوحيـدة، لكنهـا أدركـتْ كلَ شـيء حينمـا دخـل هـو إلـى الصالـة. واكتـظ المـكان بالحاشـية مـن مرافقيـن ورجـال أمـن. والحقيقـة، كان هـو لطيفًـا، ومهذبًـا فـي التعامـل معهـا. وبعـد قليـل مـن الحـوار، أخـذ يغـري تلـك الشـاعرة بالمناصـب الإداريـة والدبلوماسـية والماليـة، حتـى اطمأنـت لـه، بـل وأخـذت تتجـاوب معـه، فهـي ليسـت بالغبيـة، وكانـت مسـتعدة لتقديـم الثمـن، عرفـتُ ذلـك مـن خـلال خبرتـي كقـوادة. إذ أخـذت تتحـدث عـن اليونسـكو وأهميـة أن يكـون العـراق نشـطا فـي تلـك المنظمـة، بـل وتحدثـت عـن المركـز الثقافـي فـي إحـدى الـدول الأوربيـة، وكأنهـا تعلـن عـن رغبتهـا

في التعيين بتلك المناصب.

وكيف انتهت تلك الأمسية..؟

انتهت تلك الأمسية بنهايتي.

كيف؟

كانت تلك الشاعرة الجميلة طموحة فعلًا. ولم تفوّت تلك الفرصة، لذلك حينما دعاها إلى الطابق العلوي كي يتناقش معها حول مقترحاتها لبتّ دعوته بفرح وعدم اعتراض، وصعدا كلاهما إلى غرفة نومي الواسعة.

كان هو في تلك الأمسية يتكئ على عصا من الخيزران الصقيل. وكان يسخدمها أحيانًا بعد أن شفي من محاولة اغتيال تعرض لها. المهم. مرَّ بعضُ الوقت وأنا كلي توجس وانتظار، فأنا أعرف أنه عاجز جنسيًا ولا يستطيع أن يفعل شيئًا، وجلّ ما يمكنه هو استخدام لسانه في اللحس وأصابعه في الإيلاج. لكن فجأة، سمعنا صرخة ألم عالية جدًا. وهمد بعدها كل شيء.

ماذا جرى؟ سأل آدم الحارس.

لم يتحرك أحد من الحاشية، بل بعد قليل، نزل هو وغادر المنزل مسرعًا، لكني انتبهت إلى أنه نزل من دون عصاه، فقد كان يتكأ على حاجز السلّم.

صمتتْ المرأة قليلًا، فسألها آدم الحارس:
وكيف كانت تلك الأمسية نهايتك؟

حين عجز عن مضاجعة تلك الشاعرة الجميلة، حاول اخترقها، بكل قوة وشبق، بعصاه الغليظة الملساء الصقيلة. فشق رحمها وأخترق أمعائها، فماتت على الفور.

أما أنا، فما أن غادرَ وغادرتْ الحاشية، حتى رجع اثنان منهم، ورشاني بسيل من الرصاص، ثم أجلساني على كرسيّ هذا، في صالون بيتي.

وماذا جرى بعد ذلك؟

لا شيء.

لا شيء

نعم.. لا شيء.. لقد استمرتْ بغداد بحزنها سادرة في هذا الكابوس المرعب المخيف، الذي لم يتوقف قط.

كانت المرأة قد صمتت وأنهت رواية حكايتها، لكن فجأة، اكفهر وجه المرأة. وارتعشتْ شفتاها. وتراجعتْ للوراء مرعوبة، حتى كادتْ تنقلب هي وكرسيها، لكن آدم الحارس، قبل أن تتراجع، رأي في ظلام محجريها رأس أفعى هائلة تريد الانقضاض عليه من الخلف.

صرختْ المرأة في اللحظة التي همّت الأفعى أن تنقضّ فيها على آدم الحارس من الخلف، وهي تقول:

اَخفُضْ رأسك..

ومن دون أن يلتفت آدم ليرى ما خلفه تربع على الأرض مع الصبي. فارتطم رأس الأفعى بقضبان النافذة وانحشر قليلًا بين قضيبين، بل دخل الرأس بين القضيبين من شدة الانقضاض، فلا هي تستطيع سحبه وتحريره ولا أن تدخل أكثر عبر القصبان الحديدة الضيقة المسافة لضخامة جسمها.

استغل آدم الحارس محاولة تحرير الأفعى لرأسها من بين القضيبين، فقفز إلى جانب النافذة، مبتعدًا عن النافذة، فهاله ما رأى. كانت أفعى هائلة من نوع الأناكوندا، ملتفّة بطريقة دائرية لكنها قفزت لاقتناص رأسه، فانحشر رأسها بين قضيبي النافذة، ولأنها لا تستطيع سحب رأسها، لذا بدأت تفك من حلقاتها والتفافها حول نفسها.

مسكَ آدم الحارس بيد الصبي آدم وأخذا يركضان في النفق المظلم بسرعة هائلة وهما مرعوبان من رؤية الأفعى. فجأة، لم يستطع

الصبي آدم من المشي. أحس بما يشبه الشلل في ساقيه، ولم ينتبه آدم الحارس لذلك، إلا بعد أن شعر بأنه يسحل الصبي الصبي آدم الصغير سحلًا.

وفي الظلمة رفع آدم الحارس الصبي واحتضنه وحمله وواصل الركض. ومن شدة رعبه لم يشعر بالتعب إلا بعد زمن لا يعرفه قط. لكنه كان واضحًا بأنه قد قطع مسافة طويلة في النفق المظلم.

توقفا عن السير بعد أن أحس بأن قدميه لا تستطيعان حمله للسير أبعد. اتكأ بظهره على الجدار محتضنًا الصبي آدم. فجأة أحس بعبء وجود الصبي آدم الصغير معه، لكنه في الوقت نفسه قال محدثًا نفسه:

«إن وجود الصبي آدم الصغير يعني إنني موجود، فحين غادرنا المشرحة كان السؤال الذي يشغلني هل أنا حي أم ميت؟ لكن الآن ما يشغلني هل أنا موجود أو لا!؟ وجوده يحسسني بأنني موجود..! لكن كيف يتحقق الوجود؟ الموتى موجودون أيضًا. أجسادهم.. جثثهم باقية، وحتى إن تحلّلتْ فأنها تتحول من حالة إلى أخرى، من مكونات كيماوية- فيزياوية إلى أخرى. يعني

الإنسان الميت لا يختفي في العدم، وأنما يبقى موجودًا، وماهيته تبقى منفصلة عن وجوده. الروح هي التي تختفي..!».

وعلى الرغم من الوضع الذي هو فيه، لكنه ابتسم من نفسه ساخرًا وهو يقول لها:

بأية حال أنا، بينما أتفلسف عن الوجود والماهية..!! لكن كيف جاءت هذه الأفعى الأواكاندا إلى هذا النفق المظلم..؟ وإلى أين ذهب الزومبي، وحشود الجرذان هائلة الحجم؟ وإلى أين يقود هذا النفق المظلم؟ ومتى سأخرج منه؟

ومن دون أن يتعب ذهنه بمزيد من الأسئلة التي لا إجابات لها سار بخطى وئيدة في النفق المظلم.

(5)

تداعيات آدم الحارس

ظل آدم الحارس والصبي آدم يمشيان في ظلمة النفق. جلسا عند حافة الجدار بعد أن شعر آدم الحارس بأنه يحتاج إلى الراحة، لاسيما وأن الصبي كان يبدو وكأنه أُنهك من التعب، فجلسا. ويبدو أنهما أطالا الجلوس عند الجدار. فجأة، فز كلاهما، على ضوء ساطع قادم من أعماق النفق وصوت سيارة مسرعة مرت من أمامها من دون أن ينتبه أحد فيها إلى وجودهما.

استغرب آدم الحارس مرور السيارة المسرعة. فكّر مع نفسه بأن «النفق يقود إلى مخرج بالتأكيد، فمن أين دخلتْ هذه السيارات؟ وإلى أين تمضي؟ المهم هناك مدخل أو مخرج في نهاية النفق.». وهذا ما منحه شيئًا من الأمل، لكنه قال في نفسه أيضًا: «لكن لا أمل للموتى. الأمل للأحياء. أما الموتى الأحياء فلهم اللانهاية..!».

بعد أن اختفتْ السيارة في الجهة الأخرى،

وتلاشت في الظلام وكأنها لم تكن، واصل آدم الحارس، وهو ممسك بكف الصبي آدم الصغير، سيره في أعماق النفق.

من بعيد لاحت له أضواء تتوهج وتختفي، فأسرع في سيره لأنه يعرف عند كل نقطة ضوء ثمة حكاية جديدة تنتظره. لكنه، كلما كان يقترب يدرك بأن نقاط الضوء لا تزال بعيدة أو تبعد وكأن هناك من يبعدها قصدًا.

فكّر مع نفسه، لربما تأتي من قبل هؤلاء الذين التقاهم في بداية النفق بشارع المتنبي، والذين تركوه وتوغلوا في النفق، هؤلاء الموتى بلا قبور..!

فجأة، ومن دون أن يعرف كيف حدث ذلك، وجد نفسه مع الصبي على بعد أمتار من نقاط الضوء. وكأنهما لعبة على شاشة كمبيوتر تم رفعها ووضعها قرب نقاط الضوء..!.

في تلك اللحظة خطرت في ذهنه الفكرة نفسها وسأل نفسه: «ربما نحن مجرد لعبة كمبيوترية بأيدي كائنات أخرى!! تفعل بنا ما تشاء وتنقلنا أو تلغينا أو تضعنا في أماكن غريبة خلال ثانية واحدة لا أكثر. وأن كل ما يجري هو مجرد وهم في وهم، وإننا نيام في بعد آخر من

الزمن والوجود أو كائنات افتراضية في لعبة كمبيوترية كونية هائلة..!».

ظل آدم الحارس مستغرقًا في أفكاره. أحس بعجزه عن إيجاد إجابة عن أي من تساؤلاته. ظل جامدًا في مكانه ولم يتقدم نحو فرجات الضوء التي صارت قريبة. وعلى الرغم من يأسه في إيجاد إجابة على تساؤلاته لكن راقه أنه يفكر، فهو يجد متعة في التفكير، بل يتذكر راسكولنيكوف الذي قال إن مهنته هي التفكير.

كان في حخيرة من أمره. أيتقدم أم لا؟ تنحى جانبا عن وسط النفق وجاء إلى الجانب، إلى جدار النفق. اتكأ بظهره على الجدار وإلى جانبه الصبي آدم الصغير. وشيئًا فشيئًا أخذ ينزل بجسده إلى الأسفل حتى تقرفص في جلسته وظهره إلى الجدار. وكذا فعل الصبي آدم الصغير.

كان آدم الحارس يستمتع بالتوغل في أسئلته عن معنى الحياة. ووجد نفسه في منولوج داخلي: «ما معنى الحياة؟ ما مغزى دورة الحياة هذه؟ لماذا جئنا؟ ولماذا وجد الوجود؟ ولماذا الحياة ليست سوى رحلة قصيرة بين الولادة والموت..!

(في بدايتي نهاتي..!) هكذا قال الشاعر ت . إس. إليوت. أو كما قال هيغل بأنه في لحظة

الـولادة يبـدأ العـد التنازلـي للحيـاة نحـو لحظـة المـوت..! فـي كل بدايـة تكمـن النهايـة، وفـي كل نهايـة هنـاك بدايـة جديـدة. وإذا مـا كانـت الـولادة تنتهـي بالمـوت فـي دورة الحيـاة، فمنـذ لحظـة الموت تبدأ اللانهاية.

مـرةً قرأت لأحدهـم، أعتقـد ديورانـت، يقـول بمـا معنـاه إن الإنسـان بالنسـبة لِعالِـم الفيزيـاء ليـس سـوى حزمـة مـن الجزيئـات أو الـذرات والألكترونات والبروتونـات، بينمـا هـو بالنسـبة لعِالِـم فـي الأنسـجة مجـرد ترابـط بيـن العضـلات والعظـام والأعصـاب. وبالنسـبة إلـى الطبيـب فهـو كتلـة حمـراء مـن الأمـراض والآلام. وبالنسـبة إلـى عالِـم النفـس، فهـو كتلـة مـن العقـد والموروثـات الواعيـة وغيـر الواعيـة، تقـوده غريـزة الجـوع والجنـس، لـذا فـأن أي تصـور للإنسان عن نفسه مجرد وهم من الأوهام.

لكـن هـذا المفهـوم عـن الإنسـان والحيـاة هـو حيـاة هـذا الجسـد. بيـد إن الإنسـان ليـس جسـدًا فقـط..! فعلـى مـدى تاريخـه أطلـق هـذا الكائـن البائـس آراء وأفـكار ونظريـات عـن الإرادة والحريـة وطـرح أسـئلة عـن الخالـق القديـر، وعـن الكـون والوجـود والماهيـة والكينونـة. وتوغـل فـي أعمـاق الكـون. ووصـل إلـى لحظـة الخلـق والانفجـار

العظيم..! فهو ليس مجرد أوشال ودم وبول غائط وغرائز نهمة وعقد نفسية غامضة وأنما هو عقل مفكر جبار.

بلى.. لكن هذا الكائن مع كل جبروت عقله فهو لاشيء أما العقل الكوني. كذّب من أعتقد بأن الإنسان أعلى مرحلة من مراحل التطور الكوني. الحياة البايولوجية ليست هي الشكل الوحيد للحياة، فحتى بعد الموت الجسدي، تستمر الحركة والتحولات في الجسد، حيث يتعفن ويتفسخ ويتحول. أي الحياة تستمر بأشكال أخرى.

الإنسان كائن منافق، بائس، منحط، نتن، ظلوم، عاجز، كذاب، حسود، حقود، منتقم، ماكر، ومع هذا فهو متكبر جدًا. هو أقسى المخلوقات. ما سمعته من الرجل المتفحم، ومن الرجل مفقوء العينين ويحمل شمعة، والقوادة الأديبة، يكشف عن قساوة هذا المخلوق المنحط الذي يعد نفسه سيد الأرض، علمًا أن كل سكان الأرض من البشر لا يتجاوزون بضعة مليارات، بينما الأشجار تشكل عشرات المليارات وكذا الحيوانات بكل أنواعها أضعاف مضاعفة قياسًا لأعداد البشر..!

في إحدى رسائل أخوان الصفا أُجريتْ

مفاضلة بين الكلاب والقطط والبشر، وقد قدّمتْ الكلابُ مداخلاتٍ هائلة ومنطقية وعقلية في أفضليتها على البشر، لكن أخوان الصفا في تلك المحاججات انحازوا للإنسان باعتبار إن اللّه خلق الإنسان على صورته، وهو خليفته في الأرض!!.

أترى صورة اللّه هي تشبه صورة الإنسان؟؟ هل الخالق محدد الجسد كالإنسان؟ إذا كان كذلك فهل هو ذكر أم أنثى أم خنثى؟ وإذا ما كان آدم هو الإنسان الأول، فلمن يرسله الخالق إلى الأرض ليكون خليفته، بينما الأرض خالية من البشر، بل مكتظة بمليارات الأشجار والحيوانات من الديناصورات إلى الأسود والنمور والدببة والحيتان والأفاعي والأواكوندا، ولم يكن هناك أي إنسان ؟؟

وإذا كان الخالق القدير قد قدّر بأن تكون هناك بشرية فلمذا عاقب آدم بالطرد من الفردوس واعتبر ما فعله خطيئة؟ لمذا افتعل القدير قصة الخطيئة ما دام هو أراد أن يجعل في الأرض خليفة؟. لقد قال الرب إجابة على اعتراض الملائكة بأنه يعلم ما لا يعلمون، فمن أين لإبليس أن يعرف ما سيقترفه آدم وذريته؟ ومن أين يعرف بأنه ستكون له ذرية أصلا؟ وإلا

كيف يحاجج إبليس الرب بأنه سيغوي البشر؟. ولماذا يقسم الرب بأنه سيملأ جهنم ممن يتبع إبليس؟ أيعني أن الرب القدير قد خلق جهنم قبل أن ينزل آدم إلى الأرض؟

أيعني أنه قدر مسبقًا من سيدخل جهنم ومن سيعيده إلى الفردوس؟ وما ذنب هؤلاء الذين كتب الرب عليهم بأن يدخلوا جهنم؟ أليست هذه قسمة ضيزى؟

ثم إن اللّه يغفر الذنوب كلها إلا الشرك به..!! واللّه القدير قد أعطى إبليس وعدًا إلى يوم الدين كي يحاسبه!! طيب..ما دام اللّه يغفر كل الذنوب إلا الشرك به، فأن إبليس أصلا من أكبر الموحدين، بل هو لم يسجد لآدم لأنه لا يسجد إلا للّه، فكيف سيحاسبه ولا يغفر له؟؟

ثم دعني من كل هذه الأفكار الخطيرة، ولأفكر في نفسي.. أنا نفسي مَن ؟ مَن أنا؟ وهل حياتي التي عشتها وأعيشها الآن هي حياة؟ أنا كنت ميتًا في الحياة وها أنا حي في الموت!

أية حياة حقيرة عشتُ..! بؤس وحرمان، ولولا الكتب والأفلام والموسيقى لما وجدتُ معنى لوجودي؟ ولكن هذا بالنسبة لي، فهناك من لا يقرأ ولا يستمع للموسيقى ولا يشاهد الأفلام!

ربما حياته تدور بين الأكل والتغوط والجنس..!وربما لا يتعب نفسه بالأسئلة والتفكير؟

بل حتى أنا لا أستطيع التخلص من حيوانيتي..! ومن الجيد أنني الآن لا آكل ولا أتبول وأتغوط..! هل أنا إنسان الآن أم جثة تمشي؟ هل أنا روح أم شبح؟ لماذا أعذب نفسي بالتفكير والأسئلة؟ ما هذا الوعي الشقي الذي يجتاحني.

لأحاول إيقاف التفكير وصد الأسئلة، فلا شيء في جوهر سؤال الوجود سوى الولادة، والتوهج، ثم التفسخ والهرم، وبعد ذلك الانحلال والموت. لكن هل أن ما بعد الموت هو اللانهاية؟ ولماذا وجد الموتُ أصلا؟ بل لماذا وجد الوجود؟.

ثم لماذا أنا مشغول بذاتي؟ لقد ولدت ونشأت مئات الحضارات بل آلاف الحضارات البشرية لكنها اندثرت واختفت وكأنها لم تكن أصلا، إلا بعضها..أقصد الحضارات الحجرية، ولولا الحجر لما عرفنا شيئًا..! كما وُجدتْ عشرات السلالات من الجنس البشري واختلفتْ وتقاتلتْ وسحقَت إحداها الآخرى، مثلما دمّرتْ كل حضارة الحضارة التي سبقتها..!

لماذا نرى أن بعض الحضارات الموغلة في القدِم لديها إنجازات مذهلة محيرة للعقل، أكبر

من كل تقدمنا التقني، بل ظلت لغزا محيّرًا بالنسبة لنا في كيفية تحقيقها، كالأهرامات مثلًا، أو دخول الشمس إلى أعماق معبد أبوسمبل يوم ميلاد الفرعون، أو تعقيد وغرابة بناء بعض المعابد الهندية والكمبودية، سور الصين بطوله، أو رياضيات ومعابد المايا..!. بل، أين تلك الحضارات الأسطورية؟ كالسومرية، والأكادية، البابلية والأشورية، والإيلامية والأوغارتية، أين اختفت؟ وما هي حقيقة حضارة الأطلنتس..!

بل، لماذا كان أرسطو يؤكد بأن كل ما نراه هو تكرار وتغيير عابر وسطحي، مجرد تغيير وتحول في الوسائل والأشكال، أما الجوهر فهو نفسه..!؟

كيف ياتُرى يكو ن كل شيء مجرد تغيير..! وماذا عن المركبات الفضائية التي وصلت إلى الكواكب الأخرى؟ أنحن ندور في حلقة دائرية مغلقة أم نسير إلى الأمام كالسهم..!؟

الشك وحده يقودنا إلى اليقين.

هل الحضارات هي الوجه الآخر المُحسّن والأنيق للوحشية والعنف الدموي والاستبداد!؟ ولماذا نفسر ما نسميه معالم حضارية وننسى جانبها المظلم..!؟ أليستْ الأهرامات هي تجسيد للعبودية المخيفة والاستبداد الوحشي الذي دفع

بعشـرات الألـوف مـن البشـر علـى مـدى عشـرات السنين لبناء قبر ومدفن للفرعون؟

كـم ياتُـرى مـن العبيـد ولـدوا، كبـروا، عملـوا، هرمـوا، ثـم ماتـوا وهـم لا يعرفـون سـوى حمـل الصخور وصفها، وهـم يبنـون الأهرامـات، أو معابـد المايـا المدرّجـة أو المعابـد الهنديـة الغريبـة التصميم..!؟

الحضـارات، بـكل عظمتهـا، دليـل آخـر علـى وحشـية الاسـتبداد البشـري والقـوة الغاشـمة وعبوديـة البشـر..!.. العلـم.. العلم وحـده، والتجربـة العلميـة، المختبـرات، هـي معبـد الإنسـانية الحقيقي.

التاريـخ، التاريـخ الحضـاري للبشـر ليـس سـوى متحـف للعنـف الوحشـي والاسـتبداد المهيـن والقـوة الطاغيـة العميـاء.! التاريـخ، هـذا العـبء الثقيـل، الكابـوس، الـذي يعكّـر صفـو الواقـع الحاضـر، والـذي يخلـق لدينـا أزدواجيتنـا الشـخصية مـن خلال كل ما يتغلغل فينا لاإراديًا. وإراديًا.

هـذه الشـواهد التـي نسـميها حضاريـة هـي ليسـت سـوى متحـف لمخلفـات العنـف والوحشـية، والدمـار والسـقوط الأخلاقـي. لكـن هـل يمكنـا أن نعيش من دون التاريخ؟ التاريخ ذاكرة.

نحن من دون تاريخ نبقى بلا ذاكرة. ومن دون التاريخ لا وجود للأخلاق، فالأخلاق زبدة من مفاهيم وقيم وأحكام وصلتنا من الماضي. تمت صياغتها من قبل غيرنا ووصلتنا كأحكام، وكقيم، وما الأحكام سوى خلاصة تجريدية لتجارب خائبة، أو ردود فعل على خيبات تاريخية كبرى.

ومع أن هناك صفحات بيضاء لكنها مجرد صفحات وسط مجلدات من الكتب السوداء التي تؤكد سقوط البشر الأخلاقي في دوامة العنف والطغيان والوحشية، وأكبر دليل على هذا السقوط هو الأسلحة، فالأسلحة وحدها هي التجسيد الحقيقي لتطور البشرية المخيف، فمن الحجارة إلى العصا، ثم السهام والسيوف، الرماح، ومن الهجوم الفردي إلى الهجوم الجماعي، فمن هجو م فرد على فرد إلى هجوم عائلة على عائلة، إلى هجوم عشيرة وقرية إلى على أخرى، ومن هجوم مدينة على أخرى، ثم هجوم بلاد على أخرى، ثم بلدان على بلدان..!! ومن الهجوم الأرضي إلى الهجوم البحري، وأخيرًا الهجوم الجوي والفضائي.

من الرماح إلى السيوف، إلى البارود، إلى البنادق، إلى المدافع، إلى الدبابات، ثم إلى

الطائرات، وبعد ذلك القنابل النيوترونية. تقدم البشر يتجلى في تقدم الأسلحة.!.

لكن مالي وأنا في هذا النفق المظلم أفكر بكل هذه الأشياء؟ الأَولى بي أن أفكر أين أنا؟ بل ومن أنا؟ أأنا كائن تاريخي؟ لا. الإنسان صانع نفسه وصانع التاريخ. ورغبته في البقاء هي التي دفعته إلى العمل، وإلى البحث عن الغذاء، وإلى الصيد، والزراعة، وإلى القتل، والحروب.

أنا الآن لا آكل ولا أشرب..! أنا كائن لا تاريخي..! لكن ما زالت لدي الرغبة في البقاء..! لا أريد الفناء..! تلك هي الحقيقية وإلا ماذا أفعل هنا؟ ولماذا أهرب وأتخفى من الزومبي؟ ومن الأواكوندا، والفئران الهائلة الجحم والمدججة..؟رغبتي بعدم الفناء هي حقيقة؟ لكن ما هي الحقيقة؟

الإغريق هم الذين فصلوا بين الحقيقي والمزيف، بين المعقول والمحسوس، كي يحسموا الأمر بوجود حقيقة مطلقة، بينما جاء آخرون وقالوا إن الحقيقة ليست سوى تطابق بين الموضوع والفهم..!

فكلما فهمنا الواقع اقتربنا من الحقيقة.! لكن فهمنا قاصر ونسبي، أي أن الحقيقة التي نكتشفها

تبقى قاصرة ونسبية وذاتية..!، وكل ما نصوغه عنها من معرفة ومفاهيم تبقى معرفة مزيفة وناقصة.

لكن أليس من المثير للسخرية أن أنشغل أنا، آدم الحارس، الميت الحي، أو الحي الميت، بكل هذه الأفكار بينما أنا قابع في ظلمة هذا النفق الغامض؟ لماذا لا أسأل نفسي بأنني أفكر في أمور تخص البشر البايولوجيين، اللاهثين وراء الأكل والجنس والمحكومين بالتغوط..!؟

نعم البشر كائنات بايولوجية محكومة بضرورات التبول والتغوط، حالها حال أي حيوان. قد يستطيع الإنسان أن يصوم عن الطعام والشراب لفترة، لكنه لا يمكنه ألا يتبول ويتغوط مع أنه صائم أو مضرب عن الطعام والشراب..!

ثم أن الإنسان يمكنه أن يحدد نسبيًا متى يأكل، لكنه لا يقرر متى يتغوط أو متى عليه التبول..! قانون التغوط والتبول يحكم حياة الإنسان..!

الموتى الأحياء والموتى عموما لا يتغوطون ولا يبولون..! أتذكر ثمة كاتب مجنون كتب رواية بعنوان «متاهة قابيل» وعنون أحد فصولها، وهو يتحدث عن الأرض، بأنها «كوكب الخراء»..!

آخ من التفكير؟ الموتى لا يفكرون فهم سادرون في النوم الأبدي. الموتى الأحياء وحدهم من يفكرون. لكن دعني من كل هذا، إذ عليّ أن أفكر كيف أخرج من هذا النفق المظلم؟ ومتى تنتهي رحلتي فيه؟ ثم...، من تُرى بنى هذا النفق؟.

أنا ولدتُ في بغداد لكني لا أعرف بوجود هذا النفق المظلم قط..!!؟وبما أنه تم بناء جدرانه من الأسمنت والحجارة الصلدة، فكيف لم يضاء بالكهرباء ولم توضع فيه علامات إرشاد؟ أترى هناك سجون سرية في هذا النفق؟ ثم إلى أين اتجهت حشود الزومبي؟ وكيف دخلت أفعى الأواكوندا المخيفة إلى هذا النفق؟ ومن أين جاء قطيع الذئاب!!

قطع عليه تداعياته صوت أنثوي قام من منطقة الضوء المتلألئ المتذبذب:

هل هناك أحد؟

وكما جلس القرفصاء وهو متكئ بظهره إلى الجدار هكذا صعد بجسده وظهره إلى الجدار. وحين صار واقفا تحرك نحو بقعة الضوء.

(6)

سرداب حواء الضائعة

هل هناك أحد؟

اقترب آدم الحارس، فوجد بابًا صغيرًا بدرفتين تتحركان بسهولة للداخل والخارج كما في الحانات التي كان يراها في أفلام الكابوي.

وقف مع الصبي أمام الباب مترددًا، أيدخل أم يواصل طريقه..؟!. هيمن السكون على المكان. سمع الصوت الأنثوي مرة أخرى، وكأن صاحبة الصوت انتبهت لوجودهما:

هل هناك أحد؟ تقدم أيها الواقف هناك؟

ظل آدم الحارس والصبي شبه مشلولين في مكانهما. فكّرَ آدم الحارس بأنه ربما إذا ما دخل إلى ذلك المكان الغامض ستنطبق الجدران ويسجن هناك، لذلك عليه ألّا يدخل أو عليه أن يتحدث معها عن بعد. لكنه سأل نفسه: تُرى من هي؟ وكيف تبدو؟ وما هي قصتها؟ كيف هي في هذا المكان ذي الباب المفتوح ولا تغادره؟ ألا تخاف؟.

من هنـاك؟ تقـدم أيهـا الـواقـف هنـاك. لا تـخـف. أنت في مشرحة بغداد..!

صُـدم آدم الحـارس بمـا سـمعه منهـا. وتـردد صـدى جملتهـا فـي نفسـه: «لا تـخـف. أنـتَ فـي مشـرحة بغـداد»..!؟. تقـدم خطـوة وهـو يقبـض علـى كـف الصبـي آدم الصغيـر. لـم يدخـل. وأنمـا وقـف أمام الباب المتحرك المفتوح.

مَن هناك؟

صمت آدم الحارس للحظات، ثم تمتم بارتباك:

أنا..أنا آدم الحارس..

هل أنت حارس أم لقبك الحارس؟

لا ..أنا آدم حارس مشرحة بغداد.

حـارس مشـرحة بغـداد؟ أيـة مشـرحة؟ أنـا هنـا في حانة الانتظار التابعة لمشرحة بغداد.

أحـسَّ آدم الحـارس بالخـوف يتلاشـي شـيئًا فشـيئًا عـن نفسـه. ووجـد نفسـه مشـغولًا بقضيـة المشـرحة، فقـد مـر بأماكـن أخـرى تحمـل اسـم مشرحة بغداد، فقال لها:

لكن المشـرحة موجودة فـي بـاب المعظم وليس هنـا فـي هـذا النفـق الغامـض، لاسـيما وأنـا وجـدتُ فـي هـذا النفـق أماكـن مختلفـة كلهـا تحمـل اسـم «مشرحة بغداد»..!؟

تعالت ضحكة فيها شيء من السخرية، وجاء تعليق الصوت الأنثوي:

بغداد كلها، بل العراق كله مشرحة كبرى. الأوغاد جعلوا البلاد مشرحة كبرى. أنّى توجهتَ فأنتَ في مشرحة بغداد.

صمتَ آدم الحارس، فقد وجد أن في كلامها شيء من الحقيقة، مع المبالغة في الاستعارة. ووجد نفسه يسأل:

كيف جئتِ إلى هنا؟ ومن أنتِ؟

جاء الصوت الأنثوي دافئًا:

تقدم.. لا تخف.. أتريد أن تعرف حكايتي وكيف جئتُ إلى هذه المشرحة؟ لا تخف تقدم.

أنا لستُ وحدي..!

ماذا تقصد؟

معي صبي اسمه آدم الصغير.. ترَكَته جدّته في مشرحة بغداد بعد أن هربتْ مع من هرب من الجثث الحية هناك. وهو معي الآن..فلا أحد لديه غيري.

يا للمسكين... تقدمًا إذن..!

تقدم آدم الحارس وهو يقود الصبي آدم نحو الباب ودفع أحد درفتيه ودخل، لكنه وقف عند أول خطوة بعد الدخول.

فوجئ آدم الحارس. كان المكان مختلفًا. كانت غرفة عارية من كل شيء. زنزانة اسمنتية الجدران، فارغة، وعلى جانب منها سرير طبي إلى جانبه طاولة عليها أدوات طبية جراحية، أنواع المشارط، والمقالع، وجرافات طويلة، وإبر كبيرة الحجم، وبدت تلك الزاوية وكأنها مكان لإجراء عمليات جراحية أو للتعذيب.

وما أن نظر إلى المرأة حتى جفل وارتدّ للوراء. كانت امرأة في بداية الثلاثينات، لكنها مقتلعة العينين أيضًا. حفرتان غائرتان مظلمتان وواسعتان تحتل مساحة وجهها الذي يشير إلى جمال صاحبته في حياتها الاعتيادية. بل إن المحجرين الفارغين كانا أوسع مما يفترض أن تكون العينان وهما يحتلان مساحة كبيرة من وجهها، وكأن فراغ محجريها يذكر بالصور الافتراضية لمخلوقات الفضاء التي شاهدها في الأفلام.

كانت المرأة تجلس على كرسي حجري. والغرفة تبدو وكأنها زنزانة في قلعة حجرية قديمة. وعلى جدران المكان مواضع علقت فيها ما يشبه المقابض التي وضعت فيها شموع متقدة. لكن الشموع لم تستطع أن تزيح عتمة

المكان بالكامل، فالضوء التي تمنحه للمكان كان شاحبًا. وبدتْ المرأة المفقوءة العينين شاحبةً أيضًا.

ارتعش الصبي آدم الصغير حين رآها، فتشبثَ بذراع آدم الحارس من دون أن يقول شيئًا. ووجد آدم الحارس يسألها بتوجس:

كيف وصلتي إلى هنا؟

أنا التي أريد أن أسألك. كيف جئتَ أنتَ إلى هنا..؟ أنا لم أرَ غير الجلادين والقتلة.

أنا لا أعرف كيف جئتُ إلى هنا. كل الجثث هربتْ من المشرحة، ولم يبق فيها غيري وغير الصبي آدم، فغادرنا المشرحة. وحين كنت في منطقة الميدان رأيتُ فصيلًا من الجرذان الكبيرة كالخرفان، لكنها مدججة..وحين وصلنا شارع المتنبي هجمت عليه وقضمتْ كل الكتب التي تمتلئ بها المكتبات هناك. هربنا أنا والصبي آدم، فوجدتُ زاوية هناك، فتحة تشبه النفق، فلذتُ إليها وهناك رأيت بعض اللائذين والمختفين فيها، ووجدت نفسي في نفق مظلم. ومنذ ذلك الحين ونحن نمشي في هذا النفق الغامض من دون أمل في الخروج منه، ويبدو لي أنه لا أمل لدينا للخروج من هذا النفق المظلم

الذي نسير فيه.

فقاطعته المر أة مباشرة وكأنها كانت تعرف ما رواه أو ما سيرويه، وقالت وهي تطأطأ رأسها:

لا أمل للموتى، الموتى لا ينتظرون شيئًا! وكما ترى.. ها أنا أجلس هنا في حانة الانتظار منذ سنين، لكني لا أنتظر شيئًا أبدًا، فلا شيء يحدث ولا أحد يجيء.

لكن كيف جئتِ إلى هنا؟

رفعتْ المرأة رأسها إليه وكأنها تراه بمحجري عينيها وقالت:

أنا لم أجيء إلى هنا بإرادتي، إنما وجدتُ نفسي هنا.

كيف؟ سأل آدم الحارس.

أنا حواء الضائعة. الضائعة لقب أطلقته على نفسي لأنني ضائعة فعلًا. نشأتُ في عائلة يسارية الفكر، تؤمن بالعدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروات، مع أنها عائلة متوسطة الحال، وميسورة الحال بالقياس إلى شرائح أخرى من المجتمع.

كان والدي يساريًا، واُعتقل في سجون نقرة السلمان بعد الانقلاب على زعيم البلاد في بداية الستينات. كنا ثلاث بنات وأخوان اثنان. حين

كنتُ صغيرة، في السادسة، كنت أذهب مع أمي لزيارة أبي في السجن البعيد القابع في عمق الصحراء. كان أبي يحب أن يراني في كل زيارة على خلاف أخواتي وأخوتي الذين كان يسأل عنهم ويتابع أخبارهم، لكنه كان يصر على أن يراني.

كانت كل زيارة هي رحلة مرهقة لأمي ولي أنا التي أصطحبها دائما. تلك الزيارات شكّلت نبعا لذكرياتي عن الناس والبلاد.

كل الرحلة من بغداد وصولًا إلى تلك المدينة التي على مشارف الصحراء كانت رحلة غنية بالناس والوجوه. ثم الرحلة من تلك المدينة وصولا إلى السجن وقلعته الشهيرة رحلة أخرى مليئة بالخوف والكوابيس التي شكلت اللبنات الأولى لتصوراتي السياسية وأيضا لتعلقي الشديد بأبي.

لكن حدث ذات مرة. وفي إحدى الزيارات حين طلبنا رؤية والدي، لم يحضر، بل أخبرنا المسؤول في السجن بأن والدي توفي متأثرًا بوباء تفشى بين السجناء ولم يستطع جسده مقاومته فمات. وتم دفنه في الصحراء. وحينما طلبنا زيارة قبره تردد المسؤول كثيرًا وقال بأن

الأمـر ممنـوع، لكـن أحـد الحـراس هنـاك أخبرنـا بأنهـم وجـدوا القبـر منبوشًـا، فربمـا أكلتـه ذئـاب الصحـراء.

زياراتـي مـع أمـي لذلـك السـجن سـاهمت فـي تشـكيل عالمـي النفسـي، فنشـأتُ وأنـا حاقـدة علـى السـلطة، ومتعطشـة للحريـة. لكـن بالنسـبة لأختـيّ وأخـويّ فقـد كانـوا فـي عالـم آخـر، لاسـيما أن أمـي تزوجـت مـن ابـن خالتهـا الـذي يكبرهـا بعشـر سنوات بعد أشهر من وفاة أبي.

زوجهـا كان متشـددًا فـي أمـور الديـن بجهـل وتعصـب. وكانـتْ أمـي، مـع كل الفـارق فـي التعامـل والتفهـم والحريـة بيـن زوجهـا الأول الـذي هـو أبـي وزوجهـا الجديـد، إلّا إنهـا كانـت تسـتعطفة وتتذلـل لـه، فقـط مـن أجـل أن يرضـى عنهـا وينـام معهـا، فكأنهـا أرادت أن تعـوض سـنوات الحرمـان الجنسـي التـي عرفتهـا حيـن كان أبـي فـي السـجن، لـذا لـم تعتـرض علـى طريقتـه المتشـددة والمبالـغ فيهـا دينيًا سواء معها أو في تعامله معنا.

حيـن كنـتُ فـي التاسـعة، فاجأتـه فـي موقـف مشـين، فقـد رأيتـه يتلصـص علـى أختـي الكبيـرة وهـي فـي الحمـام، حيـث كان مقرفصًـا وينظـر مـن ثقـب مفتـاح البـاب، إذ كنّـا قـد فقدنـا المفتـاح وصـار

لزاما إغلاق الباب برتاج صغير من الداخل. وحين أخبرت أمي استغربتْ، لكنها تعوذتْ باللّه، بل نهرتني وكذبتني وهددتني إذا أخبرت أخوتي بذلك فستعاقبني. ثم قالت إنها ستتصرف، لكنها لم تفعل شيئًا. ونُسي الأمر.

وتكرر الأمر بعد سنة، حيث رأيته ذات ظهيرة صيفية يتلصص على أختيّ وهما نائمتان القيلولة في غرفة الضيوف، وكثيرًا ما كانت ثيابهما البيتية تنزاح قليلًا عن ساقيهما. لكني وجدته يداعب ما بين فخذيه وهو يلهث.

ومرة أخرى أخبرتُ أمي، فهاجتْ عليّ ومسكتني من كتفي وهزتني مهددة بأني أفتري عليه، وأنني كاذبة وألقي عليه تهمًا غير صحيحة، بل وكل ما أقوله هو زور وبهتان. لكن الشك أخذ منها مأخذه فقالت بأنها ستتأكد بنفسها من الأمر، وأنها ستحدثه لكن عليّ أن أصمت. لكنها هي التي صمتتْ، فهي لا تريد الحرمان من ممارسته الجنس معها. هكذا فهمت الأمر لاحقًا بعد أن بلغت الرشد.

حتى معي، وأنا الصبية، كان يبدي لطفًا زائدًا. وأتذكر حين كنت في السابعة كان يجلسني في حجره، لكني كنت أحس بقضيبه المنتعظ

وسط مؤخرتي، بل ومرة مد كفه تحت ثوبي حتى وصل إلى سروالي الداخلي فأدخل أصابعه من أحد جوانبه وأخذ يداعبني. خفتُ حينها أن أخبر أمي، فهي لا تصدقني في كل الأحوال، وربما ستلقي اللوم عليّ.

وتكرر الأمر مرات ومرات. لكن حدث الشيء الأكبر معي حين كنتُ في الثامنة. فذات مرة خرجنا جميعا للذهاب إلى زيارة العتبات المقدسة، لكننا لم نصل إلى كراج السيارة، بل في منتصف الطريق، قال إنه نسى شيئًا في البيت وعليه أن يرجع، وطلب من أمي وأخوتي انتظاره في كراج السيارات، وطلب مني أن أذهب معه لجلب ذاك الشيء الذي نساه.

ما إن وصلنا حتى أخذني إلى غرفة النوم، إلى سرير أمي، وألقاني هناك، وعرّاني من ثيابي. كنت خائفة منه. أخذ يداعبني، ويلحسني بلسانه في كل مكان، ثم تعرى هو نفسه وألقى بنفسه عليّ حتى تدفق ماؤه، فظننته حينها إنه بال عليّ. ثم مسحني بورق التنظيف الشفاف. وهددني إن أخبرت أحدًا سيقتلنا جميعًا. وتكرر الأمر. حتى إني اعتدت عليه. بل وصرت استغرب يومًا إذا ما توقف عنه، أو أنه لم يقتنص فرصة

لاحتضاني وتقبيلي أو مداعبتي. وطبعا لم أخبر أمي ولا أي شخص آخر.

لكن الكارثة حدثتْ بعد عامين حين تفجرت عائليا فضيحة مجلجلة بحمل أختي الكبرى. لم يكن أحد في البيت يعلم بما جرى سوى أختي وهو وأمي.

وذاتْ ليلة صيفية، وكنا ننام على السطح، شبّتْ النار في صحن الدار. وسمعنا صرخة وحشية، وحين هرعنا إلى حيث الصرخة، كانت أختي الكبرى قد صارتْ كتلة من اللحم المشوي.

نُقلتْ أختي على عجل إلى المستشفى بسيارة الإسعاف. أمي صعدتْ معها، وأختي وأنا. وفي الطريق اعترفتْ أختي ردًا على صراخ أمي فيها: «لماذا فعلتِ ذلك؟» فكانت إجابتها صادمة: «لأني حامل من زوجك ياأمي». فأخذتْ أمي تلطم خديها وتمزقهما بأظافرها. لكن أختي لم تستطع المقاومة ففارقتْ الحياة وهي في سيارة الإسعاف.

بعد أن عدنا إلى البيت، ومن دون أن نعرف، أخذتْ أمي مدية حادة من المطبخ، وفي فجر اليوم التالي سمعنا صرخة زوج أمي. فقد قطعتْ أمي قضيبه بالمدية الحادة النصل، ثم هوتْ

عليه كالمجنونة طعنا وتمزيقًا بالمدية، فمات في فراشه فورًا. أما أمي فقد سُجنت لأعوام طويلة. ونسيت هناك إلى أن ماتتْ. فقد رفض أخوتي زيارتها، لأنهم حملوّها جريرة كل ماحصل. ومع ذلك لم يعرفوا حقيقة وسبب انتحار أختي.

انتقلنا بعد ذلك للعيش في بيت عمي. وهو مدرّس يساري الأفكار مثل أبي، لكنه لا يمارس السياسة. وهناك فتحتُ عينيّ على مكتبة رائعة تضم روائع الكتب الأدبية والفلسفية والنفسية والاجتماعية. ووجدت نفسي أتتبى أفكار أبي وعمي، لكني مثل عمي نفرتُ من السياسة التي تجر إلى كوارث ومعاناة وسجن وعذاب.

مع مرور السنوات، وتطور مداركي الفكرية، أخذتُ أستعيد ذكريات زياراتي لأبي في السجن. وأستعيد وضع زوج أمي، وتحرشاته الجنسية بي وبأختي. ولم يكن أحد يعرف تفاصيل ما جرى بينه وبين أختي المتوفاة، هل اغتصبها وحملتْ منه، أم هي أحبته، ثم اندفعت معه في تجارب جنسية وحين حملت خافت الفضيحة فحرقتْ نفسها..؟!، فهي لم تقل سوى إنها حامل من زوج أمي، وماتت.

أمي وحدها ربما تعرف السر، لذا قطعت

قضيبه، ومزقته إربًا. لكن أمي ماتت بمرض السل في مستشفى السجن بعد سنتين من سجنها. وقد كنت أود زيارتها، لكن أخوتي وعمي رفضوا ذلك ومنعوني من الذهاب لزيارتها.

كنت أريد أن أتحرر من عائلتي. لذا كنت متفوقة في دراستي وتخرجتُ بمعدل مع الأسف لم يساعدني في تحقيق طموحي بدراسة القانون.

حين دخلتُ الجامعة، كنت في تخصص التاريخ القديم. لم يزعجني أو يحبطني ذلك كوني كنت أريد دراسة القانون، إذ كنتُ مولعة بالتاريخ والآثار وتاريخ الأشياء والأشخاص والأديان والعقائد.

كنتُ مكتظة بالشكوك عن حقيقة هذه الأديان التي تدعي بأنها مرسلة من السماء. و كنت أقرأ في كتبٍ ليست تقليدية وبعيدة عن الروايات الرسمية عن الأنبياء والأديان والوحي، لذلك كنتُ أحلم بأن أكو ن باحثة رصينة في تاريخ العقائدكنت أريد أن أفكك ما تم تلقيننا إياه من تأريخ ديننا وسيرة النبي هو الدين الذي أسسه العباسيون وفق مصالحهم. فأول سيرة للنبي كُتبت في بداية تأسيس الدولة العباسية، والأحاديث التي تُسمى الصحاح كُتبت وصُنفت بعد 200 إلى 300 سنة

من الهجرة. كما كانت لديّ الشكوك عما جرى في الفترة الأموية التي امتدّت لتسعين عامًا. عمومًا، كنت أسعى لأكون باحثة أكاديمية تبحث عن الحقيقة. لكن من أين لنا أن نعرف الحقيقة..!؟.

في الجامعة تقرّب اليساريون مني، لاسيما وهم قد عرفوا، ولا أدري كيف عرفوا، بأن أبي كان يساريًا منظمًا مثلهم وكان سجينًا في نقرة السلمان. ومع كل محاولاتهم وتقربهم وعلاقتهم الطيبة معي لم تجد نفعًا في أن أنتمي إلى تنظيمهم..! ومع ذلك ظلوا يكنّو ن لي احتراما خاصًا ويعدّوني واحدة منهم.

كنت معجبة بشجاعتهم. ففي بلاد هي ليست سوى سجن كبير وكابوس أسود مخيف فأن هؤلاء الشباب يتحدون كل العتمة ويحلمون بالنور وضوء الشمس الذي يجب أن يضيء هذا الوطن المنكوب. ومع ذلك كنت غير مستعدة لتحمل الوجع والخوف والرعب من السلطة المستبدة، فقد كنت مرعوبة من فكرة السجن، فنقرة السمان ظلت قابعة في أعماقي.

ذات يوم، كنتُ خارجة من الكلية. كنت أسير على الرصيف. وإذا بسيارة تويوتا بيضاء وقفت

جانبا ونـزل منها اثنـان. طوقانـي بسـرعة خاطفـة. مسك كل منهما بإحدى ذراعيّ. وبسرعة شديدة أخذانـي إلـى السيارة وأدخلانـي عنـوة فيهـا، وانطلقوا.

كان هنـاك بعض الأفـراد الذيـن رأوا كل شـيء. رأوا كيف تـم اختطافي، لكن لا أحد منهم تحـرك أو قـال شـيئًا، فقـد كان الجميـع يعـرف أن هـذه السـيارات تعـود لجهـاز الأمـن والاسـتخبارات، والناس كانت مرعوبة.

انطلقـتْ السـيارة مسـرعة، وفـي منعطـف خـالٍ مـن السـابلة، توقفـتْ. أخرجونـي، واتجهـوا بـي إلـى سـيارة كبيـرة تشـبه سـيارات نقـل البضائـع. فتحـوا البـاب الخلفـي العريـض ودفعونـي إلـى داخـل الصنـدوق، فوجـدت نفسـي أدوس علـى أجسـاد بشرية مكدّسة هناك.

لـم أعـرف السـر وراء اختطافـي، فأنـا لسـتُ سياسـية، لكنـي أيضـا لسـتُ عضـوة فـي الحـزب الحاكـم. ولـم أسـتطع أن أرى أحـدًا فـي ذلـك الصندوق الذي حشرنا فيه.

كان هنـاك شـيء مـن الاطمئنـان فـي نفسـي بـأن هنـاك سـوء فهـم، فمـن المؤكـد إن هـذه الدولـة البوليسـية تعـرف أننـي غيـر منتميـة لأي تنظيـم

سياسي.

سارتْ بنا السيارة في منعطفات، واستدارتْ مرات ومرات، إلى أن توقفتْ، فعرفت أننا وصلنا إلى المكان المنشود.

حين فُتح باب السيارة فوجئتُ حين رأيت عددًا كبيرًا من الفتيات والشبان ينزلون منها. ولم أكن أتوقع هذا العدد كان محشورًا في الجزء الخلفي من السيارة. وكان واضحًا على بعضهم أنهم تعرضوا للضرب أثناء الاعتقال.

تبينتُ أشكالهم، فعرفت بينهم بعض الوجوه من زملائي وأخرى لا أعرفها. بعضهم حليق الوجه وبعضهم ملتح، بل ورأيت بعض الفتيات مثلي سافرات وبينهن بعض المحجبات.

وبسرعة شديدة، كأن كل شيء كان معدًا مسبقًا، وزعونا وتلاشينا بسرعة في زنازين وأبواب خفية. أنا أخذوني بشكل منفرد. أدخلوني على مسؤول في ذلك المكان. وكان ضابطًا في منتصف الثلاثين تقريبًا، وسيمًا، أنيقًا، متعجرفًا. ما إن رآني حتى أخذ يطلق صفيرًا من بين شفتيه، إعجابًا بشكلي وهيئتي. وهذا ما زادني رعبًا.

نظر إليّ وقال مبتسمًا:

أتعرفين لماذا اعتقلناكِ؟
حينها عرفتُ بأنني معتقلة، لكني أجبته بخوف:
لا..
ابتسم أكثر وقال:
لأنك مثيرة.. جمالك المثير سبب اعتقالك..
صُدمت، إذ لم أفهم ماذا كان يقصد، فقد كانتْ أشبه نكتة سمجة أراد أن يعبّر فيها عن خفة دمه فيها، لكنه ابتسم أكثر وقال:
أمزح معك. اعتقلناك لأنك معادية للحزب والثورة. وتعملين مع هؤلاء العملاء والجواسيس. عملاء موسكو وإيران.
أدركتُ لحظتها بأن ثمة خطأ في الأمر واشتباه مقصود أو غير مقصود، فلا بد هم يعرفون بأنه لا علاقة لي بأي تنظيم سياسي. فقلت:
أنتم تعرفون بأنني لست سياسية ولا انتمي لأية جهة سياسية. وإنني أركّز على دراستي فقط.
نظر إليّ نظرة مخاتلة، وغمز بعينيه وهو يبتسم:
نعم.. هذا ما اعتقدناه سابقًا، لكن إحدى

القحبات السياسيات من رفيقاتك اعترفتْ وقالت بأنكِ معهم أيضًا في تنظيم الجامعة، بل أنت مسؤولة كبيرة لأنك لا تختلطين معهم حفاظًا على سرية مكانتك.

صُدمت. حاولتُ أن أوضح له:

هذا كذب وزور..واجهوني مع هذه التي اعترفتْ ضدي أو أي شخص تثقون به وسيخبركم بأن هذا افتراء لا أكثر.

وتحدثتُ كثيرًا. كان هو لا يعير لما أقوله اهتمامًا، فكل شيء محسوم سلفًا. كل ما قلته كان من دون جدوى، إذ أدركتُ حينها بأن الأمر لا علاقة له بالاعتراف عني ولا بعلاقتي بأي تنظيم سياسي.

ثم قام عن كرسيه واستدار حول طاولته وصار خلفي مباشرة، التصق بي، وفجأة احتضنني من الخلف، ثم مدّ كفه وأخذ يعصر نهدي، بل ومدّ كفه الأخرى ليمسك ما بين فخذي، فاستجمعتُ كل قوتي، دفعته وحررتُ نفسي منه، ثم استدرت نحوه وبصقت عليه احتقارًا ورفضًا لما قام به، كرد فعل طبيعي ينسجم مع شخصيتي واعتدادي بنفسي، فما كان منه إلى أن وجه إليّ صفعة قوية أدارتْ الدنيا في رأسي. ووقعت على

الأ رض شبه مغشيًا عليّ.

كنت خائرة القوى. وخلال غشياني وشبه اغمائتي ذهب هو وأقفل الباب من الداخل، ثم عاد إليّ فرفعني عن الأرض.

كان يحتضنني بذراع وبذراعه الأخرى دفع الملفات والأوراق المتراكمة على سطح طاولة المكتب، فسقطت على الأرض.

أجلسني على حافة طاولة المكتب. أحنى قسمي الأعلى ليستلقي ويتمدد على الطاولة، بينما بقى القسم السفلي من جسدي خارج الطاولة وساقي متدليتان إلى الأرض. ومن دون تردد فتح ساقي. وقف هو بين بينهما. نزع عني بنطالي، فصرت عارية الساقين في سروالي الداخلي الشفيف فقط.

لم يكن بمقدوري أن أقاوم. كنت شبه مشلولة. بل كنت أترقب ما سيحدث لي وأتوقعه. لم ينزع عني سروالي وأنما مزقه بحركة وحشية. فصرتُ عارية ومفتوحة الساقين أمامه.

فجأة، اختفي ظله من أمام عيني. وبعد لحظات عرفت أنه جلس مقرفصًا بين ساقي وأخذ يلحسني. استمر في هذا الأمر فترة. لكن بعد لحظات أحسستُ بوغزة قوية مصحوبة بألم

قوي مفاجئ، وكأن سكينًا أو شفرة جرحتني. فقد أولج قضيبه في فرجي ممزقًا غشاء بكارتي. وصار يدخل ويخرج فيّ كالمجنون.

كل ذلك جرى خلال دقائق قليلة جدًا. ولم يكتف هو بذلك بل مزق قميصي. نزع صدريتي بحركة همجية أدت إلى سلخ جلدي من ناحية الكتفين، فصرتُ عارية الصدر والبطن أمامه.

كنت كالذبيحة. كنت أرى وجهه الشبق اللاهث وهو يعصر نهدي ويمص حلماتي ويقبل بطني. وهو يدفع بنفسه في أعماقي.

هل تصدق وأنا في ذلك اكنت أفكر بما يجري لي. استغربت هذه الحياة في هذه البلاد. فمن فتاة طموحة، تعد نفسها مثقفة وذات رؤية فكرية وفلسفية، ومكتظة بالأحلام والآمال والمشاريع الفكرية، إلى فتاة شبه عاهرة، مبتذلة تعيش أحط مستويات الانحطاط الأخلاقي، يتم التعامل معها كجسد لتفريغ الشهوة وبشكل مبتذل وشاذ ومنحط!! كل هذا في أقل من ساعة.

الغريب في تلك اللحظات، وأنا مستلقية على الطاولة كالذبيحة ومفتوحة الساقين، تذكرتُ زوجَ أمي، وتخيلت أختي التي أشعلتْ النار في جسدها وهي تحت زوج أمي في مشهد مشابه.

كان هـذا الضابـط عنيفًـا وهائجًـا كالثور ويلجني بحقـد وقسـوة مـن دون اعتبـار لحالتـي النفسـية ولخمولـي وعـدم تجاوبـي واسـتلقائي كالذبيحـة بيـن يديـه. ثـم فجـأه همـد فوقـي. فقـد قـذف وسـاخته في مهبلي.

فـي تلـك اللحظـات أدركـتُ بأننـي قـد ضعـتُ نهائيًـا، فلـم أعـد تلـك الفتـاة التـي كنـت أراهـا فـي نفسـي، لـم أعـد تلـك الفتـاة التـي تعتـد بنفسـها وثقافتهـا وتاريـخ والدهـا وبهيئتهـا الأنيقـة. انتهـتْ حياتـي عبثًـا، لـذا أطلقـتُ علـى نفسـي لقـب حـواء الضائعة، وهل هناك ضياع وعبث أكثر من هذا؟.

مـا أن سـحبَ نفسـه عنـي، بعـد أن قـذف كل قذراتـه فـي مهبلـي وهمـدت قوتـه، حتـى انزلقـتُ بكامـل جسـدي عـن طاولـة المكتـب. وتكومـت علـى أرض المكتـب عنـد حافـة الطاولـة مثـل جثـة الذبيحـة. كانـت دمـاء بكارتـي قـد اختلطـت بمنيـه الـذي أخـذ يسـيل مـن بيـن فخـذي خارجًـا مـن مهبلـي الممـزق النـازف. كـدتُ أتقيـأ مـن هـول النجاسة والوسخ الذي أحسستُ به.

حاولـتُ أن ألمّلـم نفسـي وأسـتر عريـي. وشـيئًا فشـيئًا حاولـتُ الإتـكاء علـى جانـب طاولـة المكتـب السـفلي. كنـت أشـعر بألـم جسـدي ونفسـي لا

يوصف. لم أقل شيئًا، لم أصرخ وأبكي أو أولول بل ولم أقل أشتم، فما جدوى الكلام، فلقد بصقت عليه وشتمته فكان جزائي الاغتصاب الوحشي، فما جدوى الشتائم الآن بعد أن ضعت بهذه الرخص والابتذال والانحطاط والسهولة!!؟ لم أكن أقوى على قول أي شيء. وقررت الصمت.

لن أنسى ذلك اليوم، ولا ذلك المشهد، ولا ما جرى، لذلك رويته لك بتفاصيله الدقيقة المبتذلة والقاسية والإباحية، فعلى الرغم من أنني شهدت كوارث أخرى بعد ذلك، لكني لم ولن يغادرني ما جرى في ذلك اليوم بكل تفاصيله التي صرت استرجعها وكأنها لا تخصني شخصيًا، وأنما جرت مع شخصٍ آخر، مع امرأة أخرى، بل ومع مئات النساء اللاتي يقعن في قبضة أزلام هذا النظام الاستبدادي.

كان مغتصبي ينظر إليّ وكأنه يريد أن يعرف ما أفكر به. ومع ذلك أخذ بعض ورق التنظيف الشفاف، ومسح قضيبه مما علق فيه من دماء بكارتي وما علق به من سوائل خرجت مني على الرغم من مشاعري ورفضي لما قام به. وبلغ قمة القساوة والانحطاط والابتذال حين سألني:

هل أعجبك؟ لم أصدق إنك ما زلتِ عذراء..!

شعرتُ بغضب هائل لكنه غضب مكتوم، لكنه غضب العاجز والتائه والضائع فلم أجب لكني نظرت إليه نظرة مليئة بالحقد والغضب.

بعد ذلك ذهب وأدار مفتاح الباب ثم عاد إليّ وقال لي:

اِلبسي بنطالك وزرري قميصك قبل أن يأتي من يرافقك إلى زنزانتك.

ومدّ ذراعه ليضغط على جرس قريب منه. بعد لحظات طُرق الباب. لكنه لم يسمح له بالدخول إلا بعد أن لبست بنطالي، وأنا جالسة، متقززة من وساختي ونجاستي.

طُرق الباب مرة أخرى فسمح له بالدخول. وفعلا دخل أحد جلاوزته، فقال له آمرًا:

ضعها في غرفة منفردة. لا ينام معها أيًا منكم إلى أن أسمح لكم بذلك. ستكون قحبتنا المثقفة، إلى أن تتأدب وتتعلم كيف تتعامل معنا وتتحدث معنا بأدب. خذها الآن ودعها ترى ما ينتظرها من مشاهد.

مسَكَني التابع من ذراعي وانهضني. وسار بي وأنا شبه مغمى عليّ.

حين غادرت غرفة الضابط مع التابع، أحسستُ بأنني تخلصتُ من سجني، فعلى الأقل

سأكون في زنزانتي لوحدي.

سار بي التابع، وأنا ما بين الصحو وهول الصدمة التي كانت تدفعني للانهيار، لكنني أردت أن أرى كل شيء بوضوح شديد، أن أشهد على هذا الخراب العراقي المخيف.

مشى بي في ممر شاحب الضوء أكثر رعبًا من هذا النفق المظلم الذي أنتَ فيه الآن. أوقفني عند باب زنزانة حديدية صدئة وخاطب تابعًا لآخر كان يقف كالتمثال هناك بأن يفتح الباب.

حين فُتح الباب وأدخلني معه، كي يريني ما ينتظرني، أرعبني ما شاهدتُ. كنتُ في مسلخ حقيقي، مسلخ بشري. كانت هناك أجساد لرجال ونساء، عراة، لكنهم معلقون من سيقانهم إلى الأعلى وأجسادهم متدلية إلى الأسفل. وهناك من يقف تحت كل واحد منهم وبيدهم سلسلة يسحبها فتصعد رؤوسهم وظهورهم ثم فجأة يفلتون السلسلة فتتدلى أجسادهم ورؤوسهم إلى الأسفل.

هذه القاعة تسمى قاعة الخفافيش. قاعة الوطواط. نعلقكم مثلما تنام الخفافيش، حيث رأسها إلى الأسفل.

كانت الدماء والقيء والبول يغطي أرض القاعة

تلك وتحت كل جسد معلق إلى الأسفل. كدتُ أنهار من هول الروائح الكريهة وهول المشهد. سحبني من ذراعي خارجًا قبل أن أنهار.

سار بي في الممر، ثم انعطف في ممر جانبي. وسمعنا صرخات ألم ووجع تأتي من وراء أحد الأبواب. فقال للحاجب عند ذاك الباب بأن يفتحه.

ما إن فتحَ الحاجبُ بابَ تلك الزنزانة الواسعة حتى رأيت مشهدًا مشابهًا، لكن أكثر إيلامًا، فقد كان هناك أكثر من سجين من الجنسين، يقف خلف كل منهم رجل من رجالات السجن، وأمام كل منهم يقف أحد جلاوزة السجن، ويبدأ التعذيب من خلال توجيه سيل من اللكمات إلى وجه وصدر وبطن السجين، وكأن السجين كيس ملاكمة يتم التدرب عليها.

رأيت كيف تتهشم الأنوف وتتشقق وتجرح الشفاه وتتساقط الأسنان. لم أستطع تحمل المشهد القاسي. ولا إراديًا انساب البول من مثانتي، بحيث كان واضحًا من خلال بقع البلل في بنطالي. وما إن انتبه مرافقي الى تبولي على نفسي حتى سحبني وأخذني إلى زنزانتي. فتح بابها. ودفع بي إلى داخلها.

كانت زنزانتي فارغة..فارغة.. لا شيء فيها. وقبل أن يغلق الباب جاء أحدهم وهو يحمل خرطومًا طويلًا وأخذ يرشني بماء بارد، ثم فُتحت تيارات هواء بارد لا أعرف أين أماكنها في الزنزانة. وبعدها أغلق مرافقي الباب وتركني في تلك الظلمة الدامسة، بل كان هناك بعض الضوء الشاحب جدا الذي يأتي من نافذة صغيرة مسدودة بقضبان متينة تطل على ممر غامض وراء زنزانتي.

ربما لا أحد يصدقني بأنني شعرتُ بالراحة حينما تم إغلاق باب الزنزانة عليّ. واسترجعتُ مشاهد ما جرى لي من لحظة اختطافي، إلى اغتصابي، إلى مشاهدتي للزنزانات الأخرى. ولا إراديًا انسابتْ مشاهد من زياراتي في طفولتي لأبي في سجن نقرة السلمان. وتراءى لي حضور أبي إلى تلك الزنزانة وهو يمسد على شعري ويبتسم، فخورًا بي، وهو يقول لي بحب وتعاطف:

هذا هو الطريق الذي سار به المئات بل الآلاف من المناضلين ياابنتي.

لكني رفعتُ رأسي إليه وقلت له:

لستُ مناضلة، ولستُ سياسية، ولم أود أن أكون كذلك يا أبي..ولا أريد أن أكون كذلك.

فابتسم لي وقال:

ليس النضال أن تنتمي لحزب ثوري فقط ياابنتي، وأنما أن تحافظي على إيمانك بالعدالة، ورفضك كل أشكال القمع والاستبداد ولو بشكل صامت، فأن هذا يُعد نضالًا ذاتيًا، ففعل الخير ليس بالضرورة بأن تفعلي خيرًا، وأنما ألا تفعلي شرًا، ألا تنتمي لهذه السلطة الفاشية.

وتلاشى حضور أبي حين سمعتُ صرخاتٍ أنثويةٍ آتية من جهةِ الممر.

لا أعرف كم مر بي من الوقت وأنا في زنزانتي. شعرتُ بالبرد الشديد وكأني تجمدتُ. فملابسي مبللة. نزعتُ ملابسي، لأنها صارت كقطع ثلج على جسدي. وقطعتُ شيئًا من سروالي الممزق أصلًا، مسحت به الدماء والمني بين فخذي. وفرشتُ ملابسي على الأرض كي تجف.

كانتْ الزنزانة معتمة سوى من بعض الضوء الشاحب جدًا الذي مع ذلك كان يساعدني في رؤية بعض جوانب الزنزانة. ومع تصوري أن النهار لم ينته بعد، لأنني قد اختطفت نهارًا، إلا إن أجواء المكان توحي بأننا في ليل دائم طويل لا فجر له.

بعد فترة، لا أعرف كم طالت، انتبهت إلى جفاف ملابسي من البلل، مع أنها ظلت باردة ولا تمنح الدفء، فأخذتها من الأرض، وارتديتها. لبستُ بنطالي من دون سروال وقميصي من دون سوتيان.

وما أن أتممتُ ارتداء ملابسي حتى سمعتُ حركة باب زنزانتي وهو يُفتح. وأطل الضابط الذي اغتصبني. كان يبتسم وهو يراني منكمشة على نفسي. اقترب مني وقال:

كيف تشعرين الآن؟

لم أجبه. انكمشتُ على نفسي أكثر، فقد أدركتُ بأنني أعجبته وهو يشتهيني لذا فلن يتركني في حالي. وفكرتُ مع نفسي: «الجمال قد يكون لعنة أحيانًا. فكم يجر اللطف أصحابه إلى السقوط والكوارث والمعاناة. لكن هل سقطتُ فعلًا؟ لا.لا. أنا مؤمنة بأنني دفعت ثمن دفاعي عن كرامتي. بصقتُ على هذا الضابط النذل، وتحملت نتيجة فعلي، مهما كان الثمن غاليًا.

اقترب الضابط مني وقال:

أنا أعرف إنك لست سياسية. وإن التي اعترفتْ عليك قد افترتْ عليك وأرادت أن تتعاون معنا من خلال ذلك الافتراء والوشاية بك.. لكني

أحببتك..لقد جئتُ ذات مرة لكليتكم في زيارة قريب لي. رأيتك في الكافتريا. فأعجبتني منذ اللحظة الأولى. وسألتُ عنك، عن اسمك ومعلومات أخرى عنك. لكني، وكما تعرفين، أنا مسؤول هذا المكان، وعليّ البقاء هنا ليل نهار. لكنك لم تفارقي ذهني، لذلك خططت لاختطافك. بيد إنك صلفة ومتكبرة، لذلك دفعت ثمن بصاقك عليّ وشتمي. وما عليك سوى طاعتي. عليك إدر اك ذلك..إذا أطعتني سأرفق بك ولا أعذبك، وإذا واصلت تعنتك فسأدع كل الموجودين هنا يفعلون بك ما يشاؤون. هل فهمتِ؟

وغادر الزنزانة من دون أن يلتفت إليّ.

أنا لستُ سياسية لكني أمتلك وعيًا سياسيًا، فأنا مؤمنة بأفكار والدي وعمي، مؤمنة بكل ما قام به أبي وناضل من أجله، وتعذب وسجن ومات من أجله.......صحيح أنني لم أنشط سياسيًا، لكني مؤمنه برؤية تغيير العالم، وأحلم بحياة طبيعية، مدنية، تحفظ كرامة الإنسان وتمنحه حرية الفكر والعقيدة. وسواء كنت منتمية لتنظيم يناضل من أجل ذلك، أم لا، فأنا لديّ الإيمان بذلك، وهل يمكن تحمل الحياة بدون إيمان؟ هل تؤمن أنت بشيء يا آدم؟

ارتبكَ آدم الحارس فهذا السؤال مفاجئ ولم يفكر به سابقًا، بل لم يسأل نفسه إن كان يؤمن بشيء أم لا..!.ولا إراديًا أجاب:

لا أعرف إن كنتُ أؤمن بشيء أم لا.. لكني أعرف إن آمنت بشيء فهو ليس الإيمان الديني بالضرورة. لا أعتقد إن هناك من يعيش بلا إيمان. فحتى المجنون يؤمن..المجنون يؤمن بأنه عاقل.

بالتأكيد.. فليس هناك من لا يؤمن بشيء، فحتى هذا الذي لا يؤمن بشيء هو يؤمن باللاشيء، يؤمن باللاإيمان بشيء، بل حتى الملحد فهو يؤمن بالنفي.وأتفق معك فالإيمان ليس بالضرورة أن تؤمن بأشياء غيبية دينية.

نعم.. الإيمان الديني هو عزاء غيبي وخدر أخلاقي، أما الإيمان اللاديني فهو تبني لرؤية عقلية لا غيبية.

صحيح.

وماذا جرى بعد ذلك؟ فأنت لم تخبريني كيف أنت هنا في هذا النفق..؟

أنا لا أدري إن كنت الآن في نفق، لأني لم أغادر مكاني هذا، وأنما وجدت نفسي هنا، أما ما جرى معي بعد اختطافي واغتصابي فهو مؤلم جدًا.

صمتتْ للحظات، ثم واصلت قائلة:

ما أقوله لن يقبله عقل ولن يصدقه أحد. بل ربما ستفكر بأنني شاذة ولا أخلاقية، لكنني صادقة مع نفسي ومع مشاعري.

نحن الموتى الأحياء لا أحكام أخلاقية لنا.

صمتت المرأة للحظات، ثم واصلت:

إذن اسمعني، فأنا هنا سأتحدث عن امرأة كانت تنبض بالحياة والرؤى والأفكار والطموح. امرأة كانت تسعى إلى أن تكون باحثة قديرة في التاريخ، لاسيما في تاريخ العقائد والأديان والمعتقدات.

أسمعك..

أتظل واقفا أنت وهذا الصبي.. اجلسا على تلك المصطبة الحجرية.

لا ضير.. يمكننا أن نسمعك من هنا أيضًا.

كما تشاء.

أسمعك..

أطرقتْ برأسها وكأنها تستعيد ما حدث وقالت:

طال بقائي في تلك الزنزانة. في أول دخولي إليها أتوا بجردل من البلاستك. وقال لي من أتى به، بأنه يمكنني التبول والتغوط فيه وإنهم يأتون

صباحًا ليأخذوه وينظفوه مما فيه من نجاسة.
هل لك أن تتصور الأمر؟

في الساعات الأولى فكرتُ بأختي، ثم فكرتُ بعمي، وأخذتُ أستعرض في ذاكرتي كل الطلبة والطالبات من اليساريين، وأخذت أسأل نفسي: من تراها تلك التي اعترفتْ عليّ زورًا وبهتانًا؟ ولماذا؟ وطبعا هذه الأسئلة كانت لا جدوى منها لاسيما وأنا في الساعات الأولى من اعتقالي.

وسألتُ نفسي عمّا ينتظرني؟ في الساعة الأولى من اعتقالي تم اغتصابي بشراسة. ورأيت المعتقلين المعلقين كالخفافيش على رؤوسهم، شاهدتُ كيف يُضربون ككيس الملاكمة، فياتُرى ماذا سيكون معي؟ لاسيما وأن الضابط الحقير كشف عن سر اختطافي، وقرّر أن يحولني لعاهرته، وإذا ما رفضت لا أعرف ماذا سيحصل معي؟ وهل لي أن أرفض؟ وإذا ما شبع مني وملّني فسيدفعني إلى بقية جلاوزته.!.

لا أعرف إن كانت هيئتي المثيرة جنسيًا هي نعمة أو نقمة؟ كونه نقمة عرفت ذلك من اغتصابي من قبل الضابط النذل، لكنه ربما كان نعمة أيضًا، فقد جنبني التعذيب الشديد، أولا لرغبة الضابط بي، وثانيًا انتظار جلاوزته لسماح

الضابط لهم بمضاجعتي كما وعدهم، وربما هذا ما سيدفع البعض إلى تخفيف تعذيبي. بيد إن شكلي المثير كما قال الضابط لم يجنبني التعذيب نهائيًا.!!.

ما يجعل حياة الاعتقال والسجن كابوسًا مرعبًا ليس التعذيب بحد ذاته فحسب، وأنما تفاصيل حياة الزنزانة.

ففي حياتي العادية كنت أكره الذهاب إلى المرافق الصحية، بل وكثيرًا ما سألت نفسي: لماذا خلق الله البشر كالحيوانات، يتغوطون، ويتبولون؟ ألم يكن بإمكانه أن يخلقهم كالأشجار من دون براز وتغوط؟ هل هذا يعني أن نظرية دارون في الأصل الحيواني للإنسان صحيحة؟ وهل هذا يعني أن قصة خلق آدم سوى أسطورة أخلاقية صنعها البشر لجهلهم بالعلوم وبأصل الإنسان والتطور البايولوجي؟ لذا كانت مسألة تغوطي في الجردل مسألة مقززة وكريهة جدًا، بل ونوع من التعذيب النفسي.

وهناك جانب آخر تعاني من النساء السجينات فقط، ألا وهي دورتهن الشهرية. فمن أين للنساء السجينات المعتقلات في مثل هذه الظروف الاستخباراتية اللاقانونية، المخيفة، المعزلة عن

العالم ، أن يحصلن على فوطات العادة الشهرية، بينما هن محرومات من أبسط الأشياء، بل وينامن على الأرض العارية؟

كنت لا أعرف تتابع الليل والنهار. فليستْ هناك نافذة تطل منها الشمس أو ضوء النهار، ولا خروج صباحي كعادة السجناء المحكومين في السجون الاعتيادية. كنتُ أعرف النهار نهارًا من خلال الضجيج الذي أحسه في الممر عند قلقلة المفاتيح في الأقفال لأخذ جردل البول والغائط أو توزيع وجبة الطعام التي هي عادة ما تكون بيضة مسلوقة مع قطعة من الصمون الحجري.

الضابط النذل، الذي اغتصبني، تعامل معي بابتذال شديد وبانحطاط مقرف. كانوا عادة يأخذوني إليه نهارًا أو ليلًا حسب مزاجه. وحينها فقط، من خلال نظرتي إلى ما وراء نوافذ مكتبه، أعرف أن الوقت نهارًا أو ليلًا، فالممرات شاحبة الضوء لا تعرف الوقت من خلالها، فنهارها وليلها سواء.

وفي كل مرة يأخذوني إليه أعرف ما ينتظرني عنده. كان يتعامل معي بابتذال، جثة من اللحم الحي أمامه يفعل بي ما يشاء ومن الجهات كلها. وكان يجبرني على أن أتلفظ بكلمات جنسية

مبتذلة تعبرعن رغبتي الشديد فيه، ورغبتي في ما يفعله بي.

وكثيرًا ما كنت أفز من نومي عند دخوله زنزانتي وهو سكران. فكان يقترب مني ويفتح بنطاله ويطلاب من أن ألعق قضيبه. وحينما كنت أرفض ذلك كان يضرب رأسي بالجدار، بل ويمسكني من وجهي ومن فمي ويولجه بالقوة في فمي. وكان ينهي رغبته في فمي فأتقيأ في جردل الغائط. أو كنت، قبل أن يقذف أخرجه من فمي، فيلوث وجهي وملابسي. ويمكنك أن تفكر بهذه التفاصيل القذرة، بأن هذا لا يجري معي فقط بل أنه وبقية جلاوزته يفعلون ذلك مع بقية المعتقلات أيضًا.

ومع ذلك كنتُ عاهرته الخاصة، فلم يتركني لغيره من جلاوزته الذين كانوا يحسدونه لأني صرت ملكه، بل وكما يبدو صار متعلقًا بي، فكان يأتيني بين فترة وأخرى ببعض قطع الملابس، كالسراويل الشفيفة، بل طلبت منه ذات مرة أن يأتي بمناشف العادة الشهرية. وفعل. صرت محظيته وملكه.

كنتُ أفكر عن سبب اعتقالي، فالأيام والأسابيع تمر من دون تحقيق أو سؤال أو اتهام أو حتى

رغبة في معرفة معلومات سياسية، لاسيما وأنا كنتُ اسمع صراخات النساء والرجال وهم يعذبون في الزنازين الأخرى ليل نهار فلا وقت للتعذيب.

ربما من المعيب أن أقول بأني تعودتُ على تلك الحياة، ولم أعد أشعر بالتقزز منها كما كنت في أول أيامي في المعتقل، فالإنسان كائن غريب، يعتاد على الحبس الانفرادي، ويعتاد على القذارة والنجاسة، بل ويعتاد على الجحيم. وهكذا اعتدتُ على حياتي في الزنزانة.

هل تصدق حين كانوا يأخذوني إلى مكتب الضابط النذل كنت أنتظر اللحظة التي يكتفي مني وينهي شبقه فيّ لأعود إلى زنزانتي.

وحدثت الكارثة. وانقطعتْ دورتي، فقد حملت منه. ولم يكن أمامي سوى أن أخبره. وفجأة، تغيرت معاملته لي. ولا أدري هل أيقظ هذا الأمر غريزة الأبوة فيه؟ المهم، حينها أمر بوضع سرير في الزنزانة، وصار يأتيني بوجبات طعام جاهزة من خارج السجن. وصار أكثر هدوءا وحذرًا عند مضاجعتي..! ومرت الأسابيع التي تسمح لي بإجراء الإجهاض.

وذات ليلة، فُتح باب الزنزانة ودخل الضابط الذي صار عشيقي ومالكي، ومعه امرأتين،

إحداهما تحمل حقيبة جلدية، بينما الأخرى ترتدي معطفًا، فخمنت أنها طبيبة والأخرى مساعدتها. وفعلًا كان تخميني صحيحًا. وبعد دقائق دخل شرطيان يحملان طاولة طويلة نوعًا ما.

قامت الطبيبة بحقني مادة مخدرة. وبمساعدة المرأة الأخرى مددتاني على الطاولة. وطلبتْ الطبيبة من الضابط النذل أن يخرج. ولم أعرف ما جرى، لكني كنتُ أعرف بأنها جاءت لتجري لي عملية إجهاض.

حين أفقتُ وجدتُ نفسي على السرير الحديدي المنفرد في تلك الزنزانة العارية. لكن الذي جرى في الأيام التالية هو اختفاء ذلك الضابط النذل. وذات ليلة، دخل عليّ ذلك التابع الذي كان شاهدًا على اغتصابي.

أغلق الباب خلفه وتقدم نحوي. عرفتُ من نظراته بأنه يريد اغتصابي. أدركتُ حينها بأن الضابط النذل قد تخلى عني ومنحني لجلاوزته. لكنه حين صار أمامي قال لي آمرًا:

انزعي .. بسرعة.

لم أعرف بماذا أجيبه. بقيتُ صامتة لا أفعل شيئًا. فابتسم بشكل كريه وقال:

لا أحد يحميك الآن. ضابطك تم نقله إلى مكان بعيد. أنت الآن لي. أنت حصتي.

هل تعرف ياآدم حين تهيمن روح العبودية على الإنسان وتتغلل في كل كيانه. العبودية سلوك أيضًا، العبودية نمط حياة وفضاء نفسي، العبودية قناعة فكرية ونفسية..! فقد كنت عبدة وأشعر بأنني عبدة وعليّ الإطاعة سواء رضيت أم لا..!

وهكذا استسلمتُ. لقد شعرتُ بأنني انتقلتُ من مالك إلى آخر. ولا إراديًا أخذت أنزع ملابسي على استحياء، فلم يصبر هو إذا نزع بنطاله، وأدارني بشكل كلبي، وأولجه في.

وكما اعتدتُ على الأول صرت أعتاد على الثاني. وفهمت كيف تعتاد المومسات على عدد من الرجال يوميًا. وتذكرت ما قرأته يومًا عن أخلاق العبيد وأخلاق الأحرار.

لكن حتى النذل الثاني لم يستمر الأمربه طويلا، فقد انقطع فجأة. مرّ أسبوع من دون أن تُفتح زنزانتي آخر الليل. وربما من المعيب أن أقول إنني كنت أنتظر أن يدخل أحدهم عليّ، فقد اعتدتُ الأمر، بل وجدت في ذلك كسرًا لوحشتي وانشغالًا لي في هذه الزنزانة الباردة.

لكن ذات صباح، وبعد فتح الباب لأخذ جردل

الغائط، وتوزيع وجبة الفطور. فُتح الباب وجاء الرجل التابع نفسه. وطلب مني أن أذهب معه لمقابلة المدير الجديد. لكنه وأثناء مرورنا في الممرات همس لي بأنني لو بحت بأي حرف عما جرى معي، خاصة اعتدائه عليّ فانه سيذبحني الليلة ويقول بأنني انتحرت. وهددني بأنه سيكون موجودًا أثناء اللقاء.

حين دخلتُ مع التابع إلى غرفة المدير الجديد فوجئتُ. فقد كان رجلًا كبيرًا في السن فيه شبه كبير بأبي. فرف قلبي. وترقرقت الدموع في عيني. ملامحه مريحة وطيبة ويتصف بالهدوء.

طلب المدير الجديد مني الجلوس، بينما طلب من مرافقي أن ينتظر عند الباب. نظرتُ إلى مرافقي فبادلني نظرة مليئة بالوعد والوعيد، وكأنه يهددني إن بحت بشيء ضده.

كان المدير ينظر في ملف ضخم بين يديه، ويقلب صفحاته بلا مبالاة، ثم رفع رأسه وتوجه نحوي بهدوء وسألني:

لم أنتِ هنا؟

لا أدري..!

كيف لا تدرين؟ أنت هنا، في هذا الملف الذي

أمامي، تعترفين بأنك كنت تنتمين لتنظيم سياسي محظور معاد للحزب والثورة..؟!

هل أنا اعترفتُ بذلك؟

نعم..هذا ما موجود أمامي في ملفك.

استغربتُ كلامه، فقلت له وأنا أختنق من هو المفاجأة والتأثر:

أنا شخصيًا لا أعرف كم مرّ علي هنا في زنزانتي. ولم يسألني أحد عن أي شيء. ولم يتم التحقيق معي. لم يسألني أحد، بل ولم أجب عن شيء ولم اعترف بشيء. كل ما جرى إنني اُختطفتُ من الشارع، وجيء بي إلى هنا، إلى هذا المكتب. وقال لي الضابط الذي كان قبل حضرتك بأنني سياسية وهناك إحدى النساء قد اعترفتْ وذكرتْ اسمي، علما بأنني لا علاقة لي بالسياسة.

صحيح إن والدي كان سياسيًا وسجينًا في نقرة السلمان ومات هناك، لكني لم أنْتَمِ إلى أي جهة سياسية، لذا استغرب كلام حضرتك بأنني اعترفتُ وهذا الأمر موجود أمامك في ملفي..!

كان ينظر إليّ بتعاطف، ويتأملني، وينتقل بنظراته بين وجهي وتفاصيل جسدي وبين الملف الذي أمامه، ثم قال:

هل يعني إنك تنفين كل ما جاء في هذا الملف الضخم..؟!

أدركت غريزيًا بأنه ليس شرسًا كما المدير الذي قبله، فقلت مؤكدة وبحماس لأن هناك من يسمعني:

نعم سيدي..كل ما جاء في هذا الملف ملفق ضدي. لم يتم استدعائي والتحقيق معي، بل حتى إنني لا أعرف كم مضى عليّ وأنا هنا..؟!

مضى عليك تسعة أشهر وأنت مقيمة هنا..

مقيمة؟ تسعة أشهر؟

نعم..

هل تم تبليغ أهلي بأنني معتقلة لديكم..؟!

أنت لست معتقلة، بل مقيمة..ولا أعرف إن كانوا قد بلغوا أهلك أو هم سألوا عنك أصلًا..؟!

لا أعتقد..فنحن لا نبلغ أهل من نستضيفه هنا .

قام من مكانه وأخذ يمشي في الغرفة. وكأنه يفكر في أمر ما. وقال لي:

اسمعيني جيدًا. أنا أصدّقك..

أتصدقني..؟

يمكنك أن تتخيل حالتي وأنا أسمع من مدير المعتقل وهو يقول لي بأنه يصدقني ويصدق بأن كل ما كُتب عني هو تلفيق لا أكثر. وكانت المفاجأة

حينما واصل قائلًا:

نعم..أصدقّك.. لسبب بسيط هو أنه يوجد لديك ملف ضخم وهو أمامي على طاولة مكتبي، فيه اعترافاتك واعترافات غيرك عنك..! لكني لم أجد اسمك على مُلاك السجناء هنا. أي أن من جاء بك إلى هنا لم يدخل أسمك ضمن قائمة السجناء. وكأنك غير موجودة أصلًا. أي إن وجودك من عدم وجودك سواء. بقاؤك أو خروجك سواء. وربما من هنا يمكنني مساعدتك وإخرجك من هنا.

حينما سمعتُ جملة «إخراجك من هنا» شعرتُ بدبيب الحياة تسري في جسدي وروحي. لكنه عاد إلى مكتبه، وجلس على كرسيه، وأخذ يتأملني. وفجأة قال لي:

أنت كما يبدو كنت مثيرة جدًا.زاعرف أن بقاؤك في الزنزانة بعيدة عن الشمس والهواء النقي والأكل الصحي أثر على هيئتك، لكنني أعرف أن أزن الذهب وهو في الوحل، وأرى الألماس وهو تحت مناجم الفحم..

شعرتُ بالخوف، فربما هو لا يختلف عمن سبقه، ولا يختلف كثيرًا عن التابع الذي ينتظر عند الباب. لكني أخذت أقنع نفسي قائلة:

ليكن.. ليفعل معي ما يشاء. المهم. أن يحررني من هذا المكان.
وفجأة سألني:
أين ستذهبين إذا ما خرجتي من هنا؟
لا أدري.. ربما أرجع لأهلي..!
أطرق برأسه قليلا ثم سألني:
وهل سيقبلون بكِ بعد اختفاء دام تسعة أشهر؟
لم أفكر بهذا الأمر فعلًا، فقلت:
لا أدري.. ربما نعم.. وربما لا..!
وهل سيصدوقون قصتك؟
لا أدري..!
نظر إليّ بتركيز وسأل:
وهل ستخبريهم بحقيقة ما جرى لك هنا؟
لا أدري..! ربما نعم.. وربما لا..
أدركت بأنه يعرف ما جرى لي، لكنه لم يشأ أن يشير إلى ذلك، لذا واصل:
من المؤكد أنهم لن يصدقو حكايتك، ربما سينبذوك إذا ما عرفوا حقيقة ما جرى لك...!
فقلت وأنا على حافة الانهيار، حتى راودني شعور بالخوف من الحرية، بالخوف من مواجهة أهلي والناس بعد الخروج من المعتقل، فقلت يائسة:

أنا ضائعة.. وأنتم ضيعتموني..

صمتَ لدقائق.كان منشغلًا بشيء ما يدور في ذهنه. قام عن كرسيه، استدار بوجهه نحو خزانة فيها دروع ذهبية تتوسطها صورة رئيس البلاد. بقي على وقفته تلك وهو يدير لي ظهره لفترة ليست بالقصيرة. ثم وكأنه عزم أمره، فتحرك متجها لكرسيه. جلس عليه وقال لي بنبرة واضحة وهو ينظر في وجهي:

سأكون واضحًا معك. يمكنني إخراجك من هنا كما نقول بالمثل العامي» أخرجك مثلما أخرج الشعرة من العجين». ويمكنني أن أبقيك هنا إلى ما لا نهاية. أدخلك قائمة المقيمن السجناء، ثم أفتح جلسات التحقيق الفعلي معك. لأنه كما أرى إن حياتك، ربما، ستكون في خطر من قبل أهلك، وبالتحديد من قبل أخويك وعمك. وربما ستتحولين إلى فتاة شارع. لا مأوى لديك. بل ربما ستبقين هنا، ويأتي مدير غيري ويحولك إلى بيوتات ترفيه الضابط والمسؤولين الحزبيين.

بقيت صامتة. فقد رسم لي لوحة سوداء أنى اتجهت ومهما كانت الآفاق التي أمامي فكلها مدلهمة، لكنه واصل:

سأعرض عليك مقترحًا، أتمنى أن يعجبك.

أنا مقبل على التقاعد بعد خمس سنوات. أنا أرمل. أبنائي كبار ولديهم عوائلهم. لدي بيت كبير أعيش فيه مع ابنائي وأحفادي. لكن لديّ بيت كبير آخر لراحتي. بيت فيه كل وسائل الراحة التي تحلم بها الكثير من العوائل العراقية. لا أحد يعرف به، حتى أبنائي لا يعرفون عنه شيئًا. لذا أقترح عليك، بكل وضوح وصراحة وصدقدق، بأن تعيشي فيه معززة مكرمة... ستكونين في حمايتي ورعايتي وتكونين موضع اهتمامي. وهذا الملف سأخذه معي وأحرقه. فاسمك غير موجود كمعتقلة وسجينة هنا في هذا المكان....أنا واضح معك وصريح جدًا ولن ألف وأدور. أنت، وبصراحة شديدة، قد أعجبتني. وأنا رجل وحيد على الرغم من وجود ابنائي وأحفادي، سأعوضك عن كل ما عانيتيه هنا. المهم أريدك أن تكوني معي وتحت رعايتي. مخلصة لي ولأسراري. فلن يعرف بك أحد، ولن يعرف أحد من أنت وأين كنت.. فما هو رأيك..؟.

ذهلتُ وأنا أستمع إليه. واستغربت اقتراحة وكأنه هبة من السماء التي تعزضني عن اشهر الذل والإهانة التي عشتها. كان اقتراحه صدمة مفاجئة. صدمة غير متوقعة. ومع ذلك أخذتُ

أزن الأمر في ذهني.

فالرجل كان واضحًا وضوحا شديدًا. طيبًا فقد قال ما قال بنبرة محايدة ولطيفة ولا أثر فيها للأمر، كانت نبرته محايدة ومقنعة. لكن قبل أن أجيبه طُرق الباب. فانتبه، واستعاد قساوته ورزانته المرتبطة بموقعه، وقال:

أدخل.

دخل أحد التابعين وأدى التحية، ثم قال:

سيدي.. وصلتْ وجبة جديدة. وجبة مختلطة من الشيوعيين ومن عملاء إيران، فما هي أوامرك سيدي؟

خذوا اعترافاتهم بوسائلكم المعهودة. واكتبوا محاضركم وتقاريركم. أريد قائمة بأسمائهم وأعمارهم، ومهنهم. وتكون جاهزين لأوامري.

أدى التابع التحية وخرج.

اِقشعر جسدي حين سمعتُ ذلك. خفتُ من هذا الرجل الذي أمامي. لقد اِنقلب فجأة وكشف عن حقيقته المستبدة والعنيفة والوحشية. وانتبهت لجملته «وكونوا جاهزين لأوامري». كلهم هكذا.

فكرتُ لحظتها بأنني إن رفضت اقتراحه، فسيكشف عن وجهه المخيف هذا، فأما سينتقم

مني ويبدأ التحقيق معي وسأخضع للتعذيب أو أنه، كما قال، سيرسلني لأحد بيوت الترفيه ما دام اسمي غير موجود في سجل السجناء والمعتقلين. وسرتْ رعشة خوف في روحي.

نظر إليّ وكأنه انتبه بأنه كشف عن طبيعته اليومية أمامي، فقال:

هذه الأمور من مستلزمات المهنة. العنف هو الحل الوحيد لانتزاع الاعترافات من هؤلاء العملاء... والآن.. ماذا قلت في اقتراحي ..!

فتمتمتُ لا إراديًا:

أنا موافقة.

انبسطتْ أساريره، وقال:

على بركة اللّٰه.

وانحنى إلى جانب كرسيه وحمل من الأرض حقيبة جلدية، فتحها ووضع ملفي في داخلها وأغلقها. ثم قال لي:

ستبقين في زنزانتك هذا اليوم. في المساء سأجيء بنفسي وأخرجك من هنا. لا أريد لأحد أن ينتبه الآن لخروجك. اتركي الأمر عليّ. سأبقيك إلى نهاية الدوام هنا. وأنا بعد نهاية الدوام سأذهب إلى بيتنا، بيتنا أنا وأنت، أو بالأحرى بيتك، كي أجهزه بكل ما يلزم. اتفقنا.

ومساء سأعود لآخذك من هنا.
لم أقل شيئًا. كنتُ مرعوبةً من هذا التغيير الذي طرأ على وضعي فجأة. وكأني في حلم، وسمعته يكرر سؤاله:
هل اتفقنا؟
فتمتمت بخفوت:
اتفقنا.
فجأة، سألني وكأنه يسأل طفلة:
هل تريدين البقاء هنا في المكتب أم تودين أن ترجعي لزنزانتك.؟
هل تصدق هذا ياآدم؟ فعلى الرغم من نظافة المكتب، وراحة الكرسي الذي أجلس عليه، وحسن تعامله معي، والآمال التي منحني إياها قياسًا إلى وضعي. إلا إنني وددتُ أن أكون وحدي، منكمشة على نفسي، في زنزانتي.
قلت له على استحياء:
أريد أن أنام قليلًا.. لم أنم البارحة جيدًا.
نظر إليّ طويلًا وكأنه يدرسني ويدرس رغبتي في أن أعود لزنزانتي. لم يقل شيئًا، لكني انتبهت إلى أن رغبتي بالعودة إلى زنزانتي لم تعجبه، وكأني بذلك رفضته، ورفضت ما يسعى لتقديمه لي. فضغط على جرس أمامه، فطرق الباب أحد

التابعين. وصاح به بنبرة آمرة:
أدخل.
فدخل التابع الذي اقتادني من زنزانتي، والذي كان يضاجعني بعد نقل الضابط الذي اغتصبني. أدى التابع التحية، فقال له:
خذها إلى زنزانتها. لقد اتصلتْ الجهات العليا تسأل عنها. لا أريد أن تذهب إليهم وعليها آثار التعب والإرهاق. مفهوم. جهزوا لها طعاما جيدًا لحين عودتي. ولا أريد اية تصرف غبي معها. لننته من هذا الموضوع من دون شوشرة..! مفهوم..؟
مفهوم سيدي.
هيا اذهبي معه.
قمتُ عن الكرسي. كان التابع واقفا. وحين صرت إلى جانبه أدى التحية، واقتادني من ذراعي خارجًا. وفي الممر، همس في أذني:
ألم يفعل لك شيئًا هذا الثعلب العجوز.؟
لم أجبه. لكنه فهم بوضوح من كلام مدير السجن بأنني لن أبقى طويلًا في هذا المكان. وإن هناك من يريدني من الجهات العليا.
أطرق آدم الحارس برأسه، وهو يستحضر سينمائيًا كل ما روته حواء الضائعة، وأراد أن

يعرف بقية الحكاية فسألها:

وماذا جرى بعد ذلك.. ؟

ماذا جرى..؟! هؤلاء بيدهم السلطة المخيفة والوحشية. هم يفعلون ما يشاؤون.

هل خرجتِ من المعتقل؟

صمتتْ للحظات، ثم واصلت:

نعم.. لكن في ذلك اليوم نفسه، وقبل أن يحل المساء، سمعتُ ضجيجًا وخطوات راكضة، وفوضى داخل السجن. كنت أنا وحدي منكمشة على نفسي جالسة على سريري. كنتُ أفكر بمقترح مدير السجن الذي لم يعد مقترحًا وأنما قرار واتفاقًا ينتظر التنفيذ. وحينما فتحت الزنزانة، فوجئت بأحدهم يحمل صينية فيها رز وفخذ دجاج مشوي وصحن فيه شورية وقطعة من الصمون وتفاحة. فهمست لنفسي:» ما هذا الدلال«!! لكني سألت التابع من باب الفضول:

ماذا جرى؟ سمعتُ ضجيجًا.

فهمس لي المكلف بتوزيع الطعام:

مات شابان تحت التعذيب، أحدهما شيوعي والآخر إسلامي. وسيتم إعدام بعضهم الليلة من دون محاكمة. وبعضهم سينقلون إلى مكان مجهول آخر بأمر من مدير المعتقل الجديد.

ماذا؟ قال آدم الحارس مستغربًا.

نعم.. هذه هي بغداد.. كابوس طويل يمتد منذ قرون.

وأنتِ؟

أنا.. لا شيء. كان مدير السجن عند وعده. فقد جاء وحده في وقت متأخر من المساء بسيارته، من دون سائقه الشخصي. دخل مكتبه، وطلب باستقدامي إليه وكأن أمرًا خطيرًا قد جرى وإنني مطلوبة من قبل الجهات العليا. طلب إخراجي ووضعي في سيارته، قائلًا لهم بأن الجهات العليا طلبت استحضاري فورًا. وهذا ما جرى.

أخذني بسيارته إلى بيته، أو بيتي كما قال لي. وكان في منطقة جيدة حديثة البناء، لكنها تقع في أطراف المدينة وبعيدة عن مركزها. وفعلا، كان البيت كما وصفه، حديثًا ومجهزًا بكل شيء. كان قصرًا. ولم أصدق إنني سأعيش في هذه الرفاهية.

وبدأت حياة أخرى. وقد أحتجتُ إلى بعض الوقت كي أنسى ما مر مر بي من أهوال. وكي أعتاد هذه الحياة الجديدة وتفاصيلها الممتعة. واستعدت رونقي وصحتي ولوني المشرق.

لـم أعـد تلـك الفتـاة اللطيفـة، الذكيـة، المتقـدة بالطمـوح والأفكار العظيمـة، ابنـة الرجل السياسـي اليسـاري الـذي مـات فـي سـجن نقرة السـلمان ودفن فـي الصحـراء ونبشـت الذئـاب قبـره والتهمـت جثتـه، أو تلـك التـي أختهـا أشـعلت النـار فـي جسـدها لأن زوج أمهـا اغتصبهـا. والتـي قتلتْ أمهـا زوجهـا وماتـت فـي السـجن. ولا تلـك الفتـاة التـي تـم اختطافهـا نتيجـة وشـاية كاذبـة فأُغتصبتْ فـي السـاعة الأولـى مـن اعتقالهـا. وصـارت تتنقـل مـن مغتصـب لآخـر، إلى أن صارت عشيقة ثعلب عجوز.

بصراحـة شـديدة حـدث انقـلاب فـي حياتـي. عشـتُ حيـاة مرفهـة. كل شـيء متوفـر، مـن طعـام إلـى الملابس إلـى مـواد التجميـل ووسـائل الترفيـه، إلى المال. فقد كان يغدق عليّ بالمال.

وطبعًـا كنـت سـجينته. لا أسـتطيع الخـروج إلا بعلمـه. وكنتُ أوفـر لـه المتعـة. كنتُ عشيقته التـي يغـار عليهـا مـن الأشـباح. كنـت سـجينة فـي قصـر. وبصراحـة شـديدة فقـد اعتـدت عليـه، بـل ونشـأت فـي أعماقـي مـا يشـبه الـولاء التمسـك والعرفـان نحوه.

فهـو الـذي أخرجنـي مـن غياهـب سـجن غامـض ونقلنـي كالجنـي إلـى عالـم جديـد وسـاحر. كنـت

أشبه بالعرائس اللاتي يخطفهن الجني ويحبسهن في قصره. هم خطفوني من الشارع وزجوا بي في الزنزانة، وهو خطفني من الزنزانة وحبسني في قصره.

في بداية الأمر كان يأتيني يوميًا، نهارًا أو ليلًا، يقضي وطره منه ويغادر. وبعد ثلاثة أشهر صار يأتي لمرتين في الأسبوع. بل وصار غير قادر على الممارسة، لذا أخذ يأتيني بفيديوات إباحية، نشاهدها معا، وحين يتهيج يأتيني لنمارس كل ما شاهدناه في الفيديوات.

أحسستُ أنه تعلق بي جدًا، لكن كعشيقة صرت ملكه وتحت يديه، يستطيع أن يطلب منها ما يشاء وعليّ تنفيذ رغباته من دون نقاش أو استفسار.

كنت أحيانا أشتاق لرؤية أختي وأخوتي وعمي، لكنني لا أستطيع أن أستعلم عن أوضاعهم خوفًا منه، فقد كنتُ مقطوعة عن العالم، ولا علاقة لي بالأشياء إلا من خلاله. وذات مرة، حينما كان يزورني وقرر المبيت عندي، أشرت بطريقة غير مباشرة لرغبتي معرفة أوضاع أهلي، فغضب جدًا وحذرني من التفكير في هذا الأمر مرة أخرى.

بعد أشهر عديدة صارت زيارته تقل. هل تصدق صار القلق ينتابني، والغيرة مثل أفعى تتحرك على صدري، وتمشي العقارب في رأسي. هل تعلقتُ به؟ هل أحببته؟ لا أدري. لكن الغريب في الأمر، إنه ذات مرة اتصل بي هاتفيًا وقال لي:

سأرسل لك سائقي، يمكنك أن تطلبي منه أن ما تحتاجين إليه وعليه تلبيته. إنه موضع أسراري فلا تترددي.

فوجئتُ، وخمنت في نفسي بأنه ربما يحاول أن يختبر إخلاصي ووفائي له، لذا قلت له:

لا حاجة إلى إرسال سائقك. لا أحتاج إلى أي شيء، وإذا ما احتجتُ لشيء فيمكنني أن أخبرك وأنت تأتي لي به. لا أريد أن يراني أحد.

أحسستُ أنه ارتاح لجوابي، فأخذ يتغزل بي ويعبر عن شوقه لرؤيتي. ومع ذلك لم يأت تلك الليلة.

كانت عزلتي ووفرة الوقت لعدم انشغالي بشيء فرصة لي كي استعيد اهتمامي بالقراءة، لكنني فقدتُ طموحي ورغبتي في أن أكو ن باحثة، فاتجهتُ لقراءة الرواياتِ، ومشاهدة الأفلام عبر الأقراص المدمجة.

كان البيت قصرًا جميلًا على الطراز الغربي. وفيه صالة كبيرة تتوسطها مدفأة حجرية جميلة، لكننا لم نشعلها قط، علمًا هناك أكوام من الحطب المقطّع متكدسة في السرداب، وهو طابق كامل تحت أرضي. لذا كنت كثيرًا ما أستخدم التدفئة الكهربائية في أيام الشتاء. وكثيرًا ما كنت أود إشعال المدفئة الحجرية لكني كنت أتكاسل من الذهاب إلى السرداب تحت الأرضي لحمل الحطب.

عزلتي ولّدت في نفسي خوفًا مجهولًا لا أعرف مصدره. أحيانًا كنت أشعر بأن البيت مسكون بالأشباح. إذ يحدث بين فترة وأخرى أن أسمع صرخاتٍ وضجيجًا يعلو في جنبات البيت لا أعرف من أين يأتي!؟ أكنت أسمع ضجيج حركة كراسي وطاولات تسحب، سقوط أشياء معدنية، وقع خطوات، حوارات خافتة كالهمس، إلى جانب أشياء أخرى.

كنت أخبره بها فكان يستمع لي بانتباه وجديه في بداية حديثي، ثم يضحك مني بعد ذلك لطفولة أفكاري ويمازحني بأنني من شدّة خوفي أتخيّل أشياء مضحكة، مع أنني لم أكن أتخيل تلك الأشياء، بل كنتُ أسمع تلك الأشياء بوضوح وواقعية.

وماذا جرى بعد ذلك؟ هل كان البيت مسكونًا فعلًا بالأشباح؟ سأل آدم الحارس بفضول.

صمتتْ المرأة قليلا وقالت:

نعم..كان مسكونًا بأشباح بشرية.

لم أفهم..؟!

سأفهمك.

وأنا أسمعكِ..

لقد أخبرتكَ بوجود مدفأة حجري في الصالة. وذات ليلة باردة لم يأت عشيقي إليّ فيها. أصابني الأرق وأنا ساهرة في الصالة، كنت أشاهد فيلما أميركيًا رومانسيًا فيه العاشقان يحضنان بعضهما ويجلسان أمام المدفأة المتقدة، لذا راودتني رغبة قوية في أن أوقد المدفأة الحجرية..!. ولأني أعرف أن قطع الحطب موجودة في السرداب تحت الأرضي، لذا قررت النزول إلى السرداب، لكنني سمعت ضجيجًا، وصرخات، وخطوات تمشي على البلاط، وطاولات تُسحب فتصدر صوتاً مزعجًا، وإنطباق أبواب بقوة، بل وسمعت هدير محرك سيارة وصلتْ حتى ظننت أن عشيقي قد وصل، لكن لا أحد دخل عليّ.

سمعتُ كل شيء، لكنني خفتْ، وعرفتُ بأنني

لا أتخيل الأشياء كما يحاول عشيقي أن يوهمني، فهناك شيء ما يحدث في الجانب الخلفي من البيت الذي ينفتح على طريق خاص به. لذا لم أنزل لجلب الحطب، وأنما صعدتُ لغرفتي، وأجّلتُ النزول إلى السرداب إلى نهار اليوم التالي، لكني بقيت أفكر في هذا الأمر إلى ساعاتِ الفجر الأولى.

في اليوم التالي صحوتُ متأخرة من النوم. بل صحوت على دغدات عشيقي في الفراش. فقد وصل وأنا نائمة. ولم يهدر الوقت لذا سرعان من عرّاني وأخذ يقبلني من كل زواياي بشغف حتى أثارني، فأقبلت عليه، لكنه همد بسرعة.

كان عاجزًا عن تلبية شبقي. ورأيت الانكسار في نظراته، فأثار شفقتي، وواسيته بأنه ربما تعب من السهر، يمكن أن نعوض ذلك مرات أخرى. وغادرتُ السرير لأستحم ولأطفئ ناري بنفسي.

وبينما كنت أتحمم سمعته يودعني من وراء الباب، ثم سمعت وقع خطواته وهو ينزل السلّم، ويطبق الباب الخارجي. وتناهي إليّ هدير محرك سيارته وهو يتلاشى.

حين انهيت استحمامي توجهت إلى المطبخ

في الطابق الأرضي فأعددت لنفسي فنجان قهوة. لكن البرد كان شديدًا.، لذا عاودتني رغبة إشعال المدفأة الحجرية، فقررت الذهاب إلى السرداب كي آتي بالحطب. فالوقت نهارًا، والمخاوف تأتي ليلًا عادة.

أرتديت ملابس دافئة ولبستُ معطفًا، سميكا ودافئًا، وخرجت إلى الجهة الخلفية من البيت حيث باب السرداب.

حين وصلت باب السرداب أخرجت المفتاح الذي لديّ، لكني وجدتُ الباب مفتوحًا. دفعت الباب ونزلتّ. انتبهت إلى أنني أنزل للسرداب لأول مرة مع أنني أعيش هنا منذ ما يقارب السنة، على الرغم من أنه حدثني عنه في اليوم الذي جاء هو بي إلى هنا، ووقفنا أمام باب السرداب لكنه كان مقفلًا، وكان الوقت ليلًا لذا لم ندخله. وأخبرني حينها بأنه مليء بالحطب إذا ما شئت إشعال المدفأة.

أول ما نزلتُ السلّم ضغطتُ على زر الكهرباء فأضاء وسط السرداب بضوء باهر قوي. نزلت بحذر، لكن بإطمئنان، فالضوء الباهر أزاح عني بعض الخوف الذي تولده العتمة.

حين صرت في السرداب صُدمت. لم يكن

مجرد سرداب توضع في براميل زيت المولدات وأكوام الحطب، وأنما كان صالة كبيرة تتوزع فيها غرف مكتبية. وحين اقتربت من الجهة اليمنى من السرداب وجدت ما يشبه غرفة العمليات الطبية..!

اقتربت أكثر فرأيت السرير الطبي، وهو ملطخ ببعض الدماء..! وشممتُ رائحةً زنخةً تأتي من برميل صغير. وحين دستُ على لسانه الأرضي ارتفع الغطاء فرأيتُ أكوامًا من الشاش الملطخ بالدماء، وكان واضحًا من لون الدماء أنها ما زالت طرية.

سرتْ رعشة في جسدي. ما الذي يجري هنا؟ أين أنا؟

دخلتُ غرفة خلفية مضاءة، فرأيتُ طاولات عليها ما يشبه الصناديق الفلينية المثلجة لحفظ الأشياء. كانت الغرفة مبردة جدًا، فراودني الشك والفضول لمعرفة ما فيها. وحين رفعت غطاء الصندوق الفليني المبرد الأول رأيتُ كيسين، في كل كيس سائل غير قابل للإنجماد، وفي كل كيس ثمة كلية محفوظة فيه.

ارتددتُ خوفًا إلى الوراء..! أغلقت الصندوق بسرعة، وفتحت صندوقًا آخر فرأيت ما رأيته

في الصندوق الأول، لكني لم يكن في الصندوق كلية وأنما كان قلبًا بشريًا موجودًا في الكيس المليء بالسائل.

غادرتُ الغرفة، ثم السرداب، ولم أشأ أن آخذ الحطب معي، كي لا يعرف أنني نزلت إلى السرداب، وأنني عرفتُ ما يجري؟ هل هو يتاجر بالأعضاء البشرية..؟ لكن لمن يبيعها؟ ومن هم هؤلاء الضحايا؟

أصابني الذهول، فصعدتُ السّلم راكضةً، مرعوبةً. ومن شدّة خوفي ورعبي، تزحلقت على السلّم، وتمزق جلد ركبتي قليلًا. صحيح أن الأذى لم يكن كبيرًا لكن تمزق جلد ركبتي أوجعني، لذلك ما أن وصلت الطابق الأول حتى أسرعت للمطبخ وفتحت خزانة مثبّتة على الجدار وأخرجت سائلًا معقمًا ومسحتها بقطعة قطن من قطع تنظيف الوجه من المكياج. ووضعت المفتاح في مكانه في زاوية إحدى الخزانات.

وبينما أنا في المطبخ سمعتُ هدير محرك سيارة يتجه نحو البيت فأسرعت متخفية. صعدتُ إلى الطابق الأعلى، وتوجهت إلى إحدى الغرف التي تطل على الجهة التي يقع فيها باب السرداب.

بقيتُ واقفةً خلف الستائر. أرى من سينزل من السيارة من دون أن يراني. انتبهت إلى أن سائق السيارة شاب وسيم. فجأة، نزل اثنان يلبسان ملابس برتقالية تشبه ملابس رجال إطفاء الحرائق في الأفلام، ويضعان قناعًا يشبه القناع الذي يلبسه الجنود في الحروب تجنبًا للغازات الكيماوية. وتوجها نحو باب السرداب.

بقيت متسمرة في مكاني. وأخذتُ أسأل نفسي: من هؤلاء؟ ومن أين لهم مفتاح السرداب؟ وماذا يفعلان هنا؟

لم أبق طويلًا متسمّرة عند النافذة حتى رأيتهما يخرجان وهما يحملان الثلاجات اليدوية الفلينية، التي رأيت في أحدهما كليتين وفي الآخر قلبًا في محلول. قفل أحد الرجلين البابَ وتوجها إلى السيارة. وغادروا المكان.

شلني الرعب. من هؤلاء؟ ومن أين لهم مفتاح السرداب؟ ومن هو هذا الرجل الذي هو الآن عشيقي؟ أمن المعقول أنه لا يعلم بمجيء هؤلاء؟ ولا يعلم بما يجري في السرداب من المتاجرة بالأعضاء البشرية؟ ثم أين الجثث التي يسرقون منها الأعضاء البشرية ؟و من أجل أن تستفيد من قلب ما لأجراء عملية زرع قلب أو استخدام

الكليتين، يجب استخراجهما من جثة شخص لم يمت منذ فترة طويلة..!. لكن من هم هؤلاء الذي يستخرجون الأعضاء من أجسادهم؟.

وراودتني فكرة مجنونة بأن أنزل للسرداب ثانية. ولكي أأمن وضعي وأتأكد من عدم مجيء عشيقي بشكل مفاجيء قمت بالإتصال به وطلبت منه أن يشتري كمية من الفواكه والكرزات والمكسرات حينما يأتي إلى البيت، فقال لي حينما يخرج من مكتبه سيمر على الأسواق ليلبي طلباتي كلها.

اطمأنتْ نفسي بأنه لا يزال في المكتب. أخذت مفتاح السرداب من مكانه الذي وضعته فيه، وخرجت من باب الصالون، المطل على الحديقة، وتوجهتُ إلى السرداب مستديرة إلى الجانب الخلفي. كل هدفي كان معرفة مكان الجثث.

حين نزلتُ بعدما أشعلتُ الضوء. أخذت أفتش في زوايا المكان، لكني لم أعثر على أي شيء. بل حتى الجردل الذي كان فيه قطع الشاش الملوثة بالدم كان نظيفًا، إذن، أدركتُ بأن هذين الأثنين اللذين دخلا السرداب وأخذا الأعضاء معهما قد قاما بتنظيف المكان، بل إنني لم أعثر

على كيس القمامة..!

وانتبهتُ لوجود ما يشبه النافذة المغلقة بالصفيح لديها مقبض جانبي، وحينما أزحتها جانبا تكشفت لي عن ممر صفيحي يفضي إلى برميل للقمامة خارجًا. إذن هنا مؤسسة كاملة، منظمة، ومرتبة على أفضل ما يكون؟. ومع ذلك فكرت مع نفسي بأنه لا بد من مكان تُخزن فيه الجثث.!؟

لم أترك غرفة لم أفتحها، لكن لا أثر للجثث، إلى أن دخلتُ غرفةً، كانت كما هو واضح لي مكتبًا أنيقًا، وفي داخله مكتب زجاجي آخر. كان مفتوح الباب. فدخلته.

سحبتُ جارورًا من جوارير المكتب فرأيت ملفاتٍ عديدة. أخرجتها وأخذت أتصفحها. فصدمتُ. كانت تحتوي معلومات عن شباب وشابات، مع صورهم وأسمائهم الكاملة وأعمارهم، وعناوينهم وتاريخ اعتقالهم أو اختطافهم. وتهمة كل واحد منهم: شيوعي عميل، حزب الدعوة العميل، مخرب كوردي من العصاة، كوردي فيلي من التبعية الإيرانية. وقرارات الحكم كلها كانت: إعدام رميا بالرصاص أو شنقًا حتى الموت.

صدمتي كانت ممزوجة بخوف كبير، فصرتُ

أرتجف. إذن هم يعتقلون الشباب بهذه التهم، ويعدمونهم ثم يستخرجون أعضائهم وقلوبهم، ليتاجروا بها؟ أي وحش هذا الذي أعيش معه؟ هو يبدو طيبًا ومسالمًا ومجبورًا على ممارسة العنف والأمر به، ورجلًا مسنًا يحتاج إلى الحنان واللطف، لكن كل هذه الأوصاف هي الواجهة، فخلف هذه الطباع والأوصاف يكمن وحش مخيف..!.

بقيت هناك أتصفح ملفات وملفات. هذا الأمر كما اتضح لي يجري منذ أعوام. يخطفون الناس من الشوارع بحجج شتى، ويلصقون بهم التهم جزافا أو بشكل واقعي، ويعدمون، أحيانا بقرار محكمة الثورة و أحيانًا لا يسجلون في قوائم المعتقلين فيكونوا قرابين لتجارتهم الرابحة.

لم انتبه للوقت من شدة انشغالي! فجأة رفعت رأسي أتفحص المكان فانتبهت للساعة الجدارية في المكتب، ياللهول، لقد مضى عليّ أكثر من ساعة وأنا هنا. أسرعتُ بالخروج من السرداب والركض إلى البيت.

حين دخلت الصالة رأيته جالسًا وأمامه اللابتوب. وما أن رآني حتى رأيت النار تقدح

شررًا من نظراته، وسألني بغضب:
أين كنتِ؟
ارتبكتُ وتلعثمتُ وقلت بارتباك:
لقد كنت متضايقة، فأردت أن أتمشى قليلًا، فأخذتُ أدور في الحديقة..!
كذّابة..!
كنت على وشك الانهيار فأنا منذ لقائي به لم أجده غاضبًا كما أراه الآن، فقلت:
لم أكذب عليك.. خرجت أتمشى..!
وماذا كنتِ تفعلين في السرداب؟
لا أستطيع أن أصف لك مشاعري وخوفي بل ورعبي حين سمعت تلك الجملة، ومع ذلك كنت أسأل نفسي ربما هو يخمن ولا يعرف، فأردت التوضيح لكنه واصل موضحًا:
ها هي الكاميرات سجلت دخولك إلى السرداب لمرتين. ودخولك إلى المكتب هناك وتصفحك للملفات؟ من أنتِ؟ ولماذا فعلتِ ذلك؟
ووجدتُ نفسي أنهار، كخرقة بالية، على الأرض. إذن انتهى كل شيء، وجاءت نهايتي..!؟ وليس أمامي سوى الاعتراف.
واعترفتُ بكل شيء. من رغبتي في جلب الحطب لإشعال المدفأة وصولًا إلى لحظة

دخولي إلى عليه وهو في الصالة.

كان، وهو يستمع إليّ، غاضبًا جدًا. بل كما يقال يغلي من الغضب. وكان يحدّق بتركيز في وجهي وأنا أتحدث وكأنه يريد أن يتأكد من صدق اعترافي..!

وبعدما انتهيت من قول كل شيء صمتَ هو صمتًا ثقيلًا.

طال صمته، وتفكيره في الأمر وفي ما اعترفت به، وأخيرًا قال:

إن ما قمتِ به يُعد جريمة بحق الحزب والثورة وبحق القائد التاريخي لأمتنا، عقوبتها الإعدام شنقًا حتى الموت أو رميًا بالرصاص.

لم أستطع أن أنطق بحرف واحد كانت أرتعش خوفًا مما ينتظرني. وأخيرًا قال لي شيئًا مفاجئًا:

لدي رغبة أريد أن تلبيها لي قبل أن أسلمك لهم، وإلا سأدعهم يستخرجون قلبك وكليتيك وأنت حية ومن دون تخدير..!

لم يكن بمقدوري أن أسأل عن رغبته فالخوف شل لساني، لكنه واصل:

أريد من سائقي أن يضاجعك أمامي، بشرط ألا تصلا، لا أنت ولا هو، إلى الذروة، وإذا ما

حدث ذلك فأني سأقتلكما كلاكما.

لم أصدق ما سمعت! ما به هذا الرجل؟ هل مو مجنون أم مريض؟ هل علي القبول أو الرفض؟ وهل بمقدوري أن أرفض أصلًا؟..وصرخ بي:

اتفقنا؟

فهززت رأسي إشارة إلى الموافقة. فصرخ مجددًا:

هل عرفتِ شروطي؟ ألا تصلي إلى الإثارة والشهوة ثم الذروة. وإذا ما حدث ذلك فليس أمامك سوى الموت. هل فهمتِ؟

ومرة أخرى هززت رأسي إشارة للفهم.

وأخذ هاتفه النقال وأتصل بأحدهم. طلب منه المجيء فورًا. فخمنّت أنه اتصل بالسائق.

غريب هذا الرجل؟

قال آدم الحارس ثم واصل:

ظننته سيقتلك فورًا لأنك كشفت سره وسر من يقف خلفه من ذوي النفوذ..!

ومن قال لك إنه لم يفعل..؟

كيف؟

أسمعني ولا تقاطعني

صار. إنني اسمعك.

وواصلت حواء الضائعة سرد حكاية ضياعها:

بقيتُ على وضعي المنهار. منتظرة مجيء الرجل الذي سيضاجعني أمامه. وكنتُ خائفة من نفسي ومن جسدي وردود فعله التي لا أستطيع السيطرة عليهما أحيانًا. إذ يحدث أن المرأة ترفض الرجل الذي يضاجعها لكنها لا إراديًا ولأسباب بايولوجية تثار.

لم تمض سوى نصف ساعة أو أكثر بقليل حتى رن جرس الباب، وفي اللحظة نفسها رن هاتفه النقال. فعرفت أن الرجل المنتظر قد وصل وهو يتصل ليبلغ عن وصوله.

حين دخل، وقفا للحظات عند باب المدخل. وما أن شاهدتهما عند المدخل حتى تذكرت سائق السيارة الوسيم، التي وصلت لحمل الأعضاء مع الرجلين المقنعين.

ويبدو أن عشيقي قد شرح له اللعبة والأمر برمته، لكن ربما لم يخبره بالشرط في عدم الوصول إلى الذروة، لأن اللعبة انتهتْ بشكل مأساوي.

فحين وصلا إليّ، أخذني عشيقي من ذراعي وجرني خلفه إلى غرفة نومنا في الطابق الأعلى. كنت أسير خلفه قليلا بشكل ذليل وطيع. وخلفنا الرجل الوسيم.

ياللرجل الغريب؟

ما أرويه قد لا يصدقه أحد..! ولو كُتب في رواية لظن القراء إن القصة مختلقة ومبالغ فيها. وكتبت من أجل الإثارة لا أكثر، لكن صدقني هذا ما صار ووقع..!

أصدقك.. لا يعنيني إن لم يصدقك أحد..أنا أصدقك.. والآن ماذا جرى في ما بعد؟

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه المرأة وقالت:

حين دخلنا الغرفة انتحى هو جانبًا، وجلس على كرسي جلدي وثير. وصرنا أنا والسائق الوسيم أمام السرير. وقبل أن يأمرنا بالبدء قام هو إلى خزانة الملابس وأخرج منها مسدسين. ثم جلس وأعطانا إشارة البدء، موجهًا كلامه إلى الشاب: «أريد منك ألا تنتبه لوجودي هنا.. افعل بها ما تشاء. إنها لك وحدك..! خذ حريتك معها. اخترقها من كل الفتحات الموجودة لديها. لك الحرية في كل ما تفعله ولا تفكر بوجودي هنا أصلًا. لا عيب ولا خجل ولا خوف. أريدك أن تريحها جدًا».

استشعر السائق الوسيم بشذوذ مسؤوله، لكنه لم يأبه لذلك، فشبقه وشهوته لهذه المرأة قوي

جدًا. وفعلًا. بدء فيلم التعري الحي أمام عينيه.

كان واضحًا بأن السائق الوسيم يشتهيني فعلًا، فجردني من ملابسي فبقيت في سروالي الشفيف، وأخذ يقبلني من وجهي ورقبتي وكتفي ويعصر نهديّ ونزل ليعريني، ثم ليجردني من سروالي وأخذني إلى السرير. وألقاني عليه، ثم تجرد هو من ملابسه كلها.

كان فيلما خلاعيًا إباحيا كما في الفيديوات التي كنتُ أشاهدها مع عشيقي. وفي سري، برغم الوضع الغريب الذي أنا فيه، قلت في نفسي لتجر السفن كما تشتهي الرياح، فأنا أعرف أن نهاية رحلتي اقتربتْ. ولم أتأسف على مغادرة هذا العالم القذر المخيف. هذا الكابوس الذي اسمه: الحياة.

كنت أحاول ألّا أنسجم مع ما يفعله معي وبي السائق الوسيم. لم يكن الأمر اغتصابًا وأنما حركات إثارة قوية. ورطتي كانت هو أنني كنت قد استعدتُ وضعي النفسي في تقبل الرجال خلال هذه السنة مع عشيقي. صحيح أنه رجل كبير وليس شابًا بكامل قوته، إلا أنه كان يمتعني، ويقوم بإثارتي من خلال المداعبة أكثر بكثير مما يقوم بالفعل معي.

وهنـا، فـي هـذه الغرفـة، وعلـى سـريري الـذي شـهد كل تجاربـي معـي عشـيقي كنـت أحـاول أن أتماسـك مـا أسـتطعتُ، وكانـت عينـاي تتحـركان باتجاهيـن، فعيـن مركـزة علـى مـا يفعـل هـذا الرجـل الوسيم والأخرى تدور لترى ردود فعل عشيقـي.

كان السـائق الوسـيم نشـيطًا وحيويًا. ولأول مـرة أشـعر بوجـود رجـل حقيقـي معـي. وحيـن اخترقنـي وأولجـه فـيّ شـعرت بلـذة عظمـى، فمسـكت فمـي بكفـي كـي لا أصـرخ، وصـرت أتحـرك وأهـز رأسـي كي لا يرى عشيقي لذتي ومتعتي.

ثـم أدارنـي الرجـل فـي وضـع كلبـي واخترقنـي مـن الثقبيـن. وحيـن أدارنـي الرجـل الوسـيم صـاح بـه عشـيقي بـأن يسـتدير بـي وبجسـدي بحيـث يكـون وجهي بالمقابل منه ليرى انفعالاتي.

تماسـكتُ، لكـن الرجـل المسـكين لـم يكـن يعـرف شـرط هـذه المضاجعـة وثمنهـا والاتفـاق الـذي جـرى بيني وبين عشيقي!

كان الرجـل المسـكين شـبقًا بدرجـة جنونيـة فأخـذ يتحـرك بـي كالثـور الهائـج. كنـت أريـد أن أصـرخ عاليًا مـن كثافـة اللـذة التـي استشـعرها لأول مـرة بهـذه القـوة، لكنـي كنـت فـي اللحظـة نفسـها خائفة من عشيقي.

وحمدت القدير حين خفضتُ رأسي فغطى شعري ملامح وجهي التي تفضح استمتاعي، لكن الرجل المسكين لم يسيطر أكثر فصرخ بكل قوته وهو يدفعه فيّ ويملأني بمائه. حينها أدركتُ موتي.!.

فقد نهض عشيقي غاضبًا. فزّ السائق المسكين. وكأنه انتبه فجأة لوجود مسؤوله المباشر الذي كان قد تناساه أثناء المضاجعة بناء على رغبته.

صاح عشيقي بي صيحة مخيفة أنستني لحظات المتعة المكتومة التي عشتها. وكأنني أفقت على ورطتي والموقف الكارثي الذي أنا فيه:

ألم نتفق؟

قفزت خارج السرير وقلت:

نعم..

إذن..؟

لم أفهم..! ما علاقتي بالأمر..هو لم يلتزم..

خرج السائق الوسيم من السرير أيضًا ووقف عاريًا. كانت ملامحه غريبة، فهو لم يفهم شيئًا مما قاله مسؤوله لي. لكن عشيقي واصل وهو يمد إليّ المسدس:

نفذي ما اتفقنا عليه..!
ماذا..؟
ألم نتفق بأن من يصل الذروة عليه أن يموت؟
نعم..
إذن نفذي ما أطلبه منك.. نفذي ما أتفقنا عليه.

شحبَ لون السائق الوسيم وهو يسمع ما يقوله مسؤوله. سحبني عشيقي من يدي وأدارني فصرت في حضنه، ظهري إلى صدره. وضع المسدس الملقوم للإنطلاق في كفيّ الاثنتين. ومسك بهما بكفيه. ووجه المسدس نحو السائق المسكين الذي كان ينظر غير مصدق ما يجري، لكنه أدرك لحظة موته، وضغطتُ، بل هو ضغط على أصبعي كي تضغط المسدس!!. فهوى الرجل المسكين فورًا على الأرض وكأن قطعة نقد تفلت من اليد.

لحظتها لم أستطع التحمل. صرتُ قاتلة، بل صيرني هذا العجوز المستبد إلى مجرمة، فلقد قتلتُ إنسانًا بريئًا. ولم أستطع تقبل نفسي، ولا هول ما قمتُ به، فخرّ جسدي بين يديه.

كنتُ عارية، ومني السائق القتيل يبلل ساقيّ. أي انحطاط بشري كنتُ أمثله حينها؟. أما هو

فقد اقترب من الجثة، وحركها بقدمه ليتأكد من موت الرجل، ثم التفتَ إليّ وقال لي:

لا تعتقدي إنني لم أراك وأنت تتستمعين أيضا. لقد رأيت عينيك ترتعشان من اللذة التي اجتاحتك. وربما وصلتي الذروة عدة مرات بينما كان شعرك يغطي وجهك. فأنتِ تحبين هذا الوضع الكلبي الفرنسي، وهو الذي تصلين فيه إلى الذروة. مصيرك لن يختلف عنه، لكن عقوبتك ستكون أقسى، فأنت رأيتِ كل شيء. هاتان العينان يجب أن تعاقبا فقد رأيتِ كلً شيء.

ثم اقترب مني وضربني بأغمص المسدس. لم أعرف ما جرى لي بعد ذلك فقد غرقتُ في الظلام.

حين أفقتُ وجدتُ نفسي مشدودةً بأربطة جلدية قوية. مستلقية على سرير طبي حديدي. وضوء باهر وقوي فوق رأسي فعرفتُ بأنني في السرداب. وسمعتُ ضجة قريبة وحوارا يجري. سمعت أحدهم يؤكد أنه من الضروري استخدام التخدير الموضوعي أو الكامل لاسيما عند اقتلاع العينين..!

وسمعت عشيقي، الذي أعرف نبرة صوته، وهو يؤكد لهم، بأنني رأيت كل شيء، وعليّ أن

أُعاقب على ذلك، وأبسط عقاب هو اقتلاع عينيّ من محجريهما من دون تخدير.
كان اثنان يحاولان أن يقنعاه بضرورة التخدير ولو الموضعي، لأن الألم والصراخ نتيجة الوجع الذي سينطلق مني ربما سيؤثر على عملهما أثناء اقتلاع العينين.
أرعبني ما سمعتُ فقد أدركتُ أنهم يتحدثون عني اقتلاع عينيّ.
ومع ذلك فقد تم تخديري موضوعيًا. وتم اقتلاع عينيّ. بعد ذلك لا أدري، وأعتقد أنهم اقتلعوا كليتيّ وربما اقتلعوا قلبي.
عند موتي، بل قتلي، ألقوا بي في صالة كبيرة، لم انتبه لوجودها لأنها من الخارج كانت جزءًا من جدار السرداب، حينها عرفتُ أنها مشرحة، وهناك التقيت باللذين ألقت بهم أقدارهم بين أيادي هؤلاء الأوغاد. وسمعتُ منهم قصصا عجيبة.
العجيب في الأمر، أنه على الرغم من اقتلاع عينيّ من محجريهما لكنني كنت أرى، بل أرى بوضوح شديد، ورؤيتي تخترق الحجب وترى ما وراء الأشياء. بل انتبهت إلى أن جلّ من قابلتهم هناك كانوا مقتعلي العيون!

ثم أخذونا فرادى من ذلك المكان. ساقوني في أنفاق مظلمة ودروب معتمة. وفجأة أدخلوني إلى هنا! ووجدت نفسي في حانة الانتظار هذه، لكنني لم ولن أنسى ما عانيته مع هؤلاء الأنذال، الأوغاد. ولا أعرف لم اشتقت إلى السيدة بغداد

السيدة بغداد؟ سأل آدم الحارس.

نعم..السيدة بغداد.. سيدة المدن والأساطير، سيدتي التي كُتب عليها أن تتحمل كل هذه المآسي والأسى الثقيل الجارح. إنها سيدة باهرة الجامل، لكنها حزينة، حزينة، مدينة مجللة بالسواد منذ لحظة ولادتها.

فجأة، تعالت أصوات قادمة من مدخل النفق. وسمعت حواء الضائعة تصرخ بي:

اهرب.. اهرب.. الأوغاد في كل مكان. الزومبي في كل مكان.

لم أتبين شيئًا، لكن الأصوات والضجيج والصرخات الوحشية تقترب. التفت ناحية الضجيج، فلم أرَ شيئًا لكني رأيت عيونًا فسفورية تزدحم وتتراقص وتسرع باتجاهي، بينما لم أر من أجساد أصحابها شيئًا. مسكت بيد الصبي آدم وأخذنا نهرول في الظلام.

(7)

منعطف النفق الجديد..

القرود.. الزومبي.. حواء اللاأحد

لا أعرف كم مر علينا ونحن نركض في الظلام. كنتُ بين فترة وأخرى التفتُ إلى الخلف فأرى في عتمة ظلام النفق عيون فسفورية تتراقص مقبلة نحونا.

أنا أعرف بأنه لا معنى للزمن في هذا النفق. لذا لا أعرف مدة الزمن الذي ركضنا فيه. لكننا، فجأة ارتطمنا بقوة بجدار من الظلام.

نعم. كان النفق مسدودًا لكنه قبل نهايته بقليل ثمة نفق جانبي، عتمته أقل من النفق الذي كنا فيه، فتراجعنا قليلًا، وركضنا في النفق الجديد.

كانت عتمة النفق الجديد تشبه عتمة بدايات المساء أو فترة الغبش، أي أننا نستطيع أن نرى إلى حد ما دربنا وجدران النفق.

أخذنا نركض في النفق الجديد. وكلما توغلنا فيه كلما تكشفت عتمته أكثر، لكن من أين يأتي

الظلام؟ ومن أين أين يأتي الضوء؟

انتبهتُ إلى أن جدران النفق صلدة أيضًا، تبدو وكأنها مطلية بمادة معدنية ملساء. وسقفه يبدو شفافًا، وكأن سقف زجاجي معتم. وربما من خلاله يتسرب الضوء الذي خفف قليلًا من عتمة النفق وكثافة الظلام.

هنا نستطيع أن نرى الجدران والأرضية وسقف النفق. هنا نستطيع أن نرى أقدامنا وهي تخطو في العتمة. وهذا ما منحنا إحساسًا بالأمان. وانقشع الخوف الذي كان ملازما لنا عندما كنا في النفق المظلم.

لم نعد نركض. إلى أين علينا الركض؟ ليس خلفنا شيء سوى الظلام، بل وليس أمامنا شيء سوى الظلام. لكن لقد انقطع الضجيج الذي كان خلفنا. بيد إنني انتبهت إلى أن النفق هنا ليس خاليًا، بل انتبهت إلى أنه بدا وكأنه سوق مقفل، سوق كل دكاكينة ومحلاته مغلقة..!.

ماذا هل عدنا ثانية إلى شارع الكتب الشهير في بغداد؟ فما أن مشينا مسافة حتى استطعت قراءة لافتة عريضة مكتوبة عليها بألوان فسفورية «مكتبة العهد الجديد»..!

وقفتُ أمامها. كانت واجهتها زجاجية. اقتربت

من بابها. وأحطتُ وجهي بكفيّ لأرى بوضوح ما في داخلها، فلم أصدق ما رأيت.

كانت المكتبة وكأنها صف أو قاعة واسعة وعميقة. يقف في أقص عمقها غوريلا. يجلس أمامه بضعة من القرود على الكراسي وهم يستمعون له، وبيد كل منهم شمعة.

بدا الغوريلا وكأنه قائد أو أستاذ يلقي محاضرة. وما أثار دهشتي أن هذا الغوريلا كان يتحدث باللغة العربية أمام جمع من القرود الذين بالتأكيد يعرفونها أيضًا ..!، فقد كان صوته يصل عاليا ، أجشًا، وواضحًا.

كان يمسك كتابًا بيده ويقرأ منه عليهم:

لقد بدأ عهدنا الجديد. لننبذ الشعارات عن الأخوة والسلام وحق الأمم في تقرير مصيرها، فكل هذه الشعارات هي خيانة وطنية وتواطؤ مع أعداء البلاد. باسم حق تقرير المصير يريدون تقسيم البلاد. في فكرنا أنه لا وجود للفرد، وأنما الفرد يذوب في الأمة، ونحن شعب القرود، أنتم كلكم تشكلون كيان الشعب. في نظرة شعب القرود الكلي يلغي الأجزاء، ويلغي فردانية أي قرد منكم.

البعض منكم يا أخوتي القرود بدأ يتأثر

بطروحـات أعـداء الشـعب، ويتغنـى، برومانسـية، بأننـا نخوض صراعًـا مـن أجل الحيـاة، لا وألـف لا، حياتنـا هـي الصـراع. إن أي اختـلاف مـع هـذه النظرة هو خيانة لمجتمع القرود.

علينـا أن نخضـع لقادتنـا. إننـا نعبـد الفعـل مـن أجـل الفعـل. ففـي الحركـة بركـة. لا تفكـروا كثيـرًا، فالثقافـة تقـود إلـى التفكيـر، والتفكيـر يـزرع الشـكوك، والشـك يفتـح بـاب النقـد. والنقـد هدفـه تخريـب تراثنـا.. تـراث القـرود الـذي نعبـده، فـكل نقد هو خيانة وعمالة وفسق وانحلال.

فجـأة انتبه الغوريـلا المحاضـر لـي. وتوقـف عـن القـراءة. ظل جامد النظرات، مستغربًا وجودي مع الصبـي الـذي كان أيضًـا قد أحـاط عينيه ليرى مـا فـي المـكان مـن وراء الزجـاج. ومـن دون أن يقـول شـيئًا مـد الغوريـلا ذراعـه وأشـار إلـيّ، فالتفتتْ القرود جميعها نحونا.

ومـن دون أي توجيـه مـن الغوريلا هـاجوا وكشـروا عـن أفواههـم العريضـة وأخـذوا يتقافـزون فـزادت القـرود المعروفـة. صعـدوا علـى كراسـيهم وأخـذوا يطلقـون صرخاتهـم الغاضبـة. وسـمعت الغوريـلا يصرخ بهم:

جاسوس. من بقايا العهد المباد.

ارتعبَ الصبي آدم حين رأى هيجان القرود وصرخاتهم المزعجة. فانسحبنا بخوف من أمام باب المكتبة، وأخذنا نهرول خوفا من اللحاق بنا، بينما ظلت صرخات القرود تصلنا، لكنها كلما ابتعدنا كلما خفت الصراخ.

في بداية الأمر أسرعنا الخطى مبتعدين من المكتبة، لكننا أخذنا نهرول بخوف تجنبًا لملاحقة القرود لنا.

كنا نهرول، ومع ذلك كنت أثناء الهرولة أفكر مستغربًا بأن أرى غوريلا يحاضر أمام مجموعة من القرود..! كيف له أن يتحدث ويحاضر باللغة العربية؟ بل كيف تواجدوا هنا في مكتبة «العهد الجديد»..؟!. وما معنى «العهد الجديد»؟ إن مثل هذا الاسم غير مسموح به في بلاد السيدة بغداد..! فهذا يعني إن عهدًا قد ولى وجاء عهد جديد؟؟؟ وفجأة تذكرت صرخة الغوريلا، وهو يشير بأصبعه نحوي:

جاسوس من بقايا العهد المباد..!

أصرتُ جاسوسًا..؟ وأي عهد مباد؟ أنا من مواليد العهد الجديد. حين تم احتلال البلاد، كنت صبيًا يتيما صغيرًا. ثم أنا لا لستُ قردًا، فربما الغوريلا لم يقصدني..؟

هرولتُ مع الصبي في أعماق النفق من دون أن نفكر إلى أين. كنت أشعر وكأنني أركض في أسواق غريبة مقفلة. في أسواق لبيع التوابل، ومكتبات، والحاجات المنزلية، والحبال والمسامير، والأدوات الكهربائية. لكن لا أحد في هذا السوق، لا أثر للحياة.

فجأة، تغير المكان، وكأنني انتقلت بثوان إلى مكان آخر، إذ وجدت نفسي أركض ومعي الصبي آدم الصغير في ممر أرضيته من الحديد وعلى جانبيه تمتد ما يشبه الزنزانات التي كنتُ أراها في الأفلام الأميركية عن السجون.

الممر طويل وكأنني أركض في أروقة سجن محكم على جانبية زنزانات مكشوفة تحجبها قضبان حديدية قوية. لكنها زنزانات مكتظة بالنزلاء. نزلاء يقفون عند القضبان وينظرون بعيون فارغة إلى اللاشيء.

فجأة، امتدت ذراع من بين قضبان إحدى الزنزانات وكأنها تشير إلينا بأن نتوقف. كانت المسافة بيني وبين الذراع التي تمتد من بين القضبان بضعة أمتار، فتمهلتُ، بل توقفتُ للحظات ثم واصلت مقتربا بحذر لأرى صاحب الذراع الممدودة.

حين صرتُ في مواجهة الزنزانة رأيتُ امرأة تجلس على كرسي وسط الزنزانة وكأنها في موضع التحقيق. لم أتبين عمرها، فعلى الرغم من فتوة ملامحها إلا إن بعض الشعر الأبيض قد انتشر بين سواد شعرها. كانت تغطي عينيها بغمامة من الجلد الأسود كما يفعل القراصنة العوران أو العميان. ومع ذلك كان وجهها يشي بفتوة امرأة.

لم تحدثني أول الأمر، بل ظلت تركز نظرها فيّ، على الرغم من عينيها المحجوبتين بهذا الجلد الأسود. كانت تبدو وهي تنظر إليّ وكأنها تراني فعلًا، وأنها تريد أن تقرأني لتعرف من أنا. وفجأة سألتني:

من أنت..؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟

وقبل أن أجيب نظرتُ إلى الصبي آدم الصغير وسألت:

من هذا الصبي؟ هل هو ابنك؟ هل فررتَ من قبرك؟

لا أعرف ما الذي منحني بعض الهدوء للحديث مع هذه المرأة. فسألتها:

من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا؟

ابتسمت بحزن وقالت:

أترد على أسئلتي بأسئلة؟ لقد سألتك أولًا ..!
أُحرجتُ، فقلتُ لها :
أنا آدم الحارس. حارس مشرحة بغداد . هربتْ جميع الجثث من المشرحة ولم يبق فيها سوانا، أنا وهذا الصبي آدم. وحين خرجت رأيت كل الجثث الهاربة تشارك في مسيرة منظمة . كما رأيت جرذان كبيرة هائلة الحجم كالخرفان مدججة بالعتاد خرجت من ساحة الميدان بشكل منظم، فتوقفت المسيرة لتتيح لها مكانا في وسطها . ثم رأيت عند الجسر مزقت الجرذان بعض الشبان المنتفض، فهربت إلى شارع الكتب القريب، فرأيت تلك الجرذان تقضم الحديد، تقضم أقفال المكاتب وتنهش الكتب وتقضم المجلدات. فهربت ومعي الصبي إلى زاوية، فوجدتُ نفسي في نفق مظلم. وفيه رأيت محطات مختلفة كلها تحمل اسم "مشرحة بغداد" . ورأيت أفعى أوكاندا كادت تلتهمني، كما رايت حشودًا من الزومبي، وكلابَ بوليسية وسيارات مظللة . وقابلت ضحايا وسمعت قصص مخيفة، إلى أن اصطدمت بجدار قادني إلى هذا النفق شبه المضيء....ورأيت غوريلا يلقي محاضرة على مجموعة من القرود، لكنه رآني

وأشـار إلـيّ فخفـت مـن هيجـان القـرود، فركضـت ويـدي ممسـكة بهـذا الصبـي، فرأيـت نفسـي فـي سـوق مقفـل، وفجـأة، تغييـر المـكان وديكوراتـه، فوجـدت نفسـي فـي هـذا الممـر الذي يشـبه السـجن حيـث تمتـد الزنازيـن علـى جانبيـه. وهـا أنـا أقـف أمـام زنزانتـك..! وبالمناسـبة، أنـا أعيـد سـرد رحلتي فـي النفـق كلمـا قابلـت أحدًا ويسـألني عـن هويتي..! علمًا إن الموتـى بـلا هويـة..فهـم موتـى..!

كانـت المـرأة تسـمع لـي وكأنهـا تعـرف كل شـيء أو مرت بكل شيء. صمتتْ للحظات وقالت:

هل أدركتَ َياآدم إنك ميت حي الآن..!؟

ماذا؟ فوجئَ آدم الحارس بالسؤال.

ألـم تكـن تريـد أن تعـرف، حينمـا غـادرتَ المشرحة، هل أنتَ ميت أم حي؟

نعم..صحيـح. ربمـا أنـا ميـت حـي..! فأنـا لا أعطـش أو أجـوع. لكنـي حـي بدليـل أنـا أتحـدث معك الآن..!.

ابتسـمت المـرأة ابتسـامة حزينـة علـى الرغم من أن الغمامـة الجلديـة تغطـي جزءًا كبيـرا مـن وجههـا. وقالتْ:

هكـذا هـم العراقيـون ياآدم..هـم موتـى أحيـاء. حياتهـم ليسـت بالحيـاة..! لكنهـم يعتقـدون بأنهـم

أحياء. فهم يأكلون ويشربون وينامون ويمارسون الجنس ويتزوجون، لكنهم ليسوا أحياء..هذه ليست حياة..إنها حياة ميتة. وأنت ميتُ حي، مثلي، ومثل كل الذين هنا. أما انتقالك وانعطافك في النفق إلى نفق أقل عتمة، فكما تعرف إن البلاد قد تم احتلالها وأُسقط النظام فيها، وجاء عهد جديد، لكننا مع ما يقارب عقدين من الزمان ما زلنا في غبش العهد الجديد. لم نتخلص من العهد القديم بعد. الزومبي في كل مكان. أبناء النظام السابق موجودون الآن بملابس جديدة، ولحى، ومسابح وخواتم في اليد.

لكن كيف أنتِ هنا؟ سأل آدم الحارس، فقاطعته وهي تواصل حديثها:

أتعرف أنت الآن في مشرحة بغداد أيضًا. هنا مشرحة بغداد التي تخص العهود كلها. العهد القديم والعهد الجديد. النفق هو نفق الخراب العراقي ياآدم.

نعم..نعم..لقد مررت بمكتبة اسمها "مكتبة العهد الجديد"، التي حدثتك عنها حيث الغوريلا يحاضر في مجموعة من القرود.

نعم.. الغوريلا.. والقرود. ستجدهم أينما اتجهت..! وكل شيء يواجهك ستراه يحمل سمات

العهد الجديد الذي لا يقل رعبًا وانحطاطًا عن العهد القديم.

فقاطعها آدم الحارس سائلًا:

سألتك: كيف أنتِ هنا؟

سكتتْ للحظات ثم واصلت:

لو رويت لك قصتي فربما لن تصدقها..!

فقال آدم بحماس:

سأصدقك.. فالموتى لا يكذبون، ولا يشككون..!

قرّبتْ المرأة كرسيها قليلا إلى الأمام وأخذت تتحدث:

لقد ولدتُ في عائلة عريقة ومعروفة معظم رجالها هم علماء دين معروفون. والدي كان من كبار العلماء. كنّا عائلة ميسورة الحال جدًا. لدينا بساتين وعقارات وفلل وقصور في بيروت وطهران ولندن. عائلة كبيرة من الأبناء والبنات، وزوجات الأبناء وأزواج البنات والأحفاد، وأبناء الأحفاد..!. كان اسم والدي محاطًا بالقداسة والهيبة والاحترام الديني. كانت عائلتنا كبيرة، وتتوزع في بيوت متجاورة حتى أن ذاك الفرع الذي نسكنه هو شبه مقفل على بيوتات أخوتي وأخواتي وأزواجهن. وكانت السيارات الألمانية، والسيارات المصفحة والمظللة،الفارهة، غالية الثمن،

تصطف أمام تلك البيوتات. ناهيك عن السيارات داخل مرائب تلك البيوت.

كنتُ أصغر الأبناء بالنسبة لأبي، ومدللته المشاكسة. وكنتُ الوحيدة التي تمردتْ على تقاليد العائلة، فلم ألبس الحجاب على غرار أخواتي وزوجات أخواني اللاتي لبسنه من عمر السابعة. ولم أحض بهذا الامتياز من غير مقابل، فقد خضت شجارات كثيرة مع أخواني وأخواتي، ونلتُ ما نلت في فترة صباي ومراهقتي من الضرب، حتى وصل الأمر بي إلى محاولة الانتحار.

لم يكن رفضي للحجاب نتيجة وعيي للحرية أو تأكيدًا لإرادة الوعي الذاتي. كان مجرد عناد ورغبة في الاختلاف وإحساس بالاختناق. كانت شعلة التمرد في داخلي متقدة.

لكن العجيب الغريب إن والدي، وهو رجل الدين المعمم الجليل، طلب منهم أن يتركوني لحالي ما دمت لا أفعل شيئًا مسيئًا لأوامر اللّه، فالحجاب ليس فرضًا. وكان الجميع ضده في هذا الأمر..! لكن كلمته بصددي كانت حاسمة.

ذات مرة استدعاني إلى صومعته. وحين جلستُ أخذ يحدثني بهدوء الحكيم فقال لي:

اسمعي ياابنتي. لقد دافعت عنك أمام أخوتك وأخواتك وأصهارك. لكني أتمنى ألا تنكسي رأسي، بل على العكس، أتمنى أن أفخر بك وأثبت لهم بأن قيمة المرأة ليس بجلابيبها وحجابها وأنما بما تنتجه من خير لأجل الصالح العام والناس. فخير الناس مَن نفع الناس. أنا سوف أدعمك، لأني أتوسم فيك الخير كله، مع إدراكي بأن حياتك لن تكون سهلة في ظل عائلتنا المحافظة والمتمسكة بالتقاليد، لكني أعدك بأني سأدعمك وأحميك ما حييتُ.

طبعا شكرتُه وقبّلتُ يديه ودعوت له بطول العمر والصحة والعافية. ووعدته بأنني لن أدع الندم يتسرب إلى نفسه لحمايتي ومنحي تلك الحرية التي تعد هائلة في عائلة محافظة مثل عائلتنا، بل وعدته بأن أجعله سيفتخر بي.

كنت حينها في الرابعة عشر من العمر. وكانت المدرسة التي أدرس فيها لا تقبل طالبات عاديات إلا هاتيك اللاتي جئن من العوائل المعروفة في مدينتنا. وكان عدم حجابي مبعث استغراب إدارة الثانوية، لاسيما وأنا معروفة النسب.

في تلك الفترة وجدت ميلا نحو القراءة. فقد كنت لا أميل لأهواء الفتيات اللواتي بعمري. ولا

أتقرب من صديقاتي في الصف الدراسي. ولا أنكر إنهن كن لطيفات، ودودات معي، يسعين إلى التقرب مني، لكني كنت شبه منطوية.

في بداية الأمر تجنبنني لأنني كنت غير محجبة. وكان هذا مصدر دهشة واستغراب الهيئة التدريسة أيضًا، كما قلت لك، لكنني كنت مجتهدة، وسلوكي، على الرغم من عدم حجابي، متحفظ وهادئ جدًا.

أنا أُعدّ من جيل العهد الجديد، فحين سقط النظام الاستبدادي السابق وتم احتلال البلاد من قبل الأميركان كنت في الصف الثالث الابتدائي. ولم يكن حالنا العائلي، على الرغم من يسره سابقًا أيضا، بهذا الهيلمان الذي وصلنا إليه في العهد الجديد.

كانت سيارة مرسيدس فارهة توصلني يوميًا إلى المدرسة التي لم تكن بعيدة، وترجعني بعد انتهاء الدوام إلى البيت أيضا، حيث لن أخرج بعدها حتى اليوم الثاني.

وكان هذا الأمر كما عرفتُ في ما بعد ضمن حجج والدتي ضد أخوتي الذين اعترضوا على عدم حجابي، بأن سيارة مغلقة تأخذني إلى المدرسة وترجعني أيضًا، فلن يراني أحد وأنا

سافرة. وفي المدرسة كلهن فتيات مثلي ولا رجل هناك، فحتى المستخدمين هم من النساء.

في تلك الفترة بدأت لديّ هواية القراءة. لدينا في البيت مكتبة هائلة، قاعة حقيقة تكتظ بآلاف الكتب. وكنت أميل لقراءة الشعر القديم، المعلقات وشعر المتنبي والمعري وأبي نؤاس وكتب السيرة، سيرة الأنبياء والأئمة المعصومين، وكتب المعتزلة والأشاعرة.

ذات يوم. وفي درس الإنشاء، قرأتْ إحدى الطالبات، وطبعًا من المحجبات، نصها الذي كتبته، وكان موضوعًا حول الفقراء المساكين. وقد أعجبني هذا الحس الإنساني بالتعاطف مع الفقراء، وإدانة المستغلين والطفيليين الذين يعيشون على جهد الآخرين من دون أن يفعلوا شيئًا.

كانت هي تقرأ وأنا أفكر بأنها تتحدث عن عائلتنا التي تصلها الهبات والتبرعات والخمس باسم الدين بينما لا يعمل أبي ولا أخوتي شيئًا سوى الإمساك بمؤسسات الطقوس الدينية التي تدر علينا أرباحًا خيالية تتكدس في حسابات العائلة في أوروبا.

صار لديّ فضول لمتابعة هذه الطالبة، وما

تقولـه، أو تفعلـه، سـواء أثنـاء الـدرس أو أثنـاء الفرص بين الدروس.

ذات يوم لمحتها تقرأ في كتاب خارجي وضعته في وسط كتاب مقرر. كان لدينا درس في التاريخ لكن المدرسة لم تأت، فبقينا أحرارًا من الدرس. لم ينتبه أحد لما تقرأ. كانت تجلس على مقعد أمامي لكن في الصف الجانبي. لذا كنت أرى إنها تقرأ في كتاب لا تريد أن يراه أحد. ولا أدري كيف حانت منها التفاتة نحوي ورأت بأنني أراها. ارتبكتْ لكنها ابتسمت لي بخجل، فمن وضعي ولا حجابي خمنّت بأني مختلفة عن البقية. ولأنه لم تكن هناك مدرسة ولا درس فقد سألتها بما يشبه الهمس:

ماذا تقرأين؟

ابتسمت لي وقالت بصوت خافت:

سأخبرك لاحقا.

فألححت لمعرفة عنوان الكتاب وسألتها:

هل هو سر؟ لماذا تخفينه بين الكتاب المقرر.؟.

فاسترخت قليلا وأجابت:

لا ليس سرًا لكن لا أحد يحبذ قراءة مثل هذه الكتب؟ وربما سيسبب سوء فهم كبير..!؟

فابتسمت لها وقلت:
خمّنت ذلك، فلا تخافي مني..!
أحست بشيء من الأمان وقالت وكأن بيننا ولد شيء مشترك :
أنا لا أخاف منك، بل أخاف من الآخرين.
فهمستُ لها بتعاطف واضح:
سرّك في بئر كما يقال.
صمتت للحظة ثم قالت :
كنت أقرأ في كتاب يتحدث عن التاريخ الخفي للإسلام.
صدمني العنوان، فقلت:
ماذا؟ التاريخ الخفي؟ هل للإسلام تاريخا خفيًا؟
فقالت بثقة:
نعم..
رددت عليها فورًا وبيقين:
هذه كتب مشبوهة يكتبها اليهود لتشويه الإسلام.
ابتسمتْ ابتسامة وكأنها تعرف أكثر مني، وقالت:
المؤلف مسيحي. وقد اعتمد على بحوث لكبار الباحثين في الفترة ما قبل الإسلام وما

سبق الوحي، والفترة التي عاشها النبي قبل التبشير بالنبوة والإسلام. واعتمد على ما كُتب من قبل المؤرخين المسيحيين واليهود والرومان في تلك الفترة. وهي فترة غامضة لا يوجد من كتب عنها في تاريخنا الإسلامي، فالتدوين بدأ في العصر العباسي، وقبله لم يكن هناك من كتب تاريخا للإسلام.

صدمتني معلوماته التي كانت جديدة بالكامل عليّ، فأيقظت فضولي، فسألتها:

وماذا يقول الكتاب؟

أحسستُ أنها ارتاحت لسؤالي وغمرها شيء من التفوق المعرفي، فقالت:

يقول الكتاب، بشكل مختصر وموجز، بأن النبي تعرّف على ما جاء في النصوص اليهودية و المسيحية، وتعرّف على قسس مسيحيين في الأديرة أثناء تنقله في التجارة، في إيلاف قريش، في رحلة الشتاء والصيف. وإنه تعرف على طائفة مسيحية متطرفة، كانت تتهم بقية الطوائف بالزيف وبأن نصوصهم مزيفة، وإنها تنتظر ظهور ماسياس، المسيح، وأن النبي تأثر بهذا الأمر، فأعلن نبوته.

صدمني ما قالت، فرددتُ باستنكار:

هـذا كفـر. كيـف تقرأيـن مثـل هـذه الكتـب الخطيرة؟ من أتى لك بهذا الكتاب؟

ارتبكت، فقالت لا إر اديًا:

أخـي. أخـي يقـرأ مثـل هـذه الكتـب، ليس هـذا الكتاب وحده وأنما هو يقرأ بعشرات الكتب التي تنظـر إلـى الديـن باعتبـاره مخـدرًا للشعوب الفقيـرة البائسـة التـي تنتظـر الحـل مـن السـماء فـي العالـم الآخر..!

كانـت صدمتـي كبيـرة. وذلـك النقـاش كان منعطفًا مهمًا في سيرة حياتي. فقد بقيتُ ليالـي وأيـام أفكّـر فـي ذلـك الإيجـاز المكثـف، الـذي لـم يدم التعبير عنه سوى دقائق لكنه نسف، لا إراديًا، عشرات الكتب التي قرأتها عن سير الأنبياء وعن الإسلام؟ وبصراحة أعجبني تفسير وسر تمسك الفقـراء بالديـن أضعـاف تمسـك الأغنيـاء بـه..! وكنـت أراه فـي وضـع عائلتـي، ووضـع الفقـراء والأغنيـاء الذيـن يأتـون لنـا بالنعـم والخيـرات والتمور والزيت كهدايا تقربا من قداسة أبي..!.

صـار لـديّ فضـول بـأن أتقـرب أكثـر مـن تلـك الفتـاة، وهـذا مـا حصـل. ولأن فتـرة حديثنـا وصداقتنـا فـي المدرسـة فقـط، لـذا بعـد فتـرة أخـذت أدعوهـا إلـى بيتنـا. اسـتغربتْ والدتـي

وأخواتي، لكن حين رأوا أنها محجبة لم يعترضوا قط، وفكروا عسى أنها ستؤثر عليّ وسأتحجب بحكم صداقتنا..!.

صار حضورها الأسبوعي مقبولًا عائليًا. وكانت تأتيني بالكتب سرًّا. بدأتُ أشعر بإزدواجية كبيرة في تفكيري وسلوكي، فأنا متحررة شكلًا لكني محافظة فكريًا، وصديقتي محافظة شكلًا لكنها متحررة فكريًا..!.

القراءات المشاكسة غيّرتني. عرفتُ الخديعة التاريخية التي وقعنا فيها، فالإسلام الذي نعرفه، بل التاريخ الذي نعرفه هو إسلام عباسي. كتبه العباسيون، فما هي مصداقية سيرة النبي التي كُتبت بعد ما يقارب 150 مائة وخمسين عامًا؟ وأحاديث كُتبت وجُمعت بعد ثلثمائة عاما من هجرته..!

وهكذا تسربَ الشك إلى عالمي الفكري. ومن خلال صديقتي تلك تعرفت على أخيها، الذي صار يرسل بيد أخته كتبًا ومجاميع شعرية لنزار قباني وهي تختلف عن دواين الشعر الكلاسيكي التي تمتليء بها مكتبتنا البيتية. وصار يسأل أخته عن رأيي بهذا الكتاب أو ذاك وهذه المجموعة الشعرية أو تلك الرواية، حتى تشكّل

بيننا انجذاب نفسي لا إرادي. وكم كنت أتمنى أن أراه لكني كنتُ أستحي أن أعبر عن أمنيتي تلك أمام أخته.

ويبدو أن أخته أدركتْ ما يجول في نفسي من كثرة أسئلته عنه وعما يفعل أو كيف يفكر..!. فذات يوم فاجئتني بإبراز صورة لشاب وسيم، وقالت هذا هو أخي. وأدركتُ لحظتها بأنه أرسل الصورة خصيصًا كي أراه، وهو ينتظر، ربما، بالمقابل أن أرسل صورتي..! لكني، بكل تحرري، لا أجرؤ على إرسال صورة لي، فأنا أصلًا لا أملك صور شخصية، فالتصوير محرم في عرف عائلتنا. لكني اتفقتْ مع أخته، حينما سألتني بجرأة بأن أخيها يرد رؤيتي، على أن ينتظر بعيدًا عن بوابة المدرسة وقت انتهاء الدوام، ويراني عندما أصعد سيارتي. وهذا ما حدث. حيث وأنا أنوي الصعود إلى سيارتي أوقفتني أخته بحجة طلب شيء أو حجة أخرى، فوقفت معها عند باب السيارة لدقائق كانت كافية له لرؤيتي من بعيد.

وهكذا بدأتْ أول علاقة عاطفية لي، التي امتدتْ لأكثر من سنتين. لكن مدينتنا كان تموج وتفور بالأفكار المتطرفة بعد سقوط النظام الاستبدادي. متطرفة في كل الاتجاهات. وفي

تلك الفوضى صار اصطياد الشباب الذي لا يسلك السلوك الديني عرضة للاقتناص والاغتيال والموت المجاني. وذات يوم وجدوا جثته الشاب عند ساقية في بستان على أطراف المدينة.

كان اغتياله منعطفًا حقيقًا في حياتي. ولأول مرة شعرتُ بالرعب من الآتي. لاسيما وأن أخته انقطعتْ عن التواصل معي، بل وعادتني، فقد تسربتْ شائعات بأن أخوتي وراء اغتياله..! كيف؟ هل كانوا يعرفون بعلاقتنا؟ كيف عرفوا؟ ولماذا لم يكلمني أيًا منهم ويسألني عن صدق ذلك من عدمه؟ أنا لم أره أو ألتق به قط، بل ولم أكتب له حرفًا، فكيف يمكن لهم أن يتهموننا بوجود علاقة؟

كنتُ أظن إن الجهات المتطرفة التي تشكلت بعد سقوط النظام، التي استولت على أسلحة الجيش الهارب، هي التي أخذت تغتال من يعارض أفكارها وتوجهاتها وتنتقم من بعض الناشطين في النظام المباد. وأعرف أن هذا الشاب لا علاقة له بالنظام السابق لكنه معارض لكل هذه الآيولوجيات الدينية المتطرفة التي تريد ابتلاع الدولة، فقد كان يحتكم للدولة المدنية ودولة المواطنة، لذا كان الاحتمال الأكبر في إن هذه الجهات هي من قامتْ باغتياله، لكن

صدمتي كانت هائلة حينما سمعتُ بأن أخوتي هم وراء ذلك!.

لم أتحدثْ قط ولم أسأل عنه ولا عن أخته التي قاطعتني، بل حتى أهلي وأخوتي لم يشيروا ولو بكلمة أو جملة ملغزة عما جرى، بل لم تسأل أمي عن سبب انقطاع صديقتي الحميمة عن زيارتي وكأنها كانت تعرف لكنها تصمت.

وأنهيت الثانوية. وتم قبولي في جامعة بغداد. اعترض أخوتي علانية على مواصلتي الدراسة الجامعية، لكني ألححتُ وقابلت أبي منفردة، ووعدني بأنه سيحدّث أخوتي. لذلك دعاهم إلى اجتماع عائلي، ليعلن أمامهم موافقته على مواصلة دراستي الجامعية، فلم يجد أخوتي بد من الخضوع على الرغم من اعتراضهم العلني، بيد إنهم أشترطوا لموافقتهم أن ألبس الحجاب والعباءة أسوة بابنة أحد رجال الدين الكبار والمعروفين جدًا، التي تدرس في بغداد أيضًا، لكنها محجبة. وكنتُ قد سمعت عنها قصصًا مثيرة على الرغم من حجابها. ولأني أردتُ التحرر من قبضتهم، لذا وافقت.

ودخلتُ مرحلة جديدة في حياتي. كان تحولًا عظيمًا. لبستُ الحجاب والعباءة، ويبدو أنهما

منحاني ملامح إثارة أشد مما حين كنت سافرة، بل ومنحاني حرية أكثر في التحرك، فالحجاب حماية من مسي بأي لفظ أو نظرة رافضة.

استأجر لي أخوتي شقة في منطقة الكرادة برعاية مجاميع من طائفتنا. ووفروا لي سيارة مرسيدس تقلني من الجامعة إلى البيت أو بعض تنقلاتي المحدودة للمتاجر الكبيرة أو المكتبات. كنتُ أعرف أنني محاطة بالعيون السرية التي تتابعني وتراقب تصرفاتي وتحركاتي. لكنهم لا يعرفون إنني أعيش حياة أخرى عبر وسائل التواصل الاجتماعي، الفيسبوك، والأنستاغرام والتليغرام والواتساب. ومواقع غامضة ومجهولة الهوية.

وسائل التواصل الاجتماعي خلقت لي حياة افتراضية أشد واقعية من حياتي الشخصية اليومية. منحتني عشرات الأقنعة والأسماء والصور. فقد كانت لدي أكثر من عشر حسابات شخصية على وسائل التواصل الاجتماعي، بأسماء وصور مختلفة..!.

كنتُ أذهب نهاية الأسبوع إلى مدينتي المقدسة. ربما حياة الافتراضية السرية جعلتني أشد مكرًا في التعامل مع عائلتي والانسجام

معها، بل وأختلاق حالات وقصص تنسجم مع تفكيرهم. وتقرّبتُ من أخواتي وزوجات أخوتي، فسمعتُ قصصًا غريبة عن علاقاتهن بأخوتي وأخوتي بأزواجهن.

إحدى أخواتي التي زُوجت وهي في الخامسة عشر من العمر باحت لي وهي تتألم بأن زوجها عاجز جنسيًا، وأنها تعاني، ولا تستطيع أن تقول شيئًا لأن ذلك سيسيء لها باعتبارها بلا حياء وأنها شبقة ككلبة. وبأنها زوجة عاقة تكشف أسرار زوجها التي تمس رجولته، بينما هي وزوجها يتظاهران بالسعادة حينما تسألهما أمي أو بقية أخواتي مازحات بأنهم ينتظرون ولي العهد!

كنتُ مستمتعًا بسردها لسيرتها، لكنني كنتُ أود أن أعرف كيف جيء بها إلى هذه الزنزانة، ولماذا تضع قناع القرصان الجلدي على عينيها، لذا سألتها مجددًا:

أردتُ أن أعرفَ كيف جيء بك إلى هنا؟

صمتت للحظات، ثم قالت:

لماذا أنت عجول ولحوح يا آدم. الموتى لا يلحون، وهم غير عجولين، فأمامهم اللانهاية.

آسف.. إنني أسمعك..!

ابتسمت بحزن وواصلت:

الجامعة فتحت لي عالمًا كنت في منأى عنه. كنت متحفظة، بل وكان الآخرون يتجنبونني أيضًا. لا أعرف لماذا؟ ربما مهابة من الوضع الذي أنا فيه، فقد كنت أصل الجامعة بسيارة المرسيدس أسوة ببنت الشخصية الدينية المعروفة الأخرى. وربما فضول العر اقيين في النبش وراء نسب أي شخص ومعر فة أصله وفصله.

بالمناسبة، أهلي لم يتركوني لوحدي، فقد كانت تعيش معي امرأتان شابتان مرسلتان من قبل أهلي لرعايتي، وتنظيف المنزل وإعداد الطعام والقيام بالواجبات المنزلية الأخرى، وكما عرفتُ كانت أمي تتصل بهن يوميًا تسفسر عني وعن وضعي بشكل عام. وطبعا هن كن ينقلن كل ما يجري، لكنهن من جهة أخرى كن لا يخبرنها بأني أقضي وقتًا طويلًا أمام الكمبيوتر والآيباد كان يرافقني حتى في سرير النوم.

وحدث ذات يوم ما غير حياتي كلها، إذ كنتُ مضطرة لأخذ الأسئلة من أحد الأساتذة في درس الفلسفة، فذهبتُ إلى مكتبه لأخذ الأسئلة من سكرتيرته، لكني لم أجدها في المكتب. وفي تلك اللحظة خرج الأستاذ من مكتبه فرآني،

فعرض خدماته ومساعدته، فقلت له بأني جئت لاستلام الأسئلة المحتملة في الفحص الفصلي، فدعاني للدخول إلى مكتبه.

ترددت، لكني وجدتُ نفسي منجذبة نحوه، فقد كان وسيمًا، مليئًا بالرجولة والملامح التي تجذبني في الرجل، إلى جانب أنني كنت معجبة بأفكاره وتحليلاته أثناء المحاضرات، لاسيما وأنه كان أحيانًا يخرج عن موضوع المحاضرة ليتحدث عن أفكار بقية الفلاسفة التي تتعارض عن المقرر التقليدي من التاريخ الفلسفي.

فمرة سأله أحد الطلبة المشاكسين عن غياب فلسفة إسلامية واضحة. كان الطالب يحاول أن يتهكم، لكن الأستاذ، مع ما معروف عنه من تعمق في الفلسفة الغربية، لكنه اتضح أن عارف بتفاصيل حركة الفكر الفلسفي في الإسلام، إذ تحدث بإعجاب شديد عن ابن سينا، وعن ابن عربي، والفارابي، لكنه تحدث عن الملا صدرا الشيرازي في كتابه (الحكمة المتعالية) باعتباره من المؤسسين لما يمكن أن نسميه بالفلسفة الإسلامية، إلى جانب شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي. وأخذ يقارن بين نظرية ابن سينا في الفيض الإلهي وما جاء في الفلسفات

الإغريقية، وفي ما بعد في فلسفة سبينوزا.

ومنذ تلك المحاضرة وجدتُ تقبلًا نفسيًا له. وكم مرة، وأنا وحدي في غرفتي، كنتُ استحضره لأخوض معه نقاشًا افتراضيًا معظمه عن الدين وحقيقة التنزيل.

وكان يحدث، وبشكل غريب جدًا، أن أفكر في موضوع محدد أو أسئلة افتراضية فكرية، وأجده في اليوم التالي يقدم محاضرة تمس السؤال الذي افترضته. حتى فكرت بأن بيننا شيئًا من التواصل التليباثي والاستحضار الر وحي.

المهم، حينها دعاني للجلوس على كرسي المحادثة أمام طاولة مكتبه. وبمبادرة رشيقة منه أزاح الرسمية في تواصلنا إذ جلس على الكرسي المقابل لي. تعجبتُ وارتبكتُ قليلًا لأني لم أجلس مع رجل بهذا القرب في حياتي قط.

شعرتُ بالسخونة ترتفع إلى خدي، وبعض الارتعاش والدغدغة في أسفل بطني، تحت السرة. وبسرعة في خفقان قلبي، وتصاعد أنفاسي حتى راودني شعور خفيف بالاختناق. ارتبكتُ. ما الذي يجري معي؟ كنتُ خائفة أن يدخل أحد ما من الطلبة أو الطالبات، أو حتى سكرتيرته فيرى خلوتي معه.

انتبهتُ إلى أنه كان يتأملني، لذا صعدتْ الدماء إلى وجهي. ويبدو أنه عرف ما يدور في خاطري، فقال:

لا تقلقي.. السكرتيرة أخذتْ إجازة زمنية. لكن لديّ سؤال..؟

تفضل...! قلت بارتباك.

لماذا أنت صامتة لا تسألين أو تناقشين أثناء محاضراتي..؟ هل محاضراتي مملة ولا تعجبك؟

ار تبكتُ أكثر وشعرتُ بالخجل، لكني استجمعت نفسي وقلت:

لا أبدًا. أنا أستمع جيدًا لمحاضراتك. وكثيرًا ما أسترجع في البيت بعض الأفكار المهمة التي ترد فيها. فهناك أشياء، بل وأفكار تذكرها لا نجدها عادة في كتب التاريخ الرسمي للإسلام وللحراك الفكري فيه على مر العصور.

ابتسم لي بأريحية ابتسامة مسّتْ روحي، وقال:

يسعدني أن أسمع ذلك. لكن بعض الطلبة يشيعون عني بأني أحاول أن أزرع أفكارًا خارجة عن الشريعة، وتهز الثوابت العقائدية لهم. فقد عاتبني العميد بأني أخرج عن موضوع المحاضرات كثيرًا وألقي على الطلبة أفكارًا

ومفاهيم تسبب لهم بعض الإرباك العقائدي.

لكني لم ألحظ ذلك. كنت بحماس وبنبرة استنكار.

ابتسم ابتسامة عريضة حتى بانت نواجذه، وقال:

مع إنك ابنة رجل دين مشهور، فقد كان الأولى بك أن تكوني من أول المعترضين وفق النظرة التقليدية، لكنك كما يبدو لي تفكرين بطريقة مختلفة. أريد أن أسألك سؤالًا.

ارتبكتُ لكن غمرتني موجة من الفرح لمديحه المباشر لي، فقلت:

تفضل.

أنت تؤمنين بأن النبي هو آخر الأنبياء وخاتمهم، كما قال هو عن نفسه.

صح.. أؤومن بذلك. وهل لديك شك في ذلك..؟

فواصل أسئلته:

وتؤمنين بأن الله إذا أراد شيئًا يقول كن فيكن..!

صح.. هو قادر على كل شيء قدير.

هل تعتقدين لو شاء الله أن يرسل نبيًا بعد نبي الإسلام لأرسل..!

صح.. ونعمِ بالله. الله قادر. وهو على كل شيء قدير.

يعني يمكن لو شاء الله أن يرسل نبيًا بعد محمد فلا يكون هو خاتم الأنبياء.

هذا صحيح.

هل تعتقدين إنك كفرتِ وارتددتِ عن الإسلام؟

لا أبدًا.. بل ينسجم مع العقل والدين.. لكن لِمَ سألتني هكذا؟

هذه الأسئلة هي نفسها التي سألها فقهاء الإسلام لشيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي، وحين أجاب مثل إجابتك حكموا عليه بالردة، وأنه يعارض كلام النبي بأنه لا نبي بعدي.

لكنهم بذلك يقللون من قدرة الخالق الذي هو قادر على كل شيء...وماذا فعلوا به..؟

يقال تركوه في زنزانة بقلعة حلب حتى مات عطشًا وجوعًا. ويقال إنهم خنقوه بحبل حرير.

ما هذا؟ قلت مستنكرة.

هذا هو جزء من تاريخنا الفكري.

وأخذ يحدثني عن ابن سينا وكيف سمموه. كنت أعيش أحلام يقظتي بينما هو يتحدث. وتطرق ليروى لي بعض جوانب حياته. ومر الوقت. انتبهت إلى أننا تحدثنا أكثر من ساعة

وربع. لم يكن الحوار والحديث بين أستاذ وطالبة. لا أعرف كيف أطلق على تلك المشاعر والعلاقة اسمًا. وأخيرا بكل جرأة سألني إن كنت لا أمانع بأن نتواصل هاتفيًا، وأعطاني معرّف صفحته على الفيسبوك والتليغرام. وتبادلنا الأرقام الهاتفية والرموز...ذلك اليوم كان بداية لحياة جديدة.

في مساء ذلك اليوم كنت متلهفة ومنتظرة اتصاله. كنت كالمراهقة. خلال ساعة نظرت وفتشت في هاتفي النقال عشرات المرات. ودخلتُ على صفحته الفيسبوكية فوجدتها شبه رسمية. ربما هو يتجنب سوء الفهم. والحقيقة خاب ظني بها. حتى قائمة الأصدقاء محدودة جدًا.

اجتاحتني كآبة غير منتظرة. كنت أعرف أن كآبتي هي بسبب عدم اتصاله، حتى أن المرأتين اللتان معي انتبهتا لحالتي، فسألتني إحداهما عما بيّ؟ فتحججت بقدوم الامتحانات التي تتطلب مني الدراسة والبحث في مكتبة الجامعة. ولا أعرف لماذا قلت ذلك، لأن هذا الأمر ساعدني في ما بعد كثيرًا.

حين انفردتُ بنفسي في آخر المساء بغرفتي

وأخذت أتجول في عالم الفيسبوك، وصلتني رسالة غريبة على المسنجر، الاسم غريب عليّ، لكن مضمونها أفرحني. فقد جاء النص يشير إلى أن صاحبها هو الدكتور آدم المدني. وهذا أيضًا حسابه لكن غير الرسمي والمقنّع.

ترددتُ في البداية بأن أجيب عليها، لكني لم أطق صبرًا، فكتبت له سائلة كيف لي أن أعرف بأنه هو؟ فطلب أن نفتح الكاميرا، لكني مع ذلك لم آمن لهذه المغامرة على المسنجر، فقلت له لنتحدث على الواتساب، فاتصلَ بي مباشرة من هناك، من الرقم الذي لديّ والذي سجلته باسم أنثى تحسبًا من أي طارئ. وكان هو. لكني أسرعتُ فلبست حجابي.

لا أعرف كيف أصف ذلك الحوار في تلك الليلة. تطرقنا إلى كل شيء. كنت أشعر بالحرية معه، كأني أعرفه منذ سنوات. حدثّته عن نفسي بشكل مفصل، عن عائلتي بشكل مقتضب، لكنه أخذ يتوغل في عالمي النفسي، في البداية كنت حذرة ومتحفظة قليلًا، لكني استرخيت في ما بعد.

تحدثنا لأكثر من أربع ساعات. وصار بيننا ألفة لم أعرفها في حياتي مع أحد. لا مع رجل

ولا مع امرأة، لكنه فاجئني بطلبه أن يراني من دون حجاب. ترددت أول الأمر، لكني وجدتُ في نفسي الرغبة فعلا بأن يراني من دون حجاب. فنزعته.

لا أعرف ما الذي جرى له، فقد رأيتُ الدهشة والإعجاب، بل والوله في نظراته. وصار تواصلنا ليلًا، لكننا في الجامعة نتعامل رسميًا. لكنه صار عاشقًا مراهقًا، فأحيانًا يقطع المحاضرة بدعوة أنه نسي إرسال شيء مهم، فيكتب لي كلمات على الواتساب ويرسلها، فأقرأها، وأنا في قاعة المحاضرات. كنا متعلقين ببعضنا بشكل مهووس.

ولأكن صريحة معك. لم أشعر يومًا بمراهقتي، ولا بأنوثتي قط. مع أن أن جسدي يحمل كنوز الأنثى بكل نضجها وجمالها. لكن لم أمر بشبق المراهقات ولهفتهن للتجربة الجنسية، لكن معه، معه فقط، بدأت أشعر بأنوثتي، وسريان الرغبة في جزئي السفلي، الذي انتبهت لبركانه المتقد الذي يفيض سيلًا من ماء الحياة كلما حدثته أو فتحنا الكاميرات آخر الليل.

ومع مرور الوقت تمادى هو في رؤيتي، فكان يريد من أن يراني بكامل قامتي وفي ثوبي البيتي. في البداية ترددت، لكني كنت أشعر بأنه الرجل

الوحيد الذي من حقه أن يراني، واستجبتُ لرغبته. وتمادى أكثر، لكني كنت منجرفة معه في تلبية رغباته، علما أن ذلك كان يفرحني أيضًا. في البداية كان ذلك يخلف لديّ تأنيب ضمير وشعورًا بالذنب، لكن في ما بعد صار الأمر اعتياديا وتلقائيا وتجربة مثيرة.

لكن حدث ذات يوم وأنا في الجامعة أشتقت لرؤيته. لم تكن لديه محاضرات فذهبت لرؤيته في مكتبه. كنت أعرف أنه فترة استراحة الغداء، ومن المحتمل جدًا ألا تكون السكرتيرة موجودة، مع أني تجنبت زيارته منذ بدء علاقتنا الليلية كي لا أثير الشكوك والقيل والقال. وفعلًا لم تكن السكرتيرة هناك، فدخلت مكتبه مباشرة، لكني فوجئت بوجود امرأة أربعينية أنيقة تجلس على كرسي المداولة.

فوجئت، ولأول مرة في حياتي أشعر بالغيرة القاتلة، بل الغيرة المجنونة. لكن ما دعاني إلى السيطرة على نفسي هو عدم ارتباكه، وكأن وجودها عادي جدًا، بل قام مرحبًا بي، داعيًا إياي أن أدخل وأجلس. وبادر إلى أن يعرفنا ببعضنا.

وعرّفها لي بأنها السيدة حواء العدوية، وهذا

اللقب اتخذته تيمنًا بالمتصوفة رابعة العدوية، وهذه السيدة كما قدمها الأستاذ، صاحبة مشاريع وأعمال، ومثقفة، تهتم بالثقافة جدًا، ولديها صالون ثقافي في بيتها بالمنصور. وقد جاءت بنفسها لدعوته إلى صالونها من أجل تقديم محاضرة فكرية عن واقع الثقافة العراقية بعد الزلزال السياسي والاجتماعي الذي جرى في العام 2003.

هدأتْ نفسي. لكن المرأة لم تكن تبدو كسيدة أعمال.. بل تبدو وكأنها كانت زوجة لتاجر فاحش الثراء، لكنها ورثته، بكل ما لديه من شركات واستثمارات. ولأنها أرادت التمايز، لذلك أعجبها أن تكون مثقفة وصاحبة صالون ثقافي يشار له في الأوساط الثقافية، لكن بريق هيئتها لا يشي بكونها مثقفة، ولا تشع شخصيتها بذلك الإشعاع والهالة التي ترافق شخصية المثقف الأصيل.

كانت امرأة جذابة ومثيرة، تشع بأنوثة طاغية، قلَّ من لا ينتبه لها، سواء من الرجال أو النساء. ذات شخصية مهيبة من دون أن تصطنع المهابة. واثقة من نفسها من دون قناع، تنظر إلى الأشياء وإلى الآخرين بوضوح ومباشرة.

بل كانت تنظر بحدّة بحيث تعطي المقابل

انطباعًا غير مريح عنها بأنها متكبرة ومتعالية، أو أنها تستخف بالمقابل وأنها متكبرة، بل ومتعالية. لكنها ولا أعرف إن كان ذلك مجاملة أو أصالة عبرت عن إعجابها بأناقتي وحجابي، ولم أسألها ما معنى المختلف.

الغريب أنها، وهي تغادر مكتب الدكتور، دعتني لصالونها. وطلبتْ من الدكتور آدم المدني أن يأتي بي معه. بيد إن ما أعجبني في الدكتور آدم المدني أنه لم يكشف عن هويتي ونسبي الديني المتعالي.

حين همّت بالخروج وقامت لتغادر، قام الدكتور آدم من مكانه وجاء إلى أمام المكتب، فقمت أنا أيضًا احترامًا لهما. أوصلها الدكتور إلى الباب الأخرى للمكتب. وحين عاد إلى مكتبه أغلق الباب. كنت ما أزال واقفة. وبشكل مفاجئ لي، جاءني واحتضنني. جفلتُ. فلم أتوقع منه هذه الحركة. لم استجب أول الأمر، لكني شممت عطره، فأعجبني جدًا واسترخيت، وفاجئني أكثر حين قبل جبيني وعيني. ثم انسحب إلى مكانه حول طاولة المكتب.

والحقيقة، أنه على الرغم من ارتباكي الشديد، لكني أحسستُ بدغدغة تسري في جسدي حين

ضغطني إلي جسده، وأحسستُ بسريان لذة لم أعرفها تسري في نهديّ، بل وبإرتعاشات لذيذة تسري في منطقة ما تحت السرة إلى ما بين فخذيّ.

وشعرتُ بالخوف. فها هي الخطيئة التي تحذر الأديان منها. لكني كنت مرتاحة جسديًا. شعرتُ بخفة جسدي، وتوقه لإعادة الكرة. لكني من جانب آخر انتقدته مع نفسي لتجاوزه الأخلاقي، فنحن لم نصل بعد إلى هذه المرحلة. لكني سمعتُ صوتًا داخليًا يسألني: «إذا لم تكوني تريدين ذلك فلماذا شعرتي بالغيرة حين رأيتِ امرأة أخرى في المكتب؟».

جرأت الدكتور آدم المدني حطّمت الجدران الوهمية التي بيننا. واعترفتُ مع نفسي بأني أحبه وأريده. نعم أريده. صحيح أنني بلا تجارب جسدية، بل وما زالت أمامي قيود وسلاسل لتجربة ذلك، لكني قرأت كثيرًا عن عالم الجسد والرغبات وتفاصيلها. بل، شاهدت فيدوات إباحية لغرض معرفة ما يجري حقًا. وتذكرتُ كل تفاصيل طفولتي ومراهقتي، زوجات أخواني، وأخواتي وحياتهن السرية الخاصة. وأدركت شبقي المتأجج. ومع ذلك كنت أسيطر على

نفسي وألجم رغبات جسدي.

ولكيلا نتحدث بما قام به الدكتور، الذي اعتبرته من لحظة احتضاني بأنه حبيبي، فقد أخذتُ أسأله عن تلك المرأة. كانت أسئلتي نابعة من غيرة خفية ومن محاولة للهروب من الحديث عما فعله قبل قليل، مع أن جسدي كان لا يزال يعيش خدرًا لذيذا وشهوتي تكاد تنفجر.

وتكررتْ هذه اللقاءات الخفية في مكتبه. وتكرر الاحتضان، بل صار أكثر جرأة، فمرة كنت في كافتريا الكلية، ورأيت سكرتيرته وهي تحمل صينية الطعام، فتركتُ ما كنت قادمة من أجله، وأسرعتُ إلى مكتبه. وما أن دخلت عليه حتى احتضنني، وفي تلك المرة قبلني من شفتي قبلة حارة وشبقة. ومد يده لتعصر نهدي وباقي أجزائي. شعرت بأنني أكاد أنهار من شدة الشبق، لذا تماسكت ولذتُ بالفرار من مكتبه، لكني كنت أعرف بأني سأعيد الكرة وبجرأة أكبر..!.

كان لديّ شعور غامض بأن ثمة أسرار بين حواء العدوية وحبيبي الدكتور آدم المدني. لكن كل حديثه عنها كان محايدًا ولا يشي بأي شيء خاص بينهما. وذات ليلة طلبتُ منه، أثناء تواصلنا، أن يحدثني عنها أكثر لاسيما هو كرر دعوتها لي

وضـرورة زيارتهـا، وأكـدت لـه بأنـي لا أسـتطيع الذهاب إلى بيت امرأة لا أعرفها.

أخبرنـي بأنهـا امـرأة فاضلـة. درسـتْ الفلسـفة فـي الجامعـة، لكنهـا لـم تسـتطع أن تجـد عمـلًا فـي هـذا الاختصـاص. كان لديهـا حبيـب معهـا فـي الجامعـة وكانـا متفقيـن علـى الـزواج، ومنحتـه نفسـها، لكنـه بعـد التخـرج تركهـا وتـزوج ابنـة عمـه تحـت ضغـط العائلـة. وحيـن حاججتـه، بأنهـا أحبتـه حتـى أنهـا منحتـه نفسـها، كشـفَ عـن وجهـه القبيـح، إذ اتهمهـا بالرخـص لأنهـا منحتـه نفسـها، وهـذا يهـز ثقته فيها كزوجة.

لـذا سـقطت منظومتهـا القيميـة فـي هـذا المجتمـع المنافـق. وقـررت الانتقـام مـن تجـار الفضيلـة. ومـن أجـل ضمـان حياتهـا، تنقلـت بيـن الصحافـة والسـكرتارية، إلـى أن افتتحـت لنفسـها معرضًا للملابس النسائية.

وبعـد فتـرة ليسـت بالطويلـة تعرفـتْ بالمصادفـة علـى شـخص فاحـش الثـراء، كبيـر فـي السـن، عشـقها. وصـارت عشـيقته. لكنـه تعلـق بهـا جـدًا فتزوجهـا. وتحولـت إلـى سـيدة مجتمـع. وانقلبـتْ في طبيعة علاقتها بالرجال.

بعـد سـنة تـم اختطـاف زوجهـا مـن قبـل إحـدى

المليشيات المسلحة، وعلى الرغم من أنها دفعت مبلغًا كبيرًا جدًا وصل إلى مليون دولار، إلا إنه وُجد مقتولًا في إحدى الشقق التي كان يفترض أن يطلق سراحه منها.

ليس لديها أطفال. ولا يبدو أنها على علاقة برجل، بل هي صارمة في هذا الجانب. وهذا ما أحاطها بهالة من الفضيلة الصارمة، بحيث صار الرجال والنساء يهابونها ويجلوّنها، بل ويتملقونها خوفًا من أحكامها الأخلاقية. بل صارت، مرجعًا لتزكية النساء والرجال أخلاقيًا.

والغريب أن بيتها وصالونها صار ملتقىً للرجال والنساء الفاضلات اللاتي لا يخرجن من بيوتهن، بل صار فرصة لهاتيك النساء الفاضلات كي يختلطن بالرجال، بل ونشأت بينهن وبين الرجال علاقات حميمة خاصة جدًا ومستورة بأغطية الفضيلة، تقام كلها برعاية هذه السيدة.

لكنها مع ذلك فهي غريبة الأطوار في أحكامها. فقد كانت تدافع عن نساء مشبوهات اجتماعيًا وأخلاقيًا في وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام، بينما كانت تلوث سمعة نساء فاضلات حقيقيات يشقن طريقهن في المشهد الاجتماعي والسياسي بعيدًا عنها، بل هي سعت

لاجتذابهن لكهن رفضن ذلك فهن لا يودّن أن يكن من مريداتها. ومع ذلك فهو يدعوني لكسب ودّها.

أخبرت حبيبي بأنه يمكنني زيارة السيدة الفاضلة في وقت أرتبه أنا، فأنا لا أستطيع التحرك خارج حركة الجامعة والبيت. وياليتني لم أذهب..!.

حين نكون مشغولين بعالمنا الداخلي ومشاعرنا، نسهو عما يدور حولنا. وهذا ما صار معي. فقد سهوت عن كوني مراقبة من قبل جهات وأحزاب وميلشيات في المنطقة التي أسكنها، وبعضهم مكلّف من قِبل والدي وأخوتي بمراقبتي بشكل مباشر.

رتبتُ وضعي في البيت ذات يوم. أخبرت الرقيبات البيتيات بأني أستعد للامتحانات وأنني سأتأخر في مكتبة الجامعة. واتفقت مع حبيبي الدكتور بأني سأذهب معه في سيارته، وإن عليه ألّا يؤخرني هناك.

حين وصلنا أدركتْ بأن حبيبي نسق معها كل شيء. فلم يكن هناك أحد في البيت، فقد منحتْ تلك السيدة الفاضلة المساعدينَ في المنزل إجازة. أربكني ذلك وملأتي ريبة، لكنها طمأنتني

بأنها أعطتهم إجازة كي لا يراني أحد منهم في بيتها.

المفاجأة الكبرى حينما قالت إنها إكرامًا لي ستحتفل بأول زيارة لي إليها. وفتحت قنينة من الشمبانيا. كما أتضح أنها قد هيأت الكثير من الطعام والمقبلات.

ترددتُ كثيرًا في قبول شرب الشمبانيا، لكنهما هي وحبيبي، أخذا يمزحان معي، ويشيران إلى أنني محافظة، وأن تربيتي الدينية وراء ذلك.

شعرت بنوع من التحدي فأخذت كأس الشمبانيا وارتشفته بالكامل في رشفة واحدة..! استغربا ذلك، لكني شعرت بالسخونة تصعد إلى خديّ، وما يشبه الدغدغة تسري في رأسي. وتكرر الأمر. وكلما ارتشفت كمية تنفتح شهيتي كي أعبّ المزيد.

وأدركتُ بأنني في حالة من الخفة والدوار. وأنني أفقد ثباتي الفكري ووضوحي.

وتأكيدًا على تنفيذ خطتهما المدبرة فتحت السيدة الفاضلة حواء العدوية قنينة من النبيذ وأخرى من الفودكا. وجرّبتُ كل شيء. وشعرتُ بالخدر والمرح ولم أعد قادرة على التفكير السليم. وبعد فترة قالت السيدة الفاضلة تعالا

أريكما بيتي وعالمي الخاص وطابقي الذي لا أسمح لأحد من ضيوفي وأصدقائي أن يزوره. ولأنها تحبنّا لذا تريدنا أن نراه.

وصعدنا إلى الطابق الأعلى. كنت غير قادرة بالكامل على أن أصعد، فأحاطني حبيبي بذراعه وصعد بي. وقادتنا إلى غرفة النوم.

لا أدري ماذا جرى. كنت أريد النوم، بل ولم أكن أنا. وما أن دخلنا غرفة النوم ورأيت السرير الوثير العريض حتى جاءتني رغبة في النوم والاستلقاء. لكن حبيبي احتضنني وأخذ يقبلني، وأزاح حجابي فتدلى شعري الطويل الأسود الكثيف.

ويبدو من خبرته أنه عرف كيف يثيرني، واكتشف مفتاح جسدي. فقد أخذ يقبلني من رقبتي وصعد إلى شحمة أذني، ومد يده بين فخذي فشعرت بالانهيار. وفجأة، تحول إلى رجل عنيف وشرس. فقد ألقاني على السرير ورفع ثوبي إلى كتفيّ، وسحب سروالي. وأدخل رأسه إلى هناك. هلكني بلسانه. شعرتُ بالانهيار الكامل.

حين التفّتُ بشكل عفوي من شدة اللذة، رأيت السيدة الفاضلة تتعرى وتتجرد عن ثيابها بشكل

كامل. كانت هائلة الجسد، مثيرة، ومكتظة بكنوز اللذة.

وحين نظرت إلى حبيبي وجدته عاريًا ..! كيف ومتى تعرى؟ ورأيت يداعبني بقضيبه، وأولجه فيّ. شعرت بوخزة ضعيفة، وغمرني الخدر. ورأيت السيدة الفاضلة تقترب مني على السرير، بل وبدأت تقبلني، وأزاحت حبيبي عن جسدي ونامت هي عليّ. وأخذت تجامعني كأي رجل.

الذي كان ضربة كارثية بالنسبة لي أن حبيبي أدارني بشكل كلبي، واخترقني من الخلف. شعرت بألم قاتل لكنني بعد أن أخذ يهز نفسه في داخلي شعرت باللذة.

وحين التفتُ جانبًا وجدتُ السيدةَ الفاضلة تمسك بكاميرا فيديو وهي تصور كل شيء، كل شيء. بل كانت كمصورة سينمائية محترفة، فقد اقتربت من مواضع الالتحام وصورتها بشكل مركز، وواجهتني لتصور وجهي وهو يفيض شبقًا ولهاثًا.

كنتُ مسلوبة الإرادة. لا أستطيع أن أتماسك بوعي، لديّ رغبة قوية في النوم ورغبة قوية في الإباحة. وما بين النوم واليقظة رأيت السيدة الفاضلة تجلس بكامل جسدها على وسط جسد

الدكتور الذي أدركتُ أنه ليس حبيبي. كانت تهز نفسها وتصعد وتنزل.

وغفوتُ. حين صحوتُ كانت المساء قد حل. والظلام زحف على المدينة. رأيتُ ذلك من خلال نافذة غرفة النوم. أفقتُ على هول ما اقترفتُ.

كانت الغرفة خالية. ولا صوت أو نأمة أو حركة تُسمع. فجأة، تعالتْ أصوات قهقهات آتية من الطابق الأرضي. نزلتُ عن سريري. انتبهت لكمية قلية من الدم بين فخذي. إذن لقد استغفلني النذل وفضني وأخذ بكارتي. وشعرت بحرقة في دبري أيضًا. ياإلهي، ما الذي فعلته بنفسي..؟.

تسللتُ إلى الحمام. كنتُ عارية بالكامل. دخلت تحت دوش الماء الدافيء، وتركته ينهمر عليّ. لا أعرف كم بقيت تحت دوش الماءِ المنهمر. سمعتُ حركة في الغرفة. فكرت ثمة من جاء، لكن سرعان ما عمّ السكون ثانية.

حين خرجتُ، ارتديت ملابسي. ووضعتُ حجابي. كنتُ صاحية إلا من بعض الصداع الخفيف، فقد ذهبتْ النشوة وبدأت الصحوة. وأدركتُ بأنني قد ضعتُ. كل كبريائي الشخصي واعتزازي العالي بنفسي لم يعد موجودًا، بل

وصار لا معنى له.

نزلتُ السلّمَ وأنا أشعر بالخذلان. لا أستطيع لوم أحد. أنا جئت بنفسي، لم يجبرني أحد. أنا التي تعاملتُ ببردة الفعل والتحدي الفارغ فشربتُ الشمبانيا والفودكا والنبيذ بكثرة. أنا التي استمتعتُ بكل التفاصيل التي جرتْ معي. لكني لم أتوقع أن هذه السيدة الفاضلة قد خططتْ لكلِ شيء مع حبيبي النذل، ولم أتوقع بأنها عشيقته أيضًا.

حينَ صرتُ في الصالة حيث يجلسون فوجئتُ. لم يكن حبيبي النذل موجودًا. بل رأيت السيدة الفاضلة مع رجل ملتح، يضع عمامة على رأسه ويرتدي جلباب رجال الدين. ما أن رآني نازلة حتى أخذ يكبر إعجابًا.

الله أكبر.. الله أكبر.. ما شاء الله..ما شاء الله من خالق. ما هذا الحسن والكمال.

وسمعتُ السيدة الفاضلة تقول له:

كما قلت لك إنها آية من آيات الحُسن. سليلة الحسب والنسب. مبارك عليك شيخنا.

لم أفهم كلمة «مبارك». وقامت السيدة الفاضلة لاستقبالي. أخذتني من يدي وأجلستني على الأريكة التي يجلس عليها الرجل المعمم. لم

أفهم ما يجري.
صحيح أنا كنتُ صاحية مع صداع خفيف، لكني ما زلت ضعيفة من أثر الشرب. تلفتُ حولي وسألت السيدة الفاضلة:
أين الدكتور آدم المدني..؟
ابتسمتْ لي بود وقالت:
لقد انتظرك لكنك كنتِ نائمة بعمق. حاول إيقاظك لكن من دون جدوى. فغادر.
كم الساعة الآن؟
التاسعة مساءً.
حين سمعتُ أنها التاسعة مساءً شعرت بالرعب يشلّني. كيف؟ ماذا ستقول الرقيبتان في شقتي؟ من المؤكد أنهما اتصلتا بأهلي وبينتا بأنني خرجت ولم أعد..! ومن المؤكد أنهم اتصلوا بكل الجهات التي يعرفونها للسؤال والاستفسار. لكن من المؤكد أيضا بأن أخوتي وأهلي عمومًا لن يعلنوا شيئًا خوفًا على سمعتهم، حتى لو وُجدتُ مقتولة. أعرفهم.
وفجأة. وقفتُ مرعوبة وقلت:
عليّ الذهاب. هل تتكرمين بإيصالي إلي شقتي..؟
ابتسمتْ السيدة الفاضلة بشكل مبتذل وقالت

بشكل وقح كأية قوادة محترفة:

دخول الحمام ليس مثل خروجه يامدام. الشيخ هنا يريد أن يعقد عليك عقد زواج مؤقت، زواج متعة، لمدة ساعة. بعد ذلك يمكنك أن تذهبي إلى البيت.

ماذا تقولين؟ كيف تتجرأين على قول ذلك؟ هل تعرفين من أنا وإلى أية عائلة أنتمي..؟

فضحكت ضحكة داعرة وقالت:

ياعيني على بنت الحسب والنسب والعائلة الكريمة. أعرف من أنت، وبنت مَن مِن كبار العلماء الأفاضل، وأعرف مكانة عائلتك في الطائفة، لكني أعرف أيضا وبالفيديوات والصور كيف كنت تلهثين شبقًا والدكتور ينيك فيك. لم يترك ثقبًا فيك لم يخترقه يابنت الحسب والنسب. لذا اسمعيني جيدًا. هي ساعة واحدة وتخلصين من هذا الأمر وتجدين نفسك في شقتك. وإلا لن تخرجي من هنا، بل سأنشر ما لديّ من فيديوات على اليوتوب والانستغرام وأرسلها لأهلك وأخوانك..! أنت لست الآن سوى قحبة ذات حسب ونسب. الأمر متروك لك..!

لم أصدقْ ما سمعتُ. لكني انتبهت إلى إن الإنسان حين يصل إلى ذرى اليأس فأنه ينقلب

إلى شخص عبثي، لا مبال، لا يهمه شيء ولا يعنيه شيء ولايقيم وزنًا لأي شيء. فكل شيء باطل وقبض ريح. وراودني شعور بأن عليّ الخروج من هذا المكان بأي شكل، وما دام ليس أمامي سوى أن أدع هذا الشيخ المعمم ينام معي فليكن. هي ساعة وأخلص. مع يقيني بأنني قد ضعت.

وهل وافقتِ؟ سألتها.

ابتسمتْ لي بحزن على الرغم من ذلك، وقالت:

وهل كان أمامي طريق آخر غير هذا؟ طبعا وافقتُ. أردتُ أن أتخلص من كل هذا الوضع الذي أنا فيه. خيبتي في الأستاذ الجامعي، المفكر، المتعاون مع أجهزة المخابرات، كانت أكبر من أن يستوعبها إنسان. فقد كنتُ أعيش أحلامًا رومانسية، بأني وجدت حبيبًا مثقفًا، مفكرًا، طيبًا. ولم أكن أعرف أنني أحببت رجلًا نذلًا، منحطًا، قوادًا خبيرًا، خنزيرًا بربطة عنق وبدلة أنيقة، ويتحدث بالفكر والفلسفة. أهؤلاء هم مثقفو العهد الجديد؟ أهؤلاء هم النخبة الإسلامية التي تريد أن تقيم عهدًا جديدًا من الحكم؟ أهؤلاء يريدون بناء دولة العدل الإلهي؟ هذا الخنزير المتفلسف وهذه السيدة الفاضلة

قوادة العهد الجديد وهذا الشيخ المعمم الذي يصلح أن يكون نادلا في ماخور هم ممثلو سلطة العهد الجديد؟ تخلصنا من مجموعة القتلة فجائتنا مجموعة من الخنازير التي تعيث في حديقة ورد. أي ثقب أسود هوى العراق فيه..؟

جلستُ صاغرة إلى جانب ذلك الشيخ المعمم. وجعلني أردد جملًا هي كافية في نظره لأكون قحبته لمدة ساعة من الزمان، مقابل خمسة وعشرين ألف دينار صداقًا. وكل هذا باسم الشريعة الدينية السمحاء..!

ابتسمتْ السيدة الفاضلة- القوادة وقالت:

مبارك عليك أيتها العروسة. الشيخ الجليل شخصية معروفة وقائد أحد الأحزاب الكبرى في البلاد، وسوف تفتح أمامك الأبواب، فقط عليك أن تمتعيه كما يجب..!

ابتسم الشيخ الجليل لها وقال:

مشروعك مضمون أيتها العدوية. اعتبريه قد تم.

ثم التفت إلي، أخذني من ذراعي وقال لي بلطف:

لنصعد أيتها الحسناء إلى غرفتنا.

وبينما نحن نصعد السلّم قال لي جملة بثت

الخوف في نفسي:

أعرف والدك. درستُ علوم الفقة على يديه. كما أن بعض أخوتك ينتمون لحزبنا، وهم قادة مهمون في الحزب. أنتِ أيضًا يمكنني أن أجعلك قائدة مهمة في تنظيمنا وفي أبسط الأحوال أجعلك عضوة في البرلمان أو وزيرة في الحكومة.

حين صرنا وحدنا في غرفة النوم. وهي غير التي كنا ثلاثتنا فيها نهارًا، أقبل عليّ بعد أن نزع عمامته وجلبابه، وبقي بلباس طويل يشبه الشروال الكوردي لكنه مفتوح من الأمام. ثم هجم عليّ وكأنه وحش، أو سجين محروم من النساء لسنوات. كاد يمزق ملابسي لولا أنني أوقفته وقلت له سأنزع. ونزعتُ.

أتعرف، إن في أعماق الإنسان ثمة حيوان مبتذل يخرج في لحظات غياب الوعي وسقوط القيم أو العبث الأخلاقي واللامبالاة. لذا تركته يفعل بي ما يشاء وبشكل منحط أيضًا. كان قويًا، ونشيطًا، إلى الحد الذي أثارني من دون رغبة مني. واِكتشفتُ بأنني شاذة أيضًا.

اِكتشفتُ رغبات غامضة في نفسي. وتمتعتُ بأشياء لم أكن أعرف نفسي بأني أرغب فيها أو أتمتع بها، بل على العكس كنت اعتبرها شذوذًا

وانحطاطًا. لكنه أثناء غوره وتوغله في جسدي توقفَ فجأة، ثم قام وأخرج من جلبابه عصًا قصيرة، بطول شبر يد إنسان ناضج. عصا ملساء جدًا، غليظة لحد ما. وطلب مني أن أولجها في دبره. استغربت طلبه، لكني كنت قد وصلتُ إلى قاع الانحطاط، وهويت إلى أسفل سافلين، فلم أجد مانعًا من فعل ذلك.

لم يكتف هو بذلك بل أخرج من جلبابه علبه مرهم مسهل للإيلاج، ودهن دبره وحوافه وكذلك مسح العصا، وطلب مني أن أولجها فيه. تربع في وضع كلبي كما فعل الخنزير أستاذ الفلسفة آدم المدني معي، فداعبتُ دبره بالعصا الملساء ثم دفعتها فيه فدخلت بسهولة حتى أخرها، بينما كان هو يتأوه كأنثى شبقة.

كان هو يتأوه مستمتعًا، وطلب مني أن أدفع أكثر، لكن لم يبق من العصا شيئًا فكلها دخلتْ في دبره. وطلب مني أن أسحبها وأولجها مرات ومرات إلى أن يشعر باللذة الكاملة. وقال لي بعدما هدأت رغبته:

تمنيتك رجلًا. لتركتك تفعلين بي دائمًا، لكن لا ضير.. ستكونين معي، هذا السر الآن بين يديك، فإذا بحتِ به حتى لنفسك فسوف أفضح

والـدك العلامـة الجليـل. أنـتِ مـن هـذه اللحظـة لـن تفارقينــي. ســتكوني زوجتــي المؤقتــة دائمًــا. أنــا أخــاف الزنــا وأخــاف جهنــم، لــذا ســتكثر ســاعات زواجنــا المؤقــت. والآن اذهبــي. لا.لا. اســمعي..أنا أعــرفُ عنــك كل شــيء. أعــرف أيــن تعيشــين، ومــن معــك فــي البيــت، وأعــرف تاريخــك وأصلــك وفصلــك. ولــدي الفيديوهــات التــي صورتهــا حــواء العدويــة. لــذا لا تحاولــي أن تتمــردي علــيّ. لــن أجعلــك قحبــة مبتذلــة ينــام معــك مــن هــب ودب، ستكوني قحبتي فقط. مفهوم..

وتمتمــت مــن أجــل أن أنهــي هــذه الموقــف المنحط:

مفهوم..

لكنه استوقفني وواصل:

بالمناســبة.. هــذا الدكتــور التافــه، المتعجــرف، والمتفيقــه، الــذي يســتعرض أســماء فلاســفة ومفكريــن دائمــا ليكشــف عــن إطلاعــه وثقافتــه، ســأســحقه مثــل أيــة حشــرة. ســأســقط قناعــه الخنزيــري، ســأمحيه مــن الوجــود، وســتبقين أنــت لي.

لــن أتوقــف عــن تذكّــر ذاك اليــوم قــط. لكنــي رويــت كل شــيء لأنــه مثــل شــريط ســينمائي مطبــوع

على شاشة ذاكرتي. المهم، حين عدّت للبيت كانت هناك مفاجأة تنتظرني.

كانت أمي مع أخي الأصغر ينتظراني في البيت. لكن أمي جاءتْ برفقة أخي لمراجعة أحد الأطباء المشهورين في بغداد. فقد وجدتْ طبيبتها النسائية أوراما في صدرها. كانت قلقة جدًا وخائفة. لكن على الرغم من هول الصدمة بأورامها كان عليّ أن أجد حجة مقنعة تبرر غيابي فورًا.

احتضنتني أمي وجسدها يرتعش خوفًا. الرقيبتان كانتا قلقتين أيضًا. قلتُ لهم كنتُ في المكتبة، ولا أعرف ما الذي جرى لي، فقد أغمي عليّ، ونقلوني بسيارة إسعاف الجامعة، وزرقوني بمحلول الأملاح المغذية، وشخّص الأطباء الأمر بأنه إرهاق، ربما بسبب الدراسة. لذا تأخرت إلى أن سمحوا لي بالمغادرة. أرادوا أن يتصلوا بكم لكني طلبت منهم الآ يفعلوا ذلك ويقلقوكم.

أمي كانت متعاطفة معي وكادت تبكي لاسيما حينما رأتني شاحبة الوجه ومتعبة، بينما ظل أخي ساهمًا وكأنه لم يصدقني، لكنه لم يعترض.

بقيتُ لأيام في البيت. لم أخرج إلا لمرافقة أمي إلى الأطباء وإجراء التحليلات. وأخذ منها

خزعة من الورم أرسلوها إلى المختبر. وكنت قد عملت بلوك للمثقف النذل. ولم أكن قد تبادلتّ الأرقام مع السيدة الفاضلة القوادة، ولا مع الشيخ الجليل القائد الحزبي في العهد الجديد.

لا أدري إن كان مَن في البيت معي قد صدقوني؟ الرقيبتان كانتا تنظران إليّ باستفهام وكأنهما تقولان لي نحن لا نصدق ما رويتيه. أمي كانت مشغولة بالورم في صدرها، وأخي كان ساهمًا، وكان يخرج أحيانًا من دون أن نعرف إلى أين يذهب ولا مع من يلتقي.

كنت مُحطمةً نفسًيا، لكني كنت لا أبين ذلك أمام أحد. بيد إني فكرت مع نفسي بأن ما حدث قد حدث. لكن هل كان يمكن ألا يحدث ما كان قد حدث؟ ماذا لو لم أذهب مع الدكتور النذل إلى صالون السيدة الفاضلة؟ ماذا لو لم أذهب أصلا إلى مكتبه؟ ما كان قد كان، لكن هل ما سيكون سيكون على الرغم من إرادتنا ورغباتنا بألّا يكون؟

هل حركة البندول هي نفسها، يمينًا ويسارًا، بنفس التكرار، أم أن كل حركة لرقاص البندول تختلف عن الأخرى؟ هل يمكنني أن أغير ما سيكون وفقًا لحركة بندول الماضي، أم سأبقى

أتحرك يمينًا ويسارًا. لا..لا.. ما كان قد كان، وما سيكون يجب أن يكون..!.

الحياة نفسها تكرر نفسها. والإنسان يكرر نفسه. والأيام تكرر نفسها. والشروق والغروب يكرران نفسيهما. والليل والنهار يتكرران، بل حتى الموت يكرر نفسه. التكرار جذر السأم.

ولكي لا أثير الشك أكثر، واصلتُ الذهاب إلى الجامعة بعد أسبوع من البقاء في البيت. وكانت الأحداث تتصاعد في الشارع، فقد تصاعدت انتفاضة تشرين، وسقط الشهيد تلو الآخر، حتى صاروا بالمئات، بل خرج الطلبة في تظاهرات تضامنًا مع المتظاهرين في ساحة التحرير. وعرفتُ من بقية الطلبة بأن الدكتور النذل وقف ضد المنتفضين متهمًا إياهم بأبناء السفارات وأبناء الرفيقات، وبأنهم مجموعة من الشذاذ والعاهرات ومن متعاطي المخدرات والحشاشين الذين يريدون، تحت غطاء التظاهر، وحب الوطن، وشعار «نريد وطن» أن يمارسوا الرذيلة، وينشروا الخراب في البلاد.

بعد أيام رجعتْ أمي وأخي إلى مدينتنا المقدسة. لكني انتبهتُ إلى أن أخي كان باردًا في تعامله معي. وكان ينظر لي نظرات مستفسرة

ومستقرئة. وانتقدتُ نفسي بأنني ربما صرت مفرطة الحساسية لذا أبالغ في تفسير الأمور.

وبعد يوم من مغادرة أمي وأخي ذهبتُ إلى ساحة التحرير. رأيتّ الحشود. مئات الألوف من الموتى بلا قبور، الذين انتفضوا بحثًا عن وطن. بودي أن أسألك..» هل مررتَ بالنفق كله من بدايته؟ ألم ترَ الزومبي يجتاز شارع الرشيد متجها إلى ساحة التحرير؟».

نعم، رأيت..رأيتهم قبل أن أدخل النفق، رأيتهم بعد مغادرتي مشرحة بغداد أنا وألصبي آدم الصغير. وفي النفق رأيت مجموعة من الموتى بلا قبور والذين يريدون وطن..! لكن كيف أنتِ هنا؟ لحد الآن لم تخبريني؟

صمتت للحظات قصيرة وواصلت الحديث:

انتفاضة تشرين كانت زلزالًا اجتماعيًا وسياسيًا ونفسيًا. سقطتّ الأوهام، وانطلقتّ الأرواح تعانق السماء. كشفتّ انتفاضة تشرين زيف تلك الطبقة الإسلامية الفاسدة التي اِدّعت المظلومية التاريخية وبالغت في رفع شعار بناء دولة العدل الإلهي، وأثبتت على أنها طبقة سياسية خسيسة ومنحطة وأنها لا تختلف في انحطاطها وزيفها وخستها عن كل الحكومات

التي مر بها العراق إذا لم نقل أنها فاقت في اللصوصة والفساد. هذه الطبقة السياسية التي ليست سوى مجموعة من الانتهازيين والوصوليين والمزيفيين بينهم قادة أمثال الدكتور النذل والرجل المعمم المأبون والسيدة الفاضلة القوادة.

الانتفاضةُ ساعدتني على أن أولد من جديد. ولدتُ حين رأيتُ مئات الفتيات اللواتي بعمري يخرجن وهن يحملن علم العر اق ويهتفن «نريد وطن». أحسستُ أنهن يهتفن ضد سلب كرامتهن واغتصابهن وسجنهن بتقاليد مظلمة، وضد سد أفق حياتهن. فتيات اعتدن، منذ لحظة مشاركتهن في الانتفاضة، على شم الغازات السامة التي يطلقها الرجال الملثمون وقطعات القوات المسلحة الرابضة على الجسور، بدلًا من شم عطور فيرساتجي وديور. فتيات يلبسن الجنس وينامن في الخيم مع زملائهن ويحلمن بوطن يحفظ كرامتهن ويحقق أحلامهن.

اتفقت مع الرقيبتين في الشقة أن تأتيا معي إلى ساحة التحرير، ووافقتا، لكني اشترطتُ عليهن ألا يتصلن بأهلي ولا ينبسن بكلمة عن هذا الأمر.

كنا ذات مساء هناك. رأيت زميلتين لي من صفي في الكلية. اندهشتا حينما شاهدتاني وأنا أحمل العلم العراقي بيدي. وأضع كمامة على فمي وأنفي. احتضنتاني بمحبة، وكأننا صديقات حميمات. وأخذن يرشدنني بتعليمات السلامة لكل المشاركين في التظاهرات. حذرنني من التاكسيات ومن التفوه بالحديث مع أي غريب والانتباه لمن يصورنا من دون علمنا. وطلبن مني أن أغير من هيئتي كلما جئت إلى الساحة.

المرأتان اللتان معي كانتا مرعوبتين في أول الأمر، لكنهما انسجمتا مع آلاف الناس الذين كانوا يحتفلون ولادة وطن بذرته تسقى بدماء الشباب الطاهرة.

وفعلًا، كنا نختار طرقًا ملتوية للوصول إلى الكرادة، حيث نسكن. لكن حدث ذات ليلة، حيث تكثفت الهجمات على الشباب المنتفض، واختنقنا بالغازات السامة، إن وجدتُ نفسي مع مجموعة من الفتيات والشبان نتوجه إلى ما سمي بالمطعم التركي.

تهت عن الرقيبتين. وهناك رأيت الأهوال. فقد رأيت هجومًا بالسكاكين والهراوات على المعتصمين في الفندق.

كان من الصعب عليّ مغادرة المكان، ورأيت إحدى زميلاتي، تلك التي شجعتني على البقاء، وألحّت علي بالبقاء معها لكنني أردت الرجوع إلى البيت. فقد كان الموقف مرعبًا. لاسيما حينما رأيت من بعيد وأنا أنظر إلى المطعم التركي اثنين من الملثمين يمسكان بأحدهم، يهزونه يمينا وشمالًا ثم يرمونه من أعلى طوابق المبنى إلى الأرض. أحسست بانقباض في نفسي، وخوف شل أعماقي. لذا حاولت بطرقٍ مغامرةٍ، فيها بعض التهور، العودة إلى شقتي، فبحثت عن المرأتين الرقيبتين، لكني لم أجد لهما أثرًا.

حين دخلتُ خيمة الطبابة الصحية رأيت إحداهن وهي في حالة يرثى لها. كانت مختنقة من الغازات، ولولا وجود الأطباء من شباب الانتفاضة لكانت قد ماتت اختناقًا. أما المرأة الأخرى فلم أعثر لها على أثر.

كنتُ في تلك الليلة قد خلعت العباءة والحجاب ولبست بنطالًا أسود وبلوزة سوداء ووضعت منديلًا حول شعري. ولا أخفي شيئًا إذا ما قلت بأني كنت موضعًا لبعض الغزليات البريئة من قبل بعض الشباب والرجال الناضجين أيضا.

الغريب إنني رأيتُ الرجل الملتحي، ذا العمامة

وجلباب رجل الدين، المأبون الذي اغتصبني باسم الشريعة وباسم زواج المتعة. كان يلبس ملابس شبه عسكرية ولكنه لم يخلع عمامته. وكان حوله مجموعة من الشباب وهو يحدثهم عن الوطن، وعن محاربة الفاسدين الذين دمروا البلاد وأذلوا العباد وسرقوا المال العام، فارتعشت روحي أمام هذا النفاق الفاقع. وخفتُ على الانتفاضة وعلى الشباب الذين يتساقطون مثل أوراق الخريف أمام ريح عاصفة.

وفي خيمة أخرى رأيت شبابًا يتحدثون عن اختطاف بعض زملائهم. يتحدثون عن سيارات التاكسي المريبة التي ترابض في محيط الساحة، بل وحتى سيارات الإسعاف الوهمية. خفتُ، وفي الوقت نفسه شعرت بعظمة هؤلاء الشباب الذين يعرفون أن الحكومة المرعوبة وأعوانها مدججون بالسلاح وبكل وسائل القمع والاختطاف والتنكيل.

في خضم تلك المعمعة وصلتني رسالة على الواتساب مع فيديو: «إياك أيتها الساقطة أن تلعبي دور المناضلة الثورية يا قحبة. إذا لم تغادري الساحة الآن فسننشر هذا الفيديو على اليوتيوب وعلى كل المشتركين في الواتساب والانستغرام. مع الإشارة إلى أنك مندسة بين

الشباب المنتفض. وسنجعلهم ينبذوك، بل وبالتأكيد سيصل كل شيء إلى والدك وأخوتك، وقد أعذر من أنذر».

وحين فتحت الفيديو المرسل رأيت مشهدًا إباحيا مهينًا. تمت منتجته بحرفية. لقطات وأنا التقم قضيب الدكتور الخنزير، ولقطة أخرى وهو يلجني من الخلف وأنا ألهث والكاميرا تبرز وجهي بوضوح. ولقطة ثالثة وأنا مستلقية على ظهري وأحدهم، ويبدو أنه الرجل الملتحي، يولجه فيّ وأنا ألهث من اللذة وأمسك بذ راعه، ولم أعرف أن تلك الغرفة كانت مزودة بكاميرات خفية. ثم أخذت اللقطات والتحذيرات تتوالى.

خفتُ جدًا. أردتُ مغادرة الساحة. وحين وصلتُ لحدودها قرب شارع السعدون، رأيت صفًا من الزومبي يقف هناك منتظرًا أيًا ممن يغادر الساحة منفردًا.

وفجأة، اقتربتْ سيارة تاكسي إلى جانبي. مد سائقها رأسه عبر النافذة وقال لي:

إلى أين تريدين الذهاب أختي الفاضلة..؟

إلى الكرادة..

اِصعدي..

لكني تذكرتُ التحذيرات المتكررة والتي يعلن

عنها في الساحة من قبل الشباب المنتفضين بألا نصعد أي سيارة تاكسي. لذا لم أجب السائق وأنما رجعتُ عن مكاني إلى الساحة خائفة. واختفيتُ في الزحام.

لكنني وأنا أتيه في الزحام تذكرتُ وجه السائق. وانتقدت نفسي!! كيف لم أعرفه مباشرة..؟ إنه الدكتور النذل وقد غيّر من شكله وهيئته، ووضع على رأسه باروكة شعر مستعار..!!

وسألتُ نفسي: «هل يعمل هذا الأستاذ مع أجهزة السلطة والمليشيات، والرجال الملثمين؟ هل هو من الزومبي؟ لو كان كذلك فكيف يتحدث بحرية عن فلاسفة الإسلام والغرب؟ أيريد أن يكشف بذلك عن الطلبة الذين يفكرون بعيدًا عن القطيع؟ نعم. نعم. نعم.. لقد انتبهتُ الآن، فلقد اختفى عن المحاضرت معظم الطلبة المتنورين الذين كانوا يناقشونه في أسئلة الفلسفة..! نعم.. كان هو يبلّغ عن هؤلاء الطلبة فيختفون بطريقة مريبة وغامضة..!.

قررتُ الذهاب إلى خيمة العيادة الطبية حيث رقيبتي ومساعدتي في شؤون البيت ترقد هناك. وفكّرتُ بأنها ستكون حجة طيبة بأن أبقى معها هذه الليلة. أنام في الساحة مع هذه الآلاف من

الجموع المنتفضة.. وهذا ما حصل. لكن النوم في الساحة كانت تجربة لن تنسى، فالحياة هنا كانت مهرجانَ فكرٍ وأدب وثقافة وغناء ومناقشات سياسية. كنت أتنقل من خيمة إلى أخرى غير مصدقة بأن هذا الجانب من الحياة موجود في بلادي، بل أعادت الساحة ثقتي بالناس وبهذه الحشود التي يطلق عليها اسم «الشعب».

ومع هذا الجانب المشرق، فلقد انتبهت لبعض الوجوه المريبة والحركات الأكثر غرابة، لذا خمّنت لحظتها بأن هناك من اندس بين المتظاهرين.

رأيت هنا من يصور الأشياء كلها ويوثقها مع أنه ليس هناك من شيء أو حدث يمكن تصويره..! فلمن يصور هؤلاء؟ أدركتُ أن هناك العديد من الزومبي المتخفين بين الحشود، وهناك جثث هاربة من المشرحة الكبرى، بل وهناك كائنات غريبة أخرى ملثمة ومريبة، بل وهناك بعض النساء المريبات!! وبعض المروجين للمخدرات، وبعض بائعات الهوى. سيل، بل نهر متفجر فيه قوة التيار وفيه الأوشال..! وأدركت أن الحكومة وأعوانها تريد اختراق الانتفاضة وتوشيهها.

وعلى الرغم من هذا، فما كان يفرحني هو

شعوري بالحرية، وبتخففي من عبء أفكار اجتماعية مسبقة عن العلاقات بين الناس، وثقل الممنوعات والتحريمات والنجاسات والعقوبات والوعد والوعيد.

وسمعتُ نحيبا وأنينًا يخرج من قاع القلب. رأيتُ امرأة خمسينية مجللة بالسواد ومع ذلك تضع العلم العراقي حول كتفيها، تجلس أمام تابوت ابنها وهي تتعاه بكلمات موجعة. ابنها الذي سقط شهيدًا بعبوة غازية اخترقت جبينه. رأيتُ التابوتَ محاطًا بالشموع التي أشعلها رفاقه وهم يحيطون الأم بحلقة دائرية.

كانت الهتافات تتصاعد من كل مكان. كانت الوجوه على الرغم من الحزن تتقد بالإرادة العظيمة. لقد نهض الموتى وانسلوا من قبورهم الجماعية ليقتصوا من القتلة، لكن القتلة مدججون بالسلاح وبالعبوات الغازية و والقذائف الدخانية.

تلك الليلة لم ينقطع إطلاق القذائف الدخانية التي كانت تأتي من فوق ساتر جسر الجمهورية. ومن فوق المطعم المقابل الذي اعتصم به المئات من الشباب.

ومن بعيد رأيت كيف اقتحم الزومبي المكان،

وكيف رموا ببعض المنتفضين من سطح المبنى إلى الأرض.

في تلك الليلة لم أعرف كيف أنام. إحدى الأمهات أو الجدّات المسنّات انتبهتْ لحيرتي فنادتني بأن التحق بها، فهي قد أعدّت شايًا. وقربها، بل إلى جانبها نمت متمددة على الأرض، وقد كان كلانا تحت بطانية واحدة.

ربما هي قيامة شعب، ونشور جديد للموتى الذين استيقظوا من مقبرتهم الجماعية، المقبرة التي بحجم العراق، ليمنحوا هوية لأرواحهم ولبلادهم ولأحلامهم التي سُرقت في غفلة من التاريخ.

فجرًا. استيقظتُ على أصوات مئات بل آلاف النوارس التي غطت سماء الساحة، بل وسماء المدينة كلها. كانت سماء من النوارس البيض. وكأن النوارس كانت تريد أن تحمي النائمين من مباغتة القذائف والدخان المسموم. لكن الرعب كان على الأرض.

النوارس في السماء والزومبي بملابسهم السود على الأرض. الزومبي الذي كان يحيط بالساحة وبالشوارع التي تقود إليها.

وفجأة، توجهت القذائف الدخانية نحو

النوارس في السماء. كان الملثمون والقوات وراء الساتر الأسمنتي على الجسر يوجهون أسلحتهم نحو السماء. وتساقطت مئات النوارس مضرجة بالدماء.

النوارس القتيلة غطتّ دجلة وساحة التحرير، شارع السعدون، ساحة الطيران والشوارع الجانبية الأخرى.

شعرتُ بالرعب. لذا قرّرت أن أغادر المكان مستغلة الفوضى التي سببها الدخان المسموم وعبوات الغازات والقذائف الدخانية. وفكرت بالتعليمات التي سمعتها من البعض لمن يريد أن يغادر الساحة.

ذهبتُ إلى طرف الساحة الآخر، رأيت الحياة في أوج تألقها وحماسها، على الرغم من أن الكثيرين ما زالوا في خيامهم يغطون في النوم بعد تعب السهر والتناوب على الحراسات.

فجأة انطلق سيلُ آخر من القاذفات الدخانية والعبوات الغازية تنهمر على الساحة من جهة الجسر ومن جهات أخرى، وكأن الملثمين قد قرروا حرق الساحة بمن فيها..!

وأثناء تلك الضجة العالية بسبب سقوط القذائف الدخانية انسللتُ عابرةً الشارع إلى فرع

جانبي مقابل الساحة.

كان ذلك الزقاق خاليًا من العسس والزومبي. قلتُ لنفسي هذه من بركات المرأة المسّنة التي كانت تدعو لي بالموفقية والسلامة الليلَ كله.

حينَ صرتُ في الشارع أخذتُ أسرع الخطى. كنت أريد الوصول إلى شقتي كي أتحمم، أو أنام في فراشي الوثير لساعات. وفكّرتُ بأن أحمل كل مدخراتي وما لدي من مال كي أتبرع به لبعض اللجان المسؤولة عن الطعام وشراء الأفرشة والمشروبات والشاي والقهوة وبناء مرافق صحية .

كانتْ روحي تولد من جديد. ووجدتُ نفسي بعيدة عن عالم عائلتي. لا أدري إن كنت أتمتع بقدرة على الإيحاء والتليباثي، فحين كنتُ أفكر في عائلتي، فبينما كنتُ أعبر زقاقًا جانبيًا لمحتُ أخي الأصغر مع مجموعة من الرجال الملثمين، وهو يقول لهم: «هي محجبة، وربما غيّرت من هيئتها الآن. فقد سمعت بأنها ألقت الحجاب ولبست بنطالًا وبلوزة حريرية سوداء».

ارتعبتُ. عبرت فتحة الزقاق كالبرق وأخذت أهرول. دخلتُ في متاهة الأزقة، إذ وجدتُ نفسي عند ساحة النصر. ومن هناك أسرعت إلى

منطقتي بسرعة هائلة.

كنتُ غير متأكدة إن كان أخي في شقتي أثناء غيابي. لقد تعودتُ أن أضع إشارات محددة في غرفتي، لأتأكد من تلاعب المرأتين الرقيبتين بأشيائي، فمثلا أضع كتابًا ما في وضعٍ معين أعرفه أنا فقط، فإن وجدته بعد عودتي في وضع آخر فهذا يعني هناك من فتش بين كتبي وأوراقي. وكذا مع ملابسي، بل وحتى وضع جهاز الكمبيوتر المحمول أطويه بطريقة ما ليست كاملة لكني أنا أعرفها فقط، فإن رأيته مطويا بدرجة مختلفة ولو قليلًا فهذا يعني هناك من دخل إلى حسابي مفتشًا.

حين دخلتُ الشقة لم أجد أحدًا. ذهبتُ إلى غرفتي مباشرة. لم يتغير فيها أي شيء قط. أيقنت بأن أخي لم يكن في الشقة. حملت بعض ملابسي وتوجهت إلى غرفة الحمام.

شعرتُ بالراحة النفسية وأنى أحس بالماء المنهمر من الدوش وهو يغمر جسدي ويبث الخدر والراحة فيه. حيت خرجت وعدت إلى غرفتي وجدت على طاولتي صينية عليها فنجان القهوة وكأس الماء.

استغربت. وإذا بالباب يُطرق. فوجئت، وحينما

سمحت للطارق أطلت عليّ المرأة الأخرى التي اختفت في الساحة.

أنت هنا؟ سألتُ.

نعم.. أنا هنا.

ألم تكوني في الساحة؟ سألتُ

نعم..

إذن كيف أنت هنا؟

لقد جاء بي أخوك آدم، لستُ أنا فحسب وأنما الأخرى أيضًا.

أخي الأصغر؟

نعم هو..! لولاه لاعتقلنا الملثمون..! أوصلنا إلى باب الشقة، وسأل عنك، فقلنا له بأنك نائمة في غرفتك. كان مستعجلًا لذلك لم يدخل..!

كيف ذهبتن إلى هناك؟

أنت أخذتنا معك..

وأدركتُ أنني أعيش في الواقع، فلو قلن غير ذلك لاعتقدت بأنني أتوهم كل شيء. ولا إراديًا سألت:

هل تريدين الذهاب إلى الساحة مرة أخرى.

نعم.. حتى إذا لم نذهب معك فسنذهب نحن.

لكن ألم يغضب أخي وهو يراكن هناك؟

ارتبكت الرقيبة لكنها تعرف باني على خلاف

واختلاف مع أخوتي وأهلي كلهم، لذا قالت بجرأة:

بلى.. شتمنا بأقذع الألفاظ. اعتذرنا له وقلنا له لقد جئنا لنشاهد هذه التظاهرات التي تنقلها شاشات التلفزيون لا أكثر. لكن ما جعله هادئًا قولنا إنك نائمة في البيت. لا أدري إن كان قد صدقنا أم لا ..! كان منشغلًا مع الرجال الملثمين، وكان يوجههم لاعتقال أو قتل أشخاص بعينهم. يعطيهم المواصفات في الهيئة والشكل. وكان يركز على فتاة بعينها. يريدها بأي شكل. لا أدري إن كان يقصدك أنت بالذات.

ارتشفتُ شيئًا من قهوتي، ثم فتحت جهاز اللابتوب. وأخذت أتنقل بين المواقع الألكترونية المساندة للانتفاضة، والمواقع المعادية لها والتي تشوه سمعة المنتفضين. لكن صدمتي كانت حين رأيت السيدة الفاضلة القوادة، على شاشات أكثر من قناة، تدعي أنها تساند المنتفضين وتريد وطنًا. ما الذي يجري؟

وفي فيديو آخر رأيت الدكتور الذي كان قد تخفى في هيئة سائق تاكسي، رأيته يشارك في برنامج سياسي حواري تلفزيوني ويتحدث عن حق العراقيين في الحياة الكريمة. وأدركتُ بأن

هـؤلاء يريـدون ذبـح الانتفاضـة مـن خـلال الادعـاء بانتمائهم إليها والتدث باسمها والتنظير لها..!.

فكّـرتُ مـع نفسـي بـأن أخـي ربمـا اتفـق مـع المرأتيـن بـأن تتجسـا عليّ وتخبرانـه بكل تحركاتي، فقـد صـرتُ أرتـاب فـي كل شـيء، لـذا قـررتُ أن أنسـل خفيـة للذهـاب إلـى السـاحة من دون علمهما. وهذا ما فعلته.

فكّـرت بـأن أغيـر الـدرب حيـن أتوجـه نحـو السـاحة، لـذا دخلـت متاهـة الأزقـة الخلفيـة فـي البتاويـن. وفـي أحد تلك الأزقة رأيت، على مبعدة مئة متر مني، سيارة سـوداء كبيـرة، بابهـا الواسـع في الوسط.

توقفتُ عـن المشـي خوفًا، لكن الفضول أخذني لمعرفـة مـا يجـري. كانـوا ثلاثـة رجـال يحيطـون بفتاة شابة تلبس الجينـز وتضـع كمامة عليهـا علم العراق لتغطي فمها من الغازات كما يبدو.

كانـت تقاومهـم وهـم يدفعونهـا إلـى داخـل السيارة، وكان أحدهـم يحـاول نـزع بنطالهـا الجينـز عنهـا، بينمـا كانـت هـي تقـاوم بشراسـة. اسـتمر الصـراع بينهـم بضعـة دقائـق، لكنهـم تكمنـوا منهـا وأدخلوهـا إلـى السـيارة بالقـوة. صعـد اثنـان منهـم خلفها، وأغلق الثالث الباب وبقي يحرس المكان.

كان صراخ الفتاة عاليًا وهي تشتمهم، وتصفهم بالخنازير النتنة، وخفتَ الصوت فجأة. وحينها دخل الرجل الثالث أيضا وأغلق الباب. وتحركت السيارة.

ومع أن الدرب صار خالٍ منهم، لكني خفت من وجود غيرهم، لذا التففت ودخلت زقاقًا جانبيًا آخر، لكن ليتني ما دخلت ذلك الزقاق. فقد رأيت رجالًا ملثمين ينهالون بقضبان مطاطية سميكة على شابين لطخت الدماء ثيابهما ووجهيهما. كان الشابان شبه مغمى عليهما، كانا عاجزين، فرفعوهما ورموهما مثل الأكياس المهملة إلى داخل السيارة، ثم أخرجا اثنين آخرين وانهالوا عليهما بالضرب أيضًا. ليس بالهراوات وحسب وأنما باللكمات على الوجه والأنف والفم. ورأيت الدماء تسيل وتلوث قمصانهما.

كنتُ مشلولة لا أستطيع أن أمر داخلة إلى الزقاق ولا أن أرجع عنه. لكن، لا أعرف كيف لمحني أحدهم. فما أن هممتُ بالرجوع عن ذلك الزقاق حتى صرخ بي أحدهم:

أنتِ.. تعالي إلى هنا؟

لم أجبه. لثوانٍ بقيتُ واقفة، لكن وفي ثانية

أخرى حسمت أمري واستدرت هاربة من الزقاق. وسمعته يركض نحوي. ويصيح:

هيه.. أنتِ.. قفي مكانك..!

وسمعته يخاطب ملثما آخر:

هذه واحدة منهم. لنقبض عليها.

ويبدو أنهما ركضا خلفي. لكن الخوف، بل غريزة الحياة تمنح الروح طاقة هائلة، فركضتُ كالغزال كما يقال. انعطفتُ إلى زقاق آخر. لكني وجدتُ أمامي سيارتين سوداوتين وبضعة رجال مسنين، كما رأيت قرب السيارة شلة من الرجال الملثمين.

كان قلبي يخفق بشدة. كنت أركض في بداية الأمر من دون أن انتبه لما في الزقاق، فذهني كله كان عند الذين يركضون خلفي ويريدون اللحاق والإمساك بي. وحين رأيت السيارتين أردتُ الرجوع، لكن ذلك كان يعني أن ألقي بنفسي في أيديهم. ففكّرت أن أمشي أو أجتاز الواقفين راكضة فلربما لا ينتبهوا إلى أني هاربة من زملائهم. لكنني كنت مخطئة. فما أن اقتربت من السيارتين حتى قطع الرجال الملثمون عليّ الطريق وأوقفوني. وسألني أحدهم:

ما بكِ؟ لماذا تركضين؟

لا أدري من أين جاءني الجواب، إذ قلت:

جئت راكضة لأن أمي تعرضتْ لجلطة دماغية، ونحن نسكن في نهاية الزقاق. يمكنكم التأكد..

فانبرى بعض المسنين الجالسين لتأكيد كلامي، إذ قال أحدهم:

هي محقة.. نحن نعرفها. بيتهم في نهاية الزقاق. وهي تزور أمها العجوز دائمًا.

إحتار الرجال الملثمون. الرجال المسنون هم بادروا بالتأكيد على كلامي، لذلك أحسستُ بأن الملثمين صدقوني. فقال لي أحدهم:

أسرعي إذن..!

لم أصدق ما سمعت، فواصلت الركض بسرعة لا أعرف من أين جاءتني. ظل الملثمون لدقائق ينظرون إلي وأنا أركض. وكان الزقاق طويلًا لحد ما. وقبل نهايته ظهر لي منعطف جديد فدخلت فيه ومنه التففتُ إلى منعطف آخر، ثم عبرت إلى الشارع الرئيسي الآخر. لكن يبدو أن الملثمين انتبهوا لي، لأن مَن كانوا يلحقون بي قد وصلوا إليهم وسألوهم عني، لأني حين كنتُ في منعطف جديد رأيت السيارتين تسرعان بمغادرة الزقاق.

لم تعد المدينة آمنة. الشك صار مباحًا في كل شيء. في كل شيء. أي شخص يواجهك تشك

به، أو شخص يمشي خلفك تشك به. أية دراجة هوائية أو نارية خلفك أو إلى جانبك تشك براكبها، أية سيارة تاكسي أو «تكتوك» خارج الساحة تشك به. ثم، لماذا الحكومة مرعوبة هكذا؟ لماذا تخاف الحناجر الصداحة بالأمل والتغني بالبلاد .!!؟؟.

التفتُ ما بين الأزقة. ووصلتُ سالمة إلى ساحة الطيران. ضجة الناس وازدحامهم منحاني الأمان. وانسللتُ بين مجموعة من العابرين ودخلتُ إلى ميدان الانتفاضة، دخلتُ الساحة. توجهت مباشرة إلى جهة نصب الحرية. وياليتني بقيت في جهة ساحة الطيران، إذ ما أن وصلت حتى أقبل صاحب تكتوك. ما أن توقف حتى خرج اثنان وهما يحملان شهيدًا قد فَلقتْ إحدى العبوات الغازية جمجمته. كان فتى في العشرين وربما أقل من ذلك. لا أدري لِمَ فكرتُ بأن هذا الفتى جاء الساحة منتفضًا من دون أن تعرف عائلته بذلك، عائلته التي تنتظر عودته إلى الغداء أو العشاء. وشعرتُ بانقباض في قلبي على أمه وأبيه..!

أعرف أنني عاطفية جدًا. وقلبي ينسحق ألمًا حين أفكر بأمهات الشهداء الذين يتساقطون

بشكل مخيف. وفكرتُ في نفسي. ولم أتألم سوى على أمي وأبي، فأخوتي سوف يخفون موتي إذا ما حصل ذلك، بل إنهم سيتبرأون مني ومن مشاركتي في الانتفاضة حفاظًا على مصالحهم ومكانتهم في الأحزاب التي منحتهم وجاهة وسلطة في المدينة.

كانت الأوراق الإعلانية والصحف البسيطة توزع في الساحة، وهناك إذاعة تبث علانية كل الأخبار. لذا سمعتُ باختطاف بعض الشبان والشابات. وهناك تحذيرات لكل المنتفضين بأن يحترسوا عند الخروج من الساحة لوحدهم.

وكما أخبرتك ياآدم. وأكرر هنا، بأنني لستُ سياسية. لا أنتمي لتوجه فكري. ولدتُ وترعرعت في مدينة مقدسة، لكنها أبعد ما تكون عن القداسة لولا وجود مقام كريم فيها. أبي رجل دين وعالم كبير يُحسب له الحساب في المشهد الروحاني الطائفي. لدي أخوة وأخوات كلهم من أزواج أخواتي تجار دين وشعارات أخلاقية، اشتروا الدنيا وهيلمانها من دون أن يدفعوا مقابل ذلك شيئًا سوى استخدام سمعة والدي، وشعاراتهم الطائفية.

كنت متمردة منذ صغري، فلم أرتد الحجاب.

تعرضتُ لضغط أخوتي لكن والدي مع أنه رجل معمم وعالم دين كبير، كان أكثر تفهمًا من أخوتي الذين لم يلبس أي منهم عمامة، مع أنهم قادة متنفذون في الأحزاب الإسلامية. عشت تجربة عاطفية في مراهقتي، لكن الفتى المسكين اغتيل وتم قتله، وقد شاع أن أخوتي كانوا وراء الاغتيال. لكن لا دليل ضدهم.

وكما قلت لك ياآدم. لم أرتد الحجاب إلا بعد أن قرروا حرماني من مواصلة دراستي الجامعية. وجئت بغداد. و كما رويت لك عشت تجربة عاطفية، لأسميها مشاعر حب مع أستاذ الفلسفة، الدكتور النذل، الذي اتفق مع سيدة قوادة، قدمها لي بأنها سيدة فاضلة. وجرى ما جرى. جروني بشكل غامض وبطريقة دفعتني أن أذهب برجلي إلى الفخ. ووجدت نفسي خلال ساعات وقد صرت في قاع الانحطاط، وصرت فتاة متعة.

لكني وجدت في الانتفاضة ما أيقظ الروح فيّ وأعاد الحياة لإرادتي التي اِعتقدتُ أنها اختفتْ للأبد. لم أفكر بأية مصلحة وأنا أشارك المنتفضين في الساحة. لكن خفت على هؤلاء الشباب حينما رأيت أستاذي النذل، مغتصبي، يحاضر كقائد وموجه لمجموعة من الشباب،

بينما رأيته قبل ذلك متخفيًا تحت باروكة في تاكسي لاختطاف المشاركين. كما رأيت الرجل المعمم، الذي تمتع بجسدي لساعة وفق عقد منح له شريعته السمحاء وهو وسط مجموعة من الشباب الذي كانوا يحيطون به. مثلما رأيت القوادة مشاركة في تقرير تلفزيوني وهي تتحدث عن الانتفاضة. أقولها بصراحة لقد تم اختراق المنتفضين.

لا أفقه في السياسة لكني أفقه شيئًا واحدًا هو أننا نريد وطنًا حرًا، كريمًا، يحترم كرامتنا، ويوفر لما الحياة الكريمة. هل هذه الأماني بالضرورة يجب أن تكون مرجعيتها سياسية أو فئوية وطائفية.

لكنك إلى الآن لم تخبريني كيف وصلت إلى هنا؟ سألتها مستفسرًا.

ابتسمت. وقالت:

إنك لا تنسى مع أنه لا ذاكرة للموتى الأحياء.

بلى..إنهم يتذكرون الحياة التي كانت في مكان آخر ذات يوم.

حسنا سأجيب على سؤالك.

وأنا أسمعكِ.

بقيت في الساحة. فتشتُ عن المرأة المسنة

التي نمت إلى جانبها تحت بطانية مشتركة. وجدتها تطبخ شوربة عدس للمنتفضين. ذهبتُ إليها وشاركتها العمل. وبقيت معها للأيام التالية. لكن حدث أن تعرضتْ إحدى الفتيات لآلام مفاجئة في بطنها. هي كانت تعمل معنا قرب المكان الذي كانت المرأة المسنة تعد الطعام فيه. أخذناها إلى خيمة الأطباء، فقالوا من المحتمل أن تكون قد تعرضت لإلتهاب الزائدة الدودية، ومن الضرور ي نقلها إلى المستشفى. اللجان المؤلفة من الشباب اتصلوا بالإسعاف والطوارئ. لكن آلامها كانت قوية.

كان مكان إعدادنا للطعام على حافة الساحة. لمحنا سيارة إسعاف واقفة هناك. وكانت آلامها قوية جدًا، فتناسينا كل التحذيرات. وأخذتها وهي تتكيء علي إلى الإسعاف، فرحبوا بنا، وأصعدونا إلى السيارة وانطلقتْ بنا. كان ذلك هو الخطأ المميت الفادح. غلطة الشاطر كما يقال.

انطلقتْ السيارة بكل سرعتها. لم تتعطف على الشوراع الرئيسة للمدينة والتي تقود إلى المناطق التي فيها مستشفيات، بل توجهت إلى الطريق الذي يقود إلى خارج المدنية وإلى أطرافها البعيدة. كان معي اثنان من الرجال في القسم

الخلفي من السيارة، والفتاة مستلقية وهي تتلوى على سرير السيارة الطبي.

وسمعتُ الرجل الذي يجلس إلى جانب السائق يتحدث مع شخص آخر: «سيدي ومولاي. الأمانة وصلت واستلمناها. هي معنا في السيارة. مبارك لكم. عاش العراق». حينها أدركتُ أنني جئت بنفسي إليهم. وسيارة الإسعاف هذه جزء من الفخ المنصوب. واستغربت بأنني أمانتهم التي يتحدثون عنها. أكانوا يترصدونني من دون أن انتبه؟ ومن هو هذا السيد المولا الذي يباركونه بالصيد الثمين؟

وصلنا إلى بيت لديه بوابات عريضة. أدركت ذلك من توقف سيارة الإسعاف ومن هدير البوابة وهي تُفتح. توجهتْ السيارة إلى كراج تحت المبنى، هذا ما شعرتُ به من خلال انحدار السيارة متجهة إلى الأسفل. وحين وقفتْ خرج أحد الذين في مقدمة السيارة وفتح الباب لنا.

نزل الرجلان اللذان كانا معنا. أنزلا السرير الطبي الذي عليه زميلتي التي كانت مبتلة بشكل مريب بعرقها. لم تعد تصرخ وأنما تلوي رأسها يمينًا وشمالًا وكأنها تحتضر، وشحبَ لونها حتى صار أقرب للإخضرار.

أما أنا فشدوا عيني بقطعة من القماش السميك. ساقوني إلى مكان عرفت أنه بعيد عن سيارة الإسعاف. وسمعتهم يتحاورون فيما بينهم:

هذه تحتضر. ستموت.

إلى جهنم وبئس المصير.

سمعتُ قلقة فتح باب حديدي. ودفعوا بي إلى الداخل. وأحسستهم يدخلون خلفي ويغلقون الباب من الداخل. وأحدهم يزيل الغمامة عن عينيّ.

وجدتُ نفسي في صالة طويلة، وكأنني في مجزرة لذبح الأبقار. تتدلى من السقف عشرات السلاسل مع رافعات للتعليق مرتبطة بخطافات مختلفة الأحجام. وفي إحدى الزوايا أريكة خشبية مغطاة بجلد، وكأنها سرج حصان. وعلى الجدار عُلقت سياط مختلفة الأحجام والأشكال. وفي جانب آخر براميل فيها ماء، لكن كما يبدو ثمة عفونة تأتي من تلك الجهة، وكأن البراميل مليئة بالأوساخ والبول والقذارة.

أجلسوني على كرسي خشبي، وجلس أحدهم بالمقابل مني على كرسي حديدي. كان ينظر إليّ نظرات متفحصة، ثم بدأ أسئلته:

من أنتِ؟ وماذا كنتِ تفعلين في الساحة؟ أنت

لا تهتفين، ولا تذهبين مع المجاميع السافلة إلى الجسر. ماذا كنتِ تفعلين هناك؟

كانت لهجته هادئة ومطمئنة، وكأنها يريد أن يهدئ من روعي. وأدركت أنهم لا يعرفوني حقًا، فأجبته:

لا شيء. جئت أرى ما يجري. لستُ سياسية ولا أنتمي لأي جهة منظمة.

لو لم تكوني كذلك فلماذا هربتِ.؟ وكنتِ تركضين في أزقة البتاوين. لقد صورناك وأنت تركضين هاربة.

لقد خفتُ. مجرد خوف. لم أفعل شيئًا.

إذا كنتِ غير منتمية لجهة أو لا تتعاملين مع أية تنسيقية للتضاهرات، فهل أنتِ قحبة جئت تسترزقين.؟

ثم التفتَ نحو أحدهم وقال له:

هل صورتها موجودة مع مجموعة العاهرات اللاتي تم إرسالهن للساحة؟ أم هي من اللاتي يوزعن الحبوب المخدرة؟

شعرتُ بالشلل في فكي. لم أستطع الإجابة. تحرك الرجل الآخر وأخذ يقلب ملفًا يبدو فيه صور وقوائم لعيونهم ووكالائهم وجواسيسهم في الساحة. التفتَ الرجل إليه وقال:

صورتها غير موجودة ياحجي.

نظر الرجل إليّ بإمعان. وقال:

أنت مثيرة جدًا. شكلك سيكسي، من يراك يرغب في أن ينيكك. إذا أردتِ ألا نمحيك من الوجود ونقطّع جسدك إلى أجزاء صغيرة، بل ولا نسلخ جلدك وأنت حية، فعليك أن تتعاوني معنا..!

كنتُ أرتجف خوفًا. لستُ سياسية، ولا أريد أن ألعب دور البطولة، كل ما أريده الخروج من هنا لا أكثر، وكنتُ مستعدة للموافقة على أي شيء يقترحونه، فقلت:

أنا بريئة. لم أفعل شيئًا مسيئًا لأحد. حتى شعار نريد وطن هو شعار عادي.

فأخذ يقهقه ويقول:

من لا يريد وطن؟ لكن أي وطن تريدون؟ هذا وطننا وقد سقينا تربته بآلاف الشهداء، الآن أنتم تريدون أن تصادروه وتمنحونه للدول الاستعمارية، تبيعونه للاستكبار العالمي.

فتمتمتُ بخوف وارتباك:

لا علاقة لي بأحد. أريد فقط أن أخرج من هنا، وأن يتم معالجة زميلتي.

زميلتك ماتت.

صُعقت حين سمعت ذلك. لم أستطع أن أقول

شـيئًا. شـعرت بعجـزي عـن التفكيـر. كان الرجـل يتأملنـي بشهوة. نظـر إلـى جسـدي وصـدري وبطنـي وركز نظره إلى ما بين فخذي. وقال لي:

أنـت مثيـرة. أريـد أن أنيـكك الآن. وأريـد أن تكونـي عيننـا فـي المظاهـرات. هـل فهمتـي. يعنـي وظيفتج كحبة.

لم أجب. فصرخ بي صرخة مدوية:

أجيبي.. هل فهمتِ؟

نعم..

أريـدك أن تتوسـليني بـأن أنيـكك.. أن تطلبـي بنفسك ذلك.. تتوسليني.

بقيـت صامتـة لا أنبـس بأيـة كلمـة فصـرخ بـي صرخة شرسة:

قلت لك توسليني..

ارتبكتُ. واسـتحضرتُ انحطاطـي وسـقوطي فـي بيـت السـيدة الفاضلـة القـوادة، وانهيـار محـاولاتـي مـن أجـل أن أتجـاوز ذلـك. ووجـدت نفسـي أردد مـا طلبه مني من توسل بأن يضاجعني.

فجـأة، طلـب مـن زميلـه أن يأتـي بالكاميـرا. توجه الرجـل الآخـر إلـى حقيبـة كانـت علـى طاولـة قـذرة فـي إحـدى الزوايـا وجـاء يحمـل كاميـرة فيديـو. ومـن دون أي كـلام أخذنـي الرجـل المحقـق مـن ذراعـي

وتوجه بي إلى الأريكة الخشبية المغطاة بالجلد. طلب مني أن أكرر ما سيقوله. وقرأ علي كليشة المتعة التي سمعتها من الرجل المعمم في بيت السيدة الفاضلة القوادة. ثم طلب مني أن أنزع بنطالي وسروالي. وبلوزتي. فعلت ذلك بذل شديد. طلب مني التمدد على الأريكية الخشبية وأنا أفتح ساقي.

جاء الرجل الآخر وصور كل شيء. نزع هو حزام بنطاله واقترب مني. كان الآخر يصور كل التفاصيل. وصورني معه من دون أن يظهره. وصورني في أوضاع مختلفة حسب رغبة الرجل المحقق. وأثناء ذلك طلب مني التلفظ بكلمة جنسية إباحية مبتذلة تكشف عن رغبتي الشديدة بذلك. ثم طلب مني بأن أكرر بأنني موافقة على أن أكون عينهم على المتظاهرين وأنقل لهم أخبار الانتفاضة.

وكررت ما طلبوا. كنت ضائعة. وعرفت أن ضياعي هذه المرة لا خلاص لي فيه، ولا أمل يرتجى. ولم ينته ذلك إلا بعد أن قذف في رحمي. والغريب، لحظتها طرأ في ذهني احتمال أن أحمل منه.

غريب هو الإنسان. كانت مسألة سقوطي

وانحطاطي هي مجرد تكرار لما جرى معي، لكني الذي خفته في ذلك الموقف هو الحمل!؟.

حين انتهى مني سحب حاله، وذهب إلى جانب من القاعة وغسل قضيبه بالماء من إبريق كان هناك. ثم جلس على كرسيه. وصاح بي بأن ألبس ملابسي.

الرجل الآخر همس له:

وأنا حجي..

ارتسمت علائم التفكير على وجه الرجل المحقق وقال:

لا.. هذه ستكون لمتعتي أنا. لي فقط. اعطيها جهاز هاتف نقال فيه رقم واحد فقط. تتصل بي على مدار الساعة لتنقل لي كل شيء وكل ما يدور داخل الساحة. بل عليها أن تتغلغل داخل التنسيقيات لتنقل لنا ماذا يقررون ويخططون، ومن هم القادة السريين الذين لا يظهرون للعلن.

أمرك حجي.

كنتُ ملوثة بالمني. ومع ذلك لبست سروالي وبنطالي وبلوزتي. لم أكن أعرف ماذا أفعل، فقال لي وهو يشير إلى الكرسي الخشبي:

تعالي اجلسي هنا.

حين جلست قال لي:

لقد صورناك بكل وضوح. فيه اعترافك برغبتك الكبيرة في النيك، واعترافك بأنك مستعدة أن تكوني جاسوسة على المتظاهرين، لذلك إذا لم تتعاوني معي سأنشر هذا الفيديو على اليوتوب والانستغرام وأفضحك. صحيح لدينا بعض الذين يتعاونون معنا من داخل الساحة لكنك ستكونين في غاية السرية، وعلاقتك ستكون معي فقط. هل فهمتي.

سكتُ. لكنه صرخ بي بشكل فظ:

هل فهمتي..

فهمت. تمتمتُ بخوف.

لا أدري إن كانت هيئتي هي ما أنقذني من التعذيب الشديد. ربما شهوة هذا المحقق فيّ هو ما أنقذني. هل أنا سعيدة بذلك؟ نعم ولا.. نعم لأني تجنبت التعذيب الجسدي والألم. ولا لأني سقطت في بئر الانحطاط التي بلا قاع.

هل فعلت ما طلبوا منك؟ سألتها.

نعم.. وهل أمامي غير ذلك. في بداية الأمر كنت أحاول أن أنقل أخبارَ عادية وغير مهمة ومعروفة، وكنت اتصل بالحجي المحقق الذي صار يطلب لقائي، ليأخذني إلى شقة خاصة به،

وهنـاك يتفجـر شـبقًا وبـذاءة وإباحيـة معـي. حتـى اعتدتُ ذلـك. وصـار يضمـن لـي خروجي ودخولـي الآمـن إلـى السـاحة. لكـن الغريـب أنـه لـم يسـألني عـن عائلتـي وأصلـي وفصلـي. وكأنـه وكأنـه يعـرف كل شـيء ويكتمـه. والغريـب أنـه صـار بيننـا شـيء مـن الألفـة. فقـد تعـودت عليـه. وتعـودت علـى مضاجعتـه لـي. وأعجبنـي حمايتـه لـي واهتمامـه بـي. هـل أحببتـه؟ كيـف لامـرأة أن تميـل لمغتصبهـا ومذلهـا؟ أفـي داخلـي ثمـة عاهـرة مخلصـة لقوادهـا؟.. إلـى أن واجهتـه ذات يـوم بأنـه يكتـم شـيئًا، فهـل هـو يعرفنـي؟ أجابنـي بـكل هـدوء بأنـه يعـرف كل شـيء عنـي. وأنـه فعـلًا أراد أن يسـيء إلـيّ، لكنـه عـرف بأنـي إنسـانة لا علاقـة لـي بهـؤلاء الذيـن يريـدون تخريـب البـلاد. فحاججتـه بـأن الأمـر ليـس كمـا يعتقـد، فأغلـب هـؤلاء مـن أبنـاء العـراق المخلصيـن الذيـن يحتجـون علـى الفسـاد الذي صار سرطانًا يهدد البلاد بالموت والفناء.

فـي بدايـة حواراتنـا كان يحتـج لكنـه مـع تكـرار الحـوار أخـذ ينصـت. ويصمـت مـن دون أن يـرد. إلـى أن اعتـرف ذات مـرة بأنـه عبـد مأمـور، وإذا لـم يفعـل مـا يفعـل فسـيقتلونه بـلا رحمـة. هـل أنـا أجـد تبريـرًا للقتلـة؟ لا طبعًـا، لكنـي وددت القـول كلنـا فـي

الجحيم.

ومع ذلك لم تخبريني كيف أنتِ هنا؟ سألتها.

ذات يوم أفاق جميع المنتفضين، صدموا حين انتبهوا إلى أن جميع تماثيبل جدارية التحرير الشهيرة قد اختفت. بل أفاق الجميع على مشهد لا يخطر إلا في الخيال. فقد كانت السماء التي فوق الساحة والجسر ليست خالية أبدًأ، بل كانت ثمة امرأة بالغة الحسن والجمال، ترتدي جلبابًا أسودَ أنيقًا. وكان وجهها حزينًا جدًا. كانت تنظر من السماء لحشود المنتفضين في ساحة التحرير بمودة وحنان ولطف.

كان وجه المرأة وهيئتها تشكل السماء المرئية. وجهها كبير ويمتد على سعة السماء. وتحولت الجدارية إلى ما يشبه الشاشة التلفزيونية، وعليها ظهرت كتابة تشير: ظهور السيدة بغداد.

كان وجهها حزينًا وهي ترتدي ملابس الحداد السود. وكان الناس في هرج وصخب وهم ينظرون إلى أمهم بغداد.

لا أعرف ما الذي جرى معي. أحسستُ بأن الإنسان يمكنه أن يتغيّر ويغير، ما دامت إرادة الخير لم تخبو في أعماقه، لكن هل في أعماقي إرادة والخير وأن في عمق المستنقع النتن..؟

وفجـأة أحسسـت بأنـني أسـتطيع ألا أكـون جاسوسـة علـى هـؤلاء المنتفضيـن، بـل أكـون عونًـا لهم.

هـل رأيـت بغـداد متجسـدة فـي سـيدة جميلـة حزينة تلبس ملابس الحداد.؟ سـألتها.

نعم..

وماذا جرى بعد ذلك؟

لا شـيء..كنت حينهـا أتأمـل السـيدة بغـداد وهـي تمـلأ السـماء بوجههـا الجميـل الحزيـن، وإذا بعبـوة دخانيـة تسـتقر فـي وسـط جبينـي بيـن عينـيّ. سـقطتُ فـي الظـلام الفجائي......صحيـح إن مثـل هـذا المـوت بشـع. فألمـه لثـوان لا يطـاق. نعـم لا يستغرق سوى ثوان. وتسقط في الظلام.

حيـن أصابتنـي العبـوة فـي وسـط عينـيّ حفـرتْ وجهـي وجبينـي ومزقـت مقلتـيّ. سـقطتُ علـى الأرض كخرقـة. كنـتُ بالقـرب مـن حافـة السـاحة، وبالقرب مني تقف الإسعاف على الجانب الآخر مـن الطريـق الـذي ينحـدر مـن السـعدون باتجـاه ساحة الطيران.

الغريـب إننـي كنـت اسـمع كل شـيء. فقـد اتصـل أحدهـم، الرجـل الآخـر، المصـور، الـذي كان مـع المحقـق. ليخبـره بأننـي أصبـت بعبـوة دخانيـة فـي

جبيني بحيث فقدت كلتا عينتيّ.
وحين أفقتُ وجدت هذه الغمامة الجلدية على عينيّ. نائمة في سريري في الشقة التي أرتادها مع عشيقي المحقق، وليس في شقتي بالكرادة.
كنتُ ميتة، لكنني حية أيضًا. وعلى الرغم من فقداني لعينيّ ووجود هذه الغمامة الجلدية لتغطي بشاعة المنظر، إلا إنني كنت أرى. كما أراك الآن.
وذات ليلة. وفي الهزيع الأخير من الليل. طُرق باب الشقة بقوة وبضربات قوية ومتتالية. وقبل أن يغادر المحقق السرير ليفتح الباب، اقتحم عدد من الملثمين الشقة بعد أن كسروا الباب رفسًا بالأقدام. ومن دون كلام شهروا اسلحتهم بوجه عشيقي المحقق.
كانوا عددًا كبيرًا من الرجال. ومن خلفهم رأيت أخي الصغير، بل والكبير أيضًا. تقدم أخي الصغير، الذي كان كما يبدو مسؤولا كبيرًا عند هؤلاء الملثمين وقال لعشيقي المحقق: «أنت متهم بالتسترعلى الإرهابيين. ومتهم بسوء استخدامك لمكانتك ومنصبك. عرفنا كل شيء. وهذه الشقة أكبر دليل على ذلك. خذوه.. وهذه الجاسوسة اِلقوا بها في زنازيننا السرية. اتركوها إلى أن

تتعفن هناك. لا تحققوا معها. ولا نريد أن نعرف من هي ولا اسمها وأصلها وفصلها. يكفي أنها مع هذا الخائن...».. وكما قلت لك إنهم على استعداد للتبرؤ مني. وفعلًا تبرأوا مني. أنا الآن حواء اللاأحد.

أليس هناك من أمل بأن يطلقوا سراحك؟

لا.. أنا محكومة بالانتظار الأبدي.

فجأة تعالت أصوات العصي المطاطية وهي تضرب على قضبان الزنزانات. ولمحت من بعيد بعض الملثمين وهم مقبلون باتجاهنا. فأخذنا أنا وآدم الصغير نركض لاسيما وأن نهاية النفق لاحت لنا، وان النفق صار يغادر عتمته شيئًا فشيئًا. بل وبدا لا سقف يغطيه. وأخيرًا وصلنا في النفق مفتوح السقف على السماء.

8

حين وصل آدم الحارس مع الصبي آدم الصغير إلى نهاية النفق المفتوح على السماء، رأى وكأن قد وصل إلى النفق الذي يربط بين شارع الجمهورية وشارع السعدون. ذهل حينما رأى القيامة في ساحة التحرير. كان المشهد العام يشبه يوم الحشر العظيم في التوصيفات الدينية، فالجموع كلها تهتف: «نريد وطن». بينما من جهة جسر الجمهورية كانت سيول القذائف الدخانية تأتي ردًا على الهتافات المدوية.

فكر آدم الحارس حينها مستغربا كيفية ارتباط النفق المظلم الذي كانا فيه، والذي ابتدأ من شارع المتنبي بهذا النفق القصير الموجود في الباب الشرقي. وسأل نفسه: «أمن المعقول أنه لا أحد يعرف بوجود النفق المظلم تحت المدينة.

خلال تلك اللحظات من الدهشة والاستغراب سمع دويًا يشبه إيقاع جيش يمشي بشكل رتيب. فقد كانت الأرض تهتز من وقع الأقدام القوية للجثث الهاربة من المشرحة والزاحفة على ساحة

التحرير.

فجأة، بدتْ طلائع مسيرة الجثث الهاربة تظهر للعيان وتصل إلى مشارف الساحة. أقبلتْ جموع الجثث الهاربة من المشرحة من جهات مختلفة. من فرعي شارع الجمهورية اللذين ينشقان من ساحة الخلاني. ومن جهة شارع الرشيد أيضًا، بل وحتى من جهة شارع السعدون وصلت حشود الجثث، علما هو رأى حشود الجثث الهاربة تنطلق من باب المعظم، حيث مشرحة بغداد فقط.

حاصرتْ حشود الجثث الهاربة ساحة التحرير من كل جهاتها. لكن هيمن ما يشبه السكون على الساحة. فقد غطت سماء بغداد آلاف الغربان السود. جاءت الغربان من جهات مختلفة. حجبت زرقة السماء، وغطت واجهات وأسطح المباني التي تحيط بالساحة وصولا إلى ساحة الطيران.

ومع مجيء الغربان أطلقت القاذفات والعبوات الدخانية على الساحة بناسها وخيامها من الجهات كلها. فأشتعلت النار في خيام المنتفضين. ولم يمض إلا القليل من الوقت حتى صارتْ الساحة وكأنها ميدان مخرب بعد انتهاء معركة هائلة خلفت مجزرة وحطاما.

وكما ظهرت الغربان فجاة، اختفت فجأة أيضًا.

كانت الساحة والشوارع مكتظة مكتظة بمئات الشهداء الذين سقطوا في الساحة وفوق الجسر. لكن السماء بدتْ زرقاء، زرقاء.

وكان وجه السيدة بغداد يغطي مساحة السماء كلها. كان وجه السيدة بغداد جميلًا، وحزينًا وهي تنظر إلى الساحة وإلى بقايا خيامها المحترقة، وكأنها ثكلى بفقدانها المئات من شبابها اليافعين.

كانت السيدة بغداد في ثياب الحِداد. ومع ذلك فهي تنظر للجميع قاتلين ومقتولين، شهداء وقتلة بعين حزينة. كان الحِداد هو ما يليق بالسيدة بغداد.

وكان آدم الحارس والصبي آدم الصغير ينظران إلى السماء. إلى وجه السيدة بغداد.

بدأت كتابة الرواية في أربيل بتاريخ

25/4/2012

وأنهيت الكتابة في أربيل بتاريخ

22/10/2021

cemetery.of.books